حرية حورية

رواية

د. علاء الدين التهامي

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : حرية حورية
المؤلف : د.علاء الدين التهامي
تصميم الغلاف : أحمد أبو دوح
إخراج عام : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٤٣٩٣ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى : 9 - 631 - 776 - 977 - 978
البريد الإلكترونى للمؤلف: abo.omir@yahoo.com

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ ـ ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الحرية أكبر خدعة في تاريخ الإنسانية .. / و الحر منا من لا يحب، يا لها من مأساة.. / رحلة البشرية للعودة للفردوس المفقود.. / إن أردتني عبدا فلا تخيرني و إن أردتني حرا فلا تحاسبني ../ و كلما جذبنا اقتربنا حتى وصل القارب إلى الشاطئ../ المأفون ذهب يبحث عن الحرية../ يوم بلا طعام لا يتعب بدنا و لا يقرب أجلا../

لماذا غادرت؟ لماذا تركت ما تركت؟.. / رغبته في السفر أضحت كالشجرة المحرمة التي يعجز عن الصبر عنها البشر../ لكي تجد الحرية لابد أن تركب سفينة النجاة.. / لكي تعيش في قلب العالم لابد أن تقبل بالتاريخ المزور.. / لا يصلون و لا يعودون و لكن يتيهون.. / المجرم يريد أن يجعل من نفسه قديسا../ لا أستطيع أن أصف لك، لابد من التجربة الشخصية.

الفصل الأول

التجربة

جلست «حورية» أمام قفص الطائر بديع الألوان الذي أهداه لها والدها في يوم ميلادها العاشر، و أخذت تخاطبه في براءة و مرح قائلة : ها أنت قد أمضيت معنا أسبوعاً، أنت الآن فرد من العائلة، لعلك ترغب في الطيران، أنا لم أحضرك لأحبسك و إنما لأصاحبك و ألعب معك، سأفتح لك القفص لتطير في الغرفة كما تشاء و عندما تشعر بالجوع و تعود إلى بيتك ستجد طعامك في انتظارك.

مدت الطفلة يدها لتفتح باب القفص ثم تراجعت كأنما تذكرت شيئا هاماً و قالت : معذرة لابد أن أغلق النافذة أولاً، و لكني سأترك الستائر لتستطيع أن تنظر إلى السماء.

و ما أن فتحت الباب حتى انتبه الطائر و أخذ ينظر بحذر كأنما يفكر هل المرور ممكن أم أنه كمين؟ ثم بدأ يقترب بحذر من منفذ الخروج و أطل برأسه أولاً و نظر يمنة و يسرة، و ما أن لمح النافذة حتى انطلق كالسهم تجاه السماء، و لم يساعده عقله أن يدرك وجود الزجاج الذي يسمح بالرؤية و لا يسمح بالمرور فاصطدم به رأسه الصغير بقوة دقت عنقه فخر صريعاً في الحال.

استغرق المشهد ثوانٍ معدودة، و استغرقت «حورية» ثوانٍ أخرى لتدرك ما حدث ثم انطلقت نحو الطائر في محاولة يائسة لإسعافه، لكنه كان قد فارق الحياة، فأسقط في يدها و ركضت على غير هدى و هي تصيح باكية: أبي.. أبي.

استمرت في الركض و الصياح و لم تتوقف حتى وجدت نفسها بين ذراعي أبيها يربت عليها و يسألها عن الخبر، فقصت عليه القصة من بين الشهيق و النحيب و البكاء، فأخذ يهدئ من

روعها و يقول : لا بأس أنت لم تقصدي شرا، و الطائر أراد أن ينعم بالحرية لكن الثمن كان غاليا.

«حورية» و قد هدأت نوعاً ما: أنا أيضا أردت له الحرية و لذلك فتحت له القفص، فلماذا فعل ذلك؟

«الأب»: أنت أردت له الحرية النسبية وهو أراد الحرية المطلقة.

لم تفهم الطفلة عبارة أبيها فنظرت إليه نظرة استفسار مشوبة بالاستياء، فقال متلطفاً: يعني أنت أردت له أن يطير في الغرفة و هو أراد أن يطير في السماء.

«حورية»: أليست الغرفة واسعة و جميلة؟!

«الأب»: بلى. لكن السماء أوسع و أجمل.

«حورية»: هنا كان سيجد الحَب و الماء و كنت سأعتني به و ألاعبه، أما في الخارج فكان عليه أن يبحث عن الطعام بنفسه و ربما يتعرض للخطر من الطيور الكبيرة، فهل كان يعرف ذلك؟

احتار الأب في الجواب و لم يستطع أن يحدد هل اختار الطائر ما اختار و هو يدرك العواقب و الأخطار؟ أم أنه اتبع غريزته و هواه بلا بصيرة و لا إبصار؟ فسكت برهة ثم بدا له أن يحيل السؤال إلى السائلة، فقال: ما رأيكِ أنتِ؟ و ماذا تختارين لو كنتِ مكانه؟

أطرقت الفتاة و صمتت فترة ليست بالطويلة لكنها مرت على الأب طويلة لأنه كان يرجو أن تختار الأوقع و الأيسر، و كان يعلم أنه لن يستطيع أن يمنحها الاختيار الآخر، ثم رفعت رأسها و نظرت في عين أبيها و قالت كلمة واحدة: السماء.

شعر الوالد بالخذلان و لم يجد ما يعزي به نفسه سوى أن ابنته ما زالت طفلة و عندما تكبر ستغير رأيها فابتسم مشجعاً و قال: حسناً، و الآن ماذا سنفعل بهذا الطائر المسكين؟

ظنت «حورية» أن ابتسامة أبيها تشجيعا لها على حسن جوابها و لم تدرك أنها كانت تشجيعا لنفسه على الصبر عليها حتى تغير من رأيها، فأصبحت «السماء» منذ ذلك اليوم أمنيتها القصوى و غايتها العليا تتطلع إليها دوماً و تحن إليها شوقاً.

«حورية»: نحفر له حفرة بين الزهور في الحديقة المجاورة و نضعه فيها.

التقط الأب منديلا ورقيا وضع فيه الطائر ثم أعطاه لابنته و قال : فكرة رائعة، هيا بنا.

أمسكت الفتاة الطائر بيد و تعلقت بيد أبيها بالأخرى و انطلقا ليودعا الطائر إلى مثواه الأخير.

*** ***

«حازم لبيب» دكتور في علم الاجتماع، في أواخر العقد الخامس من العمر، على عكس الكثير من الأساتذة لم يكن يلقي بالاً لمن يحضر متأخراً أو يغادر مبكراً طالما لم يحدث جلبة أو يتسبب في إزعاج للحاضرين أو يقاطع المحاضرة بغباء، و كان كثيرا ما يقول لطلابه: «من شاء فليحضر متى شاء و ليرحل متى شاء و لكن إياكم و الغباء»، و كان طلابه يحمدون له ذلك القدر من الحرية، و يحضرون محاضرته ليس من باب الالتزام بالنظام ولكن رغبة فيما يثار فيها و يقال، وكان يروقهم تفاعله معهم على

المستوى العقلاني مع ما يأخذونه عليه من الجفاف على المستوى الوجداني.

و رغم حرص «حورية» على الحضور مبكراً إلا أنها تأخرت ذات صباح، و وصلت بعدما بدأ الدكتور «لبيب»، فأخذت تتسلل على أطراف أصابعها خشية أن تتسبب في قطع حبل أفكاره فتسمع ما لا يرضيها من كلامه، حتى وصلت إلى أقرب مقعد شاغر بجوار إحدى زميلاتها في الجانب الأيسر من قاعة المحاضرات، فجلست بأكبر قدر ممكن من الهدوء و بدأت في الإنصات، فكان أول ما وقع على سمعها و أثار انتباهها من كلام المحاضر ما يلي:

«...الحرية أكبر خدعة في تاريخ البشرية، ضحى الناس من أجلها بأرواحهم، و قتل بعضهم بعضاً في سبيلها، و تغزل فيها الأدباء، و تغنى بها الشعراء، و قال أميرهم :

فَفي القَتلى لِأَجيالٍ حَياةٌ
وَفي الأَسرى فِدًى لَهُمُ وَعِتقُ
وَلِلحُرِّيَّةِ الحَمراءِ بابٌ
بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

تطلع الدكتور «لبيب» إلى طلابه لحظة ثم أكمل حديثه قائلاً: و لكن عندما فتح الباب بالدماء لا كان عتق و لا فداء، و إنما انتقال من أسرٍ قديم إلى أسرٍ جديد، و من صورة من صور الاستبداد إلى صورة أخرى منه، أو على أحسن تقدير استبدال قيود الحديد بقيود الذهب، و الخروج من السجن المظلم إلى السجن المضيء.

بـدأت الهمهـمات تـسري بـين الطـلاب و تـزداد، و تـرددت في القاعـة بعـض الكلـمات ما بـين الاحتجـاج و الاعـتراض و الاسـتنكار أو التعجـب و الانـدهـاش و الاستفسـار، فقطـع الدكتـور «لبيـب» استرسـاله و أشـار بيديـه للطـلاب أن يهـدؤا، ثـم قـال: تعلمـون أننـا نفتـح البـاب للمناقشـة بعـد انتهـاء المحـاضرة، لكـن يبـدو أنكـم لا تسـتطيعون اليـوم صـبراً، فـلا بـأس أن نفتـح البـاب الآن، و أضـاف بابتسـامة مسـتفزة: و الحمـد لله أن بـاب المناقشـة ليـس بـكل يـد مضرجـة يـدق.

و فـور انتهائـه مـن تلـك العبـارة انتقـل مـن القيـام إلى الجلـوس أمـام المكتـب و ضغـط زراً فيـه فبـدأت أرضيـة قاعـة المحـاضرات في التحـرك لتعيـد تشـكيل المقاعـد التـي يجلـس عليهـا الطـلاب لتتحـول مـن صفـوف متوازيـة إلى صفـوف متقابلـة ماعـدا الصـف الأخـير بقـي في مكانـه ليصبـح ترتيـب المقاعـد عـلى شـكل حـرف « « اللاتيني، ثـم التقـط مطرقـة خشـبية صغـيرة مـن المـكان المخصـص لهـا بالمكتـب و دق بهـا دقتـين و قـال: هـا هـو البـاب قـد فتـح، فأعلنوا مـا كنتـم تـسرون، و أخرجـوا مـا كنتـم تكتمـون. ثـم نظـر يمنـة و يـسرة و أضـاف: مـن يحـب أن يبـدأ؟

ضغـط أحـد الطـلاب الجالسـين عـلى الجانـب الأيمـن زراً خاصـاً في المقعـد لطلـب الكلمـة فظهـر عـلى الشاشـة الصغـيرة المثبتـة عـلى مكتـب الدكتـور «لبيـب» اسـم الطالـب و رقـم المقعـد الـذي يجلـس عليـه ، فأشـار لـه الدكتـور أن يبـدأ، فقـال: هـل يعنـي هـذا أن الأوطـان لا تسـتحق التضحيـة و أن الشـعوب لا يجـب أن تناضـل مـن أجـل اسـتعادة حريتهـا؟

«لبيب»: و لماذا يجب على الشعب أن يضحي بحياته في سبيل حرية وطن لم يختره بحرية و إنما ولد فيه رغما عنه يا عاطف؟

«عاطف»: و كذلك الإنسان لم يختر أمه و أباه، أفلا يضحي من أجلهما؟

«لبيب»: هب أن أباه كان ظالماً أو فاسداً أو جهولاً، أتخنق حياة بريئة لتطلق حياة مجرمة؟

«عاطف» و قد أثارت حفيظته إجابات الدكتور: و إلى متى سيستمر حوارنا على هذا النسق؟ أسأل حضرتك سؤالا فتجيبني بسؤال؟

لم يبد على «لبيب» أي علامة من علامات الاستياء أو الانزعاج رغم نبرة الحدة في عبارة «عاطف» الأخيرة، بل على العكس بدا عليه شيء من الارتياح و الاستمتاع، فقد كان من هواة المباريات العقلية و القضايا الجدلية، فقال في هدوء: حسناً أيها الثائر، أنت على حق، دعنا نحول الأسئلة الاستنكارية إلى جملٍ خبرية فتصبح على النحو التالي، ثم اعتدل في جلسته و قال :

الإنسان سجين المكان و الزمان، و سجين بدنه و لونه و أرضه و وطنه، و سجين أسرته و قومه، و سجين بيئته و ثقافته، لم يكن له اختيار في كل ذلك و لا يستطيع أن يتحرر من كل ذلك، و مع ذلك هذا السجين المسكين مطالب بتحرير أرضه و وطنه و أسرته و قومه، و مطالب بالدفاع عن بيئته و ثقافته، و مطالب بأن يضحي بحياته من أجل ذلك كله أو بعضه تحت دعاوى الحرية و بريقها، و لذلك أطلقت عليها الخدعة الكبرى.

طلبت «سارة» الجالسة في الصف الأخير المقابل لمكتب الدكتور الكلمة و قالت: ما تفضلت به حضرتك قد ينطبق على الدول و الشعوب في منطقتنا، أما في العالم المتقدم فقد نالوا حريتهم بالفعل، حرية حقيقية و ليست خدعة أو وهماً.

«لبيب»: لا أظن ذلك يا «سارة»، و الفارق بيننا و بينهم فارق في الدرجة لا في النوع، بمعنى أننا للأسف عادة ما ننتقل من سجن إلى سجن مماثل أو أشد ضيقاً، بينما هم قد انتقلوا إلى سجون رحبة، و هذا ما قصدته حينما قلت في نهاية المحاضرة: (أو على أحسن تقدير استبدال قيود الحديد بقيود الذهب، و الخروج من السجن المظلم إلى السجن المضيء)، و ابتلع ريقه ثم أضاف: الأمريكيون كمثال منذ عشرات العقود تتمثل حريتهم في الاختيار بين الجمهوريين و الديمقراطيين و يظنون أنهم قد بلغوا قمة الحرية.

و هنا قام «عاصم» من الصف الأخير أيضا بطلب الكلمة و قال: ليست هناك حرية مطلقة لا بالنسبة للفرد ولا بالنسبة للمجتمع؛ لأنه لا وجود لكائن إنساني غير خاضع لحتميات بيولوجية ومجتمعية، كما أنه لا إمكانية لتصور قيام مجتمع يجسد مقولة الحرية بمدلولها الإطلاقي، أي بلا قيد و لا شرط ولا حتميات. فالحرية بمعناها المطلق ليست سوى فوضى أو يوتوبيا حالمة ، و بالتالي ليس من الإنصاف أن نلقي باللوم على الشعوب التي ضحت من أجل أن تصل إلى القدر المتاح من الحرية، و ليس من الحق أن نتهمها بأنها ضحية لخدعة كبرى.

«لبيب»: الحرية يا «عاصم» لا تقبل القسمة، أم تراك من أنصار أنصاف الحلول و الأمور؟ ثم ضغط زرا على جهاز الحاسوب فظهرت على الشاشة الموجودة في مقدمة القاعة أبيات من قصيدة لجبران خليل جبران تتلى بصوت رخيم على خلفية موسيقية هادئة يقول فيها:

لا تجالس أنصاف العشاق، ولا تصادق أنصاف الأصدقاء، لا تقرأ لأنصاف الموهوبين، لا تعش نصف حياة، ولا تمت نصف موت، لا تختر نصف حل، ولا تقف في منتصف الحقيقة، لا تحلم نصف حلم، ولا تتعلق بنصف أمل، إذا صمتّ.. فاصمت حتى النهاية، وإذا تكلمت.. فتكلّم حتى النهاية، لا تصمت كي تتكلم، ولا تتكلم كي تصمت.

إذا رضيت فعبّر عن رضاك، لا تصطنع نصف رضا، وإذا رفضت.. فعبّر عن رفضك، لأن نصف الرفض قبول.. النصف هو حياة لم تعشها، وهو كلمة لم تقلها، وهو ابتسامة أجّلتها، وهو حب لم تصل إليه، وهو صداقة لم تعرفها.. النصف هو ما يجعلك غريبًا عن أقرب الناس إليك، وهو ما يجعل أقرب الناس إليك غرباء عنك، النصف هو أن تصل وألّا تصل، أن تعمل وألّا تعمل، أن تغيب وأن تحضر.. النصف هو أنت، عندما لا تكون أنت.. لأنك لم تعرف من أنت. النصف هو ألّا تعرف من أنت.. ومن تحب ليس نصفك الآخر.. هو أنت في مكان آخر في الوقت نفسه»!!

نصف شربة لن تروي ظمأك، ونصف وجبة لن تشبع جوعك، نصف طريق لن يوصلك إلى أي مكان، ونصف فكرة

لـن تعطـي لـك نتيجـة.. النصـف هـو لحظـة عجـزك وأنـت لسـت بعاجـز.. لأنـك لسـت نصـف إنسـان. أنـت إنسـان.. وجـدت كـي تعيـش الحيـاة، وليـس كـي تعيـش نصـف حيـاة!!»

«عاصـم»: لقـد جئـت بالقصيـدة يـا سـيدي في غـير سـياقها، و هي لا تتضمـن كلمـة واحـدة عـن الحريـة، و مـا ذكرتُـه آنفـاً عـن اسـتحالة الحريـة المطلقـة لم يكـن مـن كلامـي و إنـما.. و إنـما.. ارتبـك «عاصـم» و منعـه الخجـل مـن إتمـام عبارتـه، فابتسـم «لبيـب» ابتسـامته المسـتفزة المعتـادة و قـال : و إنـما مـن كلام علـماء الاجتـماع، هـا أنـا قـد أكملـت لـك حتـى أرفـع عنـك الحـرج، أليـس هـذا مـا أردت قولـه؟

«عاصم» في حياء: بلى.

«لبيـب»: ليكـن، لكـن طالمـا نحـن نتحـدث عـن الحريـة فلـمَ لا نتحـرر مـن أطروحـات العلـماء السـابقة؟

«عاصـم»: إذن مـا تطرحـه حضرتـك هـو أن الحريـة الحقيقيـة خدعـة كـبرى و لا وجـود لهـا، و كل مـا دون الحريـة الحقيقيـة مما يتغنـى بـه البـشر ليـس بحريـة. صحيـح؟

«لبيب»: أجل.

و هنـا عـاد «عاطـف» للمداخلـة قائـلاً: معنـى هـذا أن حضرتـك متفـق مـع القـول باسـتحالة الحريـة المطلقـة، و مـا تعتـبره ليـس بحريـة يعتـبره الأخـرون حريـة نسـبية، فالخـلاف في الواقـع لفظـي.

«لبيـب»: لا. ليـس كذلـك. عندمـا يئـس البـشر مـن التمتـع بالحريـة المطلقـة و لكـي يخففـوا مـن درجـة الاحبـاط لديهـم، أخـذوا في التعامـل مـع الحريـة النسـبية أو المتاحـة عـلى أنهـا مطلقـة و بـدأوا

يلبسونها هالات الإجلال و الإكبار حتى أفسدوا في الأرض و سفكوا الدماء من أجلها، و صدق قول مدام رولان إبان الثورة الفرنسية أمام المقصلة: (أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك!)، و كان أحرى بهم أن يسموا الأشياء بأسمائها و أن يعترفوا أن الحرية النسبية ليست بحرية و لا تستحق أن ترتكب الجرائم من أجلها، و حينئذ تصبح التضحيات مشروطة و لا تتم إلا في إطارها الصحيح.

«عاطف»: و هذا يعيدنا إلى مسألة التضحية من أجل تحرير الأوطان أو التضحية من أجل الوالدين و الأهل و العشيرة.

«لبيب»: نعم. إن كانت تضحيات الشعوب و نضالها فقط من أجل استبدال الحكام من الجنسيات الأخرى بحكام من نفس الجنسية، و اعتبار أنه إذا لم يتم ذلك فهي خيانة للوطنية، فهذا غش و خداع و تحايل لأغراض شخصية، فمعيار الحكم على الحكام إنما هو تحقيق العدالة و ليس التمتع بالجنسية، فالحاكم الذي يحافظ على الوطن و مقدراته و يرعى المواطنين و مصالحهم هو حاكم وطني و لو جاء من المريخ، و الحاكم الذي يفرط في مصالح البلاد و العباد و يكتسب الجاه من الظلم و المال من السلب هو حاكم خائن و لو كانت جذوره ضاربة في عمق تاريخ البلاد، و يتمتع بالجنسية أبا عن جد إلى مائة من الأجداد.

ترددت «حورية» قليلاً ثم حسمت أمرها و قررت المشاركة في الحوار، فطلبت الكلمة و قالت: اختلف معك يا دكتور «لبيب» أن البشر يئسوا من الحرية المطلقة و أن الحرية الحقيقية لا وجود لها، أنا بصراحة أتحدث عن نفسي، فالأمل في الحرية المطلقة لا يزال

حياً في خيالي، و البحث عن الحرية الحقيقية نزعة بشرية مستمرة منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، و أحسب أن الرغبة العميقة في الحرية المطلقة كانت الدافع الخفي وراء معصية أبينا آدم الأولى، و هي التي جعلته ينجذب إلى الشجرة المحرمة و يلتفت عن آلاف الأشجار المباحة، لأن تلك الأشجار حريته فيها كانت كاملة أما الشجرة المحرمة فحريته فيها كانت منقوصة و لذلك أراد أن يستكملها.

نظر الدكتور «لبيب» إلى «حورية» نظرة فاحصة من فوق النظارات الطبية التي يرتديها ثم قال لها: إذن المعصية يا «حورية» هي السبيل إلى الحرية الحقيقية من وجهة نظركِ؟

«حورية»: ليست المعصية و إنما الإرادة و الاختيار و التجربة و إن أدت بنا للمعاصي فهي معصية عارضة نتعلم منها ثم نقلع عنها، تماما كما فعل أبوينا، و لعل هذه هي الحكمة من مشروعية التوبة بعد كل ذنب و إن تكرر منا في اليوم سبعين مرة.

«لبيب» موجهاً الحديث للطلبة : ما رأيكم فيما تطرحه زميلتكم ؟

«سارة»: أية محاولة للجمع بين الدين و الحرية هي محاولة للجمع بين نقيضين، الدين يقوم على وجود رب خالق معبود و بشر مخلوقين عبيد، ليس لهم إلا أن يقولوا سمعنا و أطعنا، فأنى للعبد أن يكون حراً؟

«عاصم»: حتى لو تحرر الإنسان من الدين فسيبقى خاضعاً للحتميات البيولوجية و المجتمعية، و سيظل سجيناً للبدن و

اللـون، و الأرض و الوطـن، و البيئـة و الثقافـة، كـما أشـار الدكتـور.

«عاطـف»: لـو كان المطلـوب مـن البـشر مجـرد السـمع و الطاعـة لمـا كانـت هنـاك إضافـة في منظومـة الخلـق مـن الجـمادات و حتـى الملائكـة، و لـكان هنـاك مـن المخلوقـات مـن يقـوم بهـذا الـدور أفضـل مـن البـشر بكثـير، و لمـا كان هنـاك معنـى لتكليفهـم و إرسـال الرسـل إليهـم و محاسـبتهم.

«سـارة»: الحسـاب يتناقـض مـع الحريـة، إن أردتنـي عبـداً فـلا تخـيرني، و إن أردتنـي حـراً فـلا تحاسـبني عـلى اختيـاري، أرأيـت كـم التناقـض بـين الديـن و الحريـة؟

«عاصـم»: بهـذا المنطـق فـإن الحريـة سـتتناقض أيضـا مـع الأخلاق و القيـم، و النظـم و القوانـين، و السياسـة و المجتمـع، و الحضـارة و التاريـخ، فلـماذا جعلـتِ الديـن غرضـا لسـهامكِ دون كل مـا سـبق؟

«حوريـة»: نعـم الحسـاب يتناقـض مـع الحريـة، و لذلـك درج العامـة عـلى مقولـة الحسـاب يـوم الحسـاب، لأنهـم يعلمـون أن الحسـاب الحقيقـي مؤجـل، و أن البـشر يسـتطيعون من خـلال التحايل عـلى القانـون و اسـتخدام المـال و النفـوذ الإفـلات مـن المسـاءلة و المحاسـبة، فنحـن نعيـش يومـين أو حياتـين، يـوم فيـه عمـل و لا جـزاء و يـوم فيـه جـزاء و لا عمـل، و بذلـك نحـن أحـرار حريـة حقيقيـة.

«عاطـف»: بـل الحريـة بـلا حسـاب لا معنـى لهـا، و إذا لم يتحمـل الإنسـان نتيجـة مـا يختـار فـما قيمـة الاختيـار؟ هبـوا أن أكل أبينـا آدم مـن الشـجرة المحرمـة لم يترتـب عليـه أي شيء، و لم يُحمـل مسـئولية هـذا القـرار، فـما النتيجـة؟ النتيجـة أن يكـون الأكل مـن الشـجرة و

عـدم الأكل منهـا سـواء بسـواء، يعنـي يسـتوي الوجـود و العـدم، و الطاعـة و المعصيـة، و الخـير و الـشر، أمـا مـع خروجـه مـن الجنـة، فقـد نـال الخـبرة و ظهـرت الحكمـة و بـدأت الرحلـة.

«سارة»: أية رحلة؟

«عاطف»: رحلة البشرية للعودة إلى الفردوس المفقود.

لمعـت عينـا الدكتـور «لبيـب» حينما سـمع عبـارة «عاطـف» الأخيرة لسـبب غـير مفهـوم، ثـم قـال: أوشـك الوقـت عـلى النفـاذ. حواركـم لا بـأس بـه، لكنكـم مـا زلتـم تـدورون حـول الموضـوع و لم تصلـوا بعـد إلى صلبـه، مـا أريـده منكـم جميعـا - المتكلمـين و المسـتمعين- في المـرة القادمـة أن يحـدد كل واحـد منكـم موقفـه مـن «الحريـة» في جملـة واحـدة لنتمكـن مـن تحريـر المنـاط.

«حورية»: هلا بدأت حضرتك أولاً يا دكتور.

«لبيـب»: قـد فعلـت يـا «حوريـة» حينـما ذكـرت لكـم أن الحريـة أكـبر خدعـة في تاريـخ البشريـة.

*** ***

عـادت «حوريـة» إلى المنـزل مشـغولة الذهـن بمحاولـة صياغـة عبـارة جامعـة مانعـة تلخـص موقفهـا مـن عشـق قلبهـا و حلـم روحهـا و أمـل حياتهـا، تلـك المدعـوة بالحريـة، و عندمـا دخلـت لمحـت أباهـا في مكتبـه فذهبـت إليـه و ألقـت التحيـة عليـه، لكنـه كان مسـتغرقا في قـراءة أوراق اسـتخرجها مـن صنـدوق خشـبي قديـم لكنـه أنيـق بـدا مألوفـا لديهـا، فلـم ينتبـه لهـا و لم يـرد عليهـا، فصفقـت بيديهـا و رفعـت صوتهـا قائلـة بمـرح: اصـح يـا نائـم .. وحـد الدائـم.

التفت إليها الأب باسماً و قال: مرحبا بحبة القلب، و ثمرة الفؤاد.

«حورية»: ماذا تقرأ أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد؟

«الأب»: ألا تذكرين هذا الصندوق و تلك الأوراق؟

عقدت «حورية» حاجبيها و قالت: بلى. هذا صندوق جدي و أحسب أن تلك الأوراق مذكراته.

«الأب»: أجل.

«حورية»: و ما الذي ذكرك بها بعد تلك الأعوام؟

«الأب»: لم أنسها لأذكرها، و لكن حان موعد مراجعتها حسب وصية أبي، فقد كتب لي في نهايتها أن أعيد قراءتها بعد خمس سنوات، و اليوم هذه السنون قد مرت.

«حورية»: و هكذا الأكوان تدور و الأزمان تدور، أذكر مدى حفاوتك بها عندما وصلتك بعد خمسة أعوام من اختفاء جدي، و أنك حاولت أن تشرح لي محتواها لكني لم أتمكن من الاستيعاب في ذلك الوقت.

«الأب»: و ها أنت اليوم على أعتاب سن الرشد، و قد أوشكت على الانتهاء من دراستك الجامعية، و لعل هذا ما قصده جدك حينما أوصى بالرجوع إلى ما كتبه بعد خمس سنين، يبدو أنه أراد أن ينقل خبرته للجيل الثالث أيضا.

«حورية»: بالفعل أنا اليوم أكثر شوقاً من أي وقت مضى لمعرفة تجربة جدي في الفرار من الحياة.

«الأب»: ليس الفرار من الحياة، بل الفرار إلى الحرية.

«حورية» في حماسة من وجد كنزاً: حقاً.

«الأب»: هـذا مـا وقـع في قلبـي حـين قرأتهـا للمـرة الأولى، و ربـما بعـد القـراءة الثانيـة نصـل لنتيجـة ثانيـة.

«حورية»: إذن تفضل و ابدأ بالقراءة و كلي أذان مصغية.

«الأب» و هـو يمـد يـده بالمذكـرات إلى ابنتـه: بـل أحـب هـذه المـرة أن أسـمعها منـك.

شـعرت «حوريـة» بـشيء مـن الرهبـة و هـي تتنـاول المذكـرات، و تسـألت بينهـا و بـين نفسـها: هـل سـيدحض جدهـا نظريـة الخدعـة الكـبرى أم سـيؤكدها؟ ثـم فتحـت الصفحـة الأولى و أخـذت في القـراءة:

(..الملـل يفتـك بحيـاتي.. يحيطنـي مـن كل جانـب.. يشـل عقـلي و يمحـق وجـداني.. و كلـما أردت منـه فـكاكاً وجدتـه يكبلنـي بقيـود الواجـب.. الواجـب تجـاه بيتـي ..عمـلي .. أسرتي، ألا يمكـن للمـرء أن يـؤدي الفـروض و الواجبـات دون أن يقـع أسـيراً لهـا! ألا يمكـن للفـرد أن يحـب مـن يحـب مـن البـشر دون أن يفقـد قـدراً مـن حريتـه! يبـدو أن هنـاك تناسـباً عكسـيا بـين الحـب و الحريـة، و قديـماً قيـل مـن المسـتحيل الجمـع بـين النقيضـين، يحـب الرجـل امـرأة فتمتلـك قلبـه، و يحـب أصدقـاءه فيمتلكـون وقتـه، و يحـب عملـه فيمتلـك عقلـه، و يحـب أطفالـه فيمتلكـون حياتـه، و هكـذا يحيـا الواحـد منـا عبـداً مملـوكاً لمـن يحـب، و الحـر منـا مـن لا يحـب، يـا لهـا مـن مأسـاة.

فـما المخـرج؟ و أيـن المفـر؟ كيـف يمكـن كـسر هـذا الطـوق؟ لا بـد أن هنـاك لحظـة مـا يسـتطيع الإنسـان أن يفـوز فيهـا بالحريـة دون أن يخسر فيهـا الحـب، لا بـد أن هنـاك نقطـة مـا يمكـن للإنسـان عندهـا أن ينطلـق دون أن يخـل بالواجـب، وقـد انتظـرت هـذه اللحظة طويـلاً و بحثـت عـن تلـك النقطـة كثـيراً، و هـا أنـا قـد وصلـت أخـيراً، وصلـت إلى نقطـة الانطـلاق و أدركـت اللحظـة الفارقـة، فقـد فارقتنـي الحبيبـة إلى ربهـا ، و وصلـت إلى سـن التقاعـد، و أنهيـت مهمتـي تجـاه أسرتي فابنـي الوحيـد قـد شـق طريقـه في الحيـاة بنجـاح و ابنتـه الوحيـدة أتمـت العقـد الأول مـن عمرهـا المبـارك، و الأصدقـاء تفرقـوا في الدنيـا و الآخـرة، فاليـوم لا حبيبـة تؤنسـني، و لا عمـل يكبلنـي، و لا أسرة تشـغلني، و لا صديـق يجذبنـي، و هـذا في نظـر كثـير مـن النـاس علامـة عـلى اقـتراب النهايـة و لكنـي سـأعتبرها فرصـة للبدايـة، فصحتـي عـلى مـا يـرام و معـي مـا يكفينـي مـن المـال، فـالآن أحيـا مـا أريـد كـما أريـد لا كـما يريـد الآخـرون، و إن كان هـؤلاء الآخـرون هـم قـرة العيـون.

مـذ ولـدت و أنـا كغـيري مـن النـاس أعيـش أسـيراً مقيـداً، ففـي طفولتـي المبكرة عشـت أسـيراً لظـروف والـدي الاقتصاديـة و مكانتهما الاجتماعيـة و ثقافتهـما الشرقيـة، و في طفولتـي المتأخـرة عشـت أسـير توجيهـات المدرسـين و الواجبـات المدرسـية، و في الصبـا و المراهقـة كنت أسـير الرفـاق والأصحـاب و الهوايـات و الألعـاب، و في الشـباب كنـت أسـير النظـم و القوانـين التـي تحكـم البـلاد و العبـاد، و بعـد التخـرج كنت أسـير سـنن الحيـاة و ضروراتهـا و متطلبـات المعيشـة و ضغوطهـا، نعـم تصادمـت مـع كل مـا سـبق و ركبـت طبقـاً عـن طبـق و حاولـت أن أغـير لـون الشـفق، لكـن النتيجـة في النهاية كانـت مزيداً

مـن الرهـق، أمـا آن لهـذا الأسـير أن يتحـرر؟ أمـا آن لهـذا الفـارس أن يترجـل؟ أمـا آن لهـذا الطـير أن يطـير؟ بـلى.. قـد آن الأوان...)

توقفـت «حوريـة» عـن القـراءة و تطلعـت في حـيرة إلى أبيهـا، فقـال لهـا مداعبـاً: لمـاذا أطبقـتِ شـفتيكِ؟ و لمـا تطـل الحـيرة مـن عينيـكِ؟

«حورية»: هل كان جدي متشائماً؟

«الأب»: لا. لكنه كان يميل إلى التجريد في نظرته للأمور.

«حورية»: و هل من التجريد أن يحيل النعم إلى نقم؟

«الأب»: ماذا تقصدين؟

«حوريـة»: أقصـد أننـي أرى الأمـور عـلى العكـس ممـا يراهـا، و مـا يشـكو منـه أحمـد الله عليـه، ففـي طفولتـي المبكـرة عشـت أمـيرة عـلى والـدي، كل رغبـاتي مجابـة و كل مـا أرجـوه أنالـه، و في طفولتـي المتأخـرة كنـت محـل تقديـر و تشـجيع المدرسـات و المدرسـين، و رغـم مـا كنـت أجـده مـن التعـب في أداء الواجبـات المدرسـية كنـت أجـد فيهـا متعـة التحـدي و لـذة الإنجـاز، و في الصبـا و المراهقـة كان الرفـاق و الأصدقـاء و الهوايـات و الألعـاب مصـادر لتبـادل الخـبرات و نوافـذ للمـرح و الانطـلاق و فرصـاً لمعايشـة الاهتمامـات المشـتركة.

«الأب»: و عـلى هـذا النحـو أيضـاً تريـن النظـم و القوانـين التـي تحكـم البـلاد و العبـاد؟

«حوريـة»: نعـم طالمـا خلـت مـن الظلـم، فلـن يكـون الهـدف منهـا إلا حفـظ الحقـوق و ضـمان تكافـؤ الفـرص و تسـيير حيـاة النـاس في يـسر و انسـجام.

«الأب»: مهما يكن في السلطات الأسرية و المدرسية و المجتمعية و الحكومية من نفع و فائدة تظل للحرية مكبلة و مقيدة، و هذا هو التجريد الذي أجده في كلام جدك.

«حورية»: إذن لكي يكون الإنسان حراً لا بد أن يعيش وحيداً.

«الأب»: ربما.

«حورية»: فلما يقولون في الأمثال الشعبية:(الجنة من غير ناس ما تنداس)؟

«الأب»: تلك هي المشكلة، السعادة مع الوحدة معضلة، و الحرية مع الناس غير ممكنة.

«حورية»: يا لكم من عائلة! الجد يرى أن الحر فينا من لا يحب، و الأب يري أن شرط الحر أن يكون وحيداً.

«الأب»: اصبري حتى تنتهِي من قراءة ما كتبه جدك، ربما تتغير نظرتك.

«حورية»: نعم لا بد أن أكمل القراءة، لكن ليس الآن، أريد أن أكون أكثر تركيزاً، هل تأذن لي بالاحتفاظ بمذكرات جدي إلى حين الانتهاء من قراءتها؟

«الأب» و هو يناولها الصندوق: بكل تأكيد، و لكن ضعيها دوما في هذا الصندوق.

«حورية»: يبدو أن لهذا الصندوق عند جدي شأن.

«الأب»: أجل.

«حورية»: و ما شأنه؟

«الأب»: عندما تختمين القراءة تعرفين.

«حورية»: لا تزد شوقي فما عندي منه يكفيني.

«الأب»: نلتقي ثانية بعدما تنتهين.

«حورية»: حسناً. أراك على خيرٍ يا أبي.

«الأب»: في أمان الله يا ابنتي.

*** ***

وقف «هانئ السعيد» المدرس المساعد بالقسم أمام حجرة مكتب الدكتور «لبيب» و طرق الباب بلطف، و على الفور سمع صوت الدكتور قائلاُ: تفضل يا هانئ.

دخل «هانئ» إلى الغرفة و ألقى التحية على الدكتور ثم قال: طلبتني مبكراً هذا الصباح، يبدو أن الحوار الذي دار في المحاضرة الماضية يشغلك.

أومأ «لبيب» برأسه قائلاُ: استنتاجك في محله رغم أنك لم تكن حاضراُ معنا.

«هانئ»: نعم لكني حصلت على الأسطوانة المدمجة و شاهدتها.

«لبيب»: و ما رأيك؟

«هانئ»: حضرتك خرجت عن المألوف و حولتها من محاضرة إلقائية لمحاضرة نقاشية استجابة لرغبة الطلبة، و كان ذلك رائعاً، لكن ماذا بعد؟

«لبيب»: هذا ما طلبتك من أجله، الحوار داخل قاعات المحاضرات لا يكفي، لا بد من التجربة العملية.

«هانئ»: و لما في هذه المرة بالذات؟ هذا شيء لم تفعله من قبل؟

«لبيب»: هذه المرة مختلفة كما لاحظت، و استجابة الطلاب كانت متميزة، فهم يستحقون أكثر من الكلام النظري، و دوري كمعلم أن أرفع مستوى التعليم كلما كانت الفرصة سانحة، و حتى لو لم أفعل ذلك من قبل فلكل شيء بداية، و لكل حادث حديث.

«هانئ»: و كيف ستُدَّرس الحرية من خلال التجربة العملية؟

«لبيب»: الفكرة لم تتبلور لدي بعد، لكن على سبيل المثال القصائد الناتجة عن تجارب شعورية عميقة للشعراء تختلف عن القصائد النابعة عن الرغبة في استعراض القدرات البلاغية أو الصادرة عن رجاء منفعة عاجلة بمدح فلان أو رثاء أخر أو هجاء ثالث، لا شك أن النوع الأول أبقى أثراً و أعظم تأثيراً. هذا ما أبتغيه، دراسة المعاني الفلسفية و القيم الأخلاقية من خلال التجارب الفكرية و الوجدانية.

«هانئ»: لكن التجارب الشعورية هي تجارب طبيعية و ليست اصطناعية.

«لبيب»: بالنسبة لنا ستكون اصطناعية لكن بالنسبة للطلاب ستكون طبيعية.

«هانئ» معترضاً بحذر: و لكن في هذه الحالة قد نكون أخللنا بأخلاق المهنة.

«لبيب» في مزيج من الدهشة و الغضب: ماذا تقول! كل ما في الأمر أنني سأنقلهم من صفوف المتفرجين إلى أرض الملعب ليشاركوا في المباراة مشاركة حقيقية، أفبذلك أكون قد أخللت بالقيم الأخلاقية؟

«هانئ» بنبرة لا تخلو من التحذير: سيدي هؤلاء بشر و ليسوا حقول تجارب، و أنت أعلم مني بالضوابط العلمية و المهنية التي اعتمدتها الجامعة بهذا الشأن.

«لبيب» باستياء: طلبتك لتدعمني و تعاونني فإذا بك تحبطني و تعرقلني، ألم أشرف على رسالتك التي تقدمت بها لنيل درجة الماجستير؟ هل أضررت بك في شيء؟

«هانئ» بخجل: بل أفدتني و علمتني، و أحسب أنني أرد الجميل بموقفي هذا الذي يثير حنقك و استياءك، فغاية ما في الأمر أنني لا أريدك أن تتورط في أمر قد يؤثر على مكانتك العلمية، و مستقبلك الأكاديمي.

«لبيب» بعد برهة من الصمت و التردد: لا بأس. سأجعل التجربة اختيارية لمن يشاء من الطلاب، و ستجرى خلال إجازة نصف العام دون أن يكون لها شأن بالجدول الدراسي و الساعات المعتمدة و لن تدخل نتائجها ضمن معايير تقويم الطلاب، هل يريحك هذا؟

«هانئ»: أحسب أنا هذا أفضل بالفعل، لكني لن أرتاح تماماً حتى أعلم طبيعة هذه التجربة.

«لبيب» في نفسه: لقد خدمتني يا «هانئ» من حيث لا تشعر، هذا أفضل بالفعل من العمل تحت قيود اللوائح و القوانين الجامعية المكبلة للعلم و الحرية، أخبرتكم أنها خدعة كبرى فلم تصدقوني.

لاحظ «هانئ» شرود أستاذه و عدم انتباهه لجوابه، فأعاد السؤال قائلاً: كنت استفسر عن نوعية التجربة التي تنوي إجرائها و طبيعتها؟

«لبيب»: المعاني الفلسفية و القيم الأخلاقية تحتاج أن تلمس أطرافها القصوى لتتمكن من إدراكها و استيعابها و الإحاطة بها من جميع الجوانب، و لتتمكن أيضا من تحديد مساحة الاتزان بدقة بحيث يكون ما قبل هذه المساحة و ما بعدها خارجاً عن المعنى الذي تبحث عنه أو القيمة التي تدرسها.

«هانئ»: تقصد مثلاً أن إدراكنا للكرم يتطلب معرفة التقتير و التبذير، و تعاطينا مع الشجاعة يحتاج منا الإلمام بالجبن و التهور، و هكذا. أليس كذلك؟

«لبيب»: بلى.

«هانئ»: فما طرفا النقيض بالنسبة للحرية؟

«لبيب»: الفوضى و السجن.

*** ***

أخرجـت «حوريـة» مذكـرات جدهـا مـن الصنـدوق و وضعتهـا في حقيبتهـا ثـم خرجـت إلى «حديقـة الخالديـن» لتلتقـي بصديقتهـا، و أخـذت تسـير بـين التماثيـل الرخاميـة البيضـاء المنتـشرة في أنحـاء الحديقـة التـي أقيمـت لتخليـد ذكـرى الكثير مـن العلمـاء و الشـعراء و الأدبـاء و الحكـماء مـن أمثـال الفـارابي و البـيروني و المتنبـي و غيرهـم، و توجهـت إلى الأريكـة التـي اعتـادت أن تجلـس عليهـا، و عندمـا نظـرت إلى سـاعتها أدركـت أن لديهـا متسـعاً مـن الوقـت قبـل أن يحـين موعـد وصـول الصديقـة فأخرجـت الورقـات التـي أحضرتهـا و بـدأت تنصـت لصـوت جدهـا ينسـاب إلى عقلهـا مـن بـين أصـوات تغريـد الطيـور و خريـر المـاء، و هـو يقـول:

(..بـلى. قـد آن الأوان أن أحيـا حيـث أريـد لا حيـث ولـدت، و أن أقـول مـا أحـب لا مـا يجـب أن يقـال، و أن أعمـل مـن أجـل المتعـة لا مـن أجـل المـال، و أن أصحـو فـلا أنـام و أرقـد فـلا أقـوم، و أن أعيـش الحـاضر بـلا أسـفٍ عـلى مـاضٍ و لا خـوفٍ مـن آتٍ، و عنـد هـذه النقطـة مـن التفكـير قـررت أنـه قـد حـان وقـت الرحيـل، كل مـا أرجـوه هـو الرحيـل إلى مـكان تتوفـر فيـه ثـلاث خصـال، أن يكـون أهلـه عـلى الفطـرة، و ألا تكـون قـد دخلتـه التكنولوجيـا، و ألا يعرفنـي فيـه أحـد، فالمجاهيـل في نعيـم، محـررون منطلقـون، و المشـاهير في جحيـم، مكبلـون مقيـدون، هـذا مـا أحسـب أن أويـس القـرني قـد أدركـه، و لذلـك كان يعيـش في المـكان حتـى إذا مـا اشـتهر أمـره و ذاع صيتـه غـادره إلى غـيره، فصـار شـعاره في الحيـاة (عُرفـت فاهـرب)، الكتـب التـي تـروي سـيرته ترجـع هـذا التـصرف منـه إلى رغبتـه في الإخـلاص و البعـد عـن الريـاء، و هـذا مـا كنـت أعتقـده في صبـاي أمـا الآن و بعـد هـذا العمـر الطويـل فأعتقـد أنـه كان ينتهـج هـذا

النهـج رغبـة في الحريـة و اجتنابـاً للعبوديـة، و هـل الريـاء إلا أخـس أنـواع الـرق؟

و بعـد القـرار يبقـى التنفيـذ، و يطـرأ السـؤال: أيـن هـذا المـكان؟ و هـل لتلـك الخصـال الثـلاث وجـود في هـذا الزمـان؟ يغلـب عـلى حـدسي أني قـد أجـد المـكان المـرام في إحـدى قـرى جنـوب شرق أسـيا أو وسـط افريقيـا، سـأجتهد حتـى أجـده، فـإن لم أجـده سـأوجده، و هنـاك سـأكمل كتابـة هـذه الورقـات..).

- إلى أي البلاد رحلتِ؟ و بأي القرى حللتِ؟

خرجـت «حوريـة» مـن الأوراق و عـادت إلى الحديقـة و التفتـت باسـمة إلى الصديقـة و قالـت: مرحبـاً «سـارة». كأنـكِ كنـتِ معنـا.

«سارة»: معكم! من أنتم؟

«حوريـة»: أنـا و جـدي، كان في طريقـه إلى قريـة ينعـم فيهـا بالحريـة و كنـت برفقتـه حتـى قدمـتِ، فاعتـذرت لـه و رجعـت إليكِ.

جلسـت «سـارة» بجانـب صديقتهـا و قالـت : قريـة الحريـة! يـا لهـا مـن رومانسـية. الحريـة ليسـت قريـة أو مكانـاً ننتقـل إليـه، إنـما هـي كنـز مدفـون في صدورنـا، فـإن لم يجدهـا الإنسـان في باطـن النفـس فلـن يجدهـا عـلى ظهـر الأرض.

«حوريـة»: و هـذا الكنـز الدفـين كيـف يصـل إليـه الإنسـان يـا فيلسـوفة الزمـان و حكيمـة العـصر و الأوان؟

«سـارة»: لـن يصـل حتـى يتحـرر مـن جميـع القيـود، مـن كل المعتقـدات و الأفـكار و المشـاعر.

«حورية»: و ماذا سيبقى له من إنسانيته بعد ذلك؟ إذا تحرر البشر من عقولهم و عواطفهم فلن يبقى لهم سوى الغرائز الحيوانية و العناصر المكونة للمادة الطينية.

«سارة»: إنما عنيت بالتحرر من الأفكار و الأحاسيس أن نتحكم فيها لا أن تتحكم فينا.

«حورية»: التحكم في الأفكار و المشاعر يتطلب خضوعها للإرادة، و طبقاً لهذا التصور لا يكون الإنسان مطلق الحرية إلا إذا كان مطلق الإرادة، أليس كذلك؟

«سارة»: بلى. أعطني حريتي أطلق يدي، فلا حرية بدون طلاقة اليد.

«حورية»: لا. طلاقة اليد تعني طلاقة القدرة لا طلاقة الإرادة، و كلنا يعلم مدى العجز المركب فينا.

«سارة»: و ما فائدة طلاقة الإرادة مع العجز عن إنفاذها؟

«حورية»: أنا أريد و أنت تريد و يفعل الله ما يريد.

«سارة»: و تدَّعين أنكِ تؤمنين بالحرية المطلقة كما قلت في المحاضرة؟ العجز المركب فينا الذي ذكرتِه ما هو إلا أحد الأوهام التي يكبل بها الناس أيديهم بأيديهم، انظري إلى من سبقونا في سلم الحضارة، إرادتهم نافذة و أيديهم مطلقة، إذا أرادوا تحرير بلد حرروها، و إذا أرادوا احتلال أخرى احتلوها، و إذا شاءوا أن يعاقبوا ثالثة حاصروها و أجاعوها.

«حورية»: العجز ليس وهماً، بل هو صفة كمال في الإنسان، فنحن نتعلم و نترقى من عجزنا و ضعفنا و جهلنا و خطئنا، إنما الوهم هو حلم القوة المطلقة و أن يظن أهل الأرض أنهم قادرون عليها و على من عليها، و الحقيقة في الصورة التي رسمتِها للتقدم الحضاري المزعوم ليست إلا الظلم و العدوان.

«سارة»: الظلم سيختفي فقط حينما يختفي الضعفاء، و العدوان لن يتوقف طالما هناك مساكين، ألا ترين أن الحروب بين دول المتقدمة توقفت منذ الحرب العالمية الثانية و أصبحت فقط موجهة إلينا، بينما هم ينعمون بالسلام فيما بينهم.

«حورية»: العدل الذي سيتحقق بقتل الضعفاء ليس عدلاً، إنما هو قمة الظلم لأنه يعني أنه قد تم ظلم كل من يمكن ظلمه بالفعل، و السلام الذي سيحل بذبح المساكين ليس سلاماً بل قمة العدوان لأنه يعني أنه قد تم العدوان على كل من يمكن العدوان عليه، هذا ليس ترقيا في سلم الحضارة الإنسانية كما تصفينه بل تدنياً في سلم الغابة الحيوانية.

«سارة»: هل نقاشنا عن العدل و السلام أم عن الحرية؟

«حورية»: بل عن الحرية.

«سارة»: إذاً لنعد إلى قضيتنا و لا داعٍ للاستطراد.

«حورية»: لا بأس . كما تشائين.

«سارة»: هذه هي النقطة التي وصلنا إليها فعلاً، المشيئة أو الإرادة، معنى قولك: أنا أريد و أنت تريد و يفعل الله ما يريد أن الإرادة مقيدة، فأنى لصاحب الإرادة المقيدة أن ينال الحرية المطلقة؟

«حورية»: العبارة المذكورة تتناول الفعل لا الإرادة، يعني الفعل هو المقيد لا المشيئة، نحن أحرار في أن نشاء ما نشاء، فحرية الإرادة لدينا مطلقة، و حرية الفكر كذلك، و حرية المشاعر أيضا، لكن حرية الإرادة لها اليد العليا لأننا من خلالها يمكننا التحكم في أفكارنا و مشاعرنا.

«سارة»: اليد العليا دائماً للقوة، إذا توفرت القوة تحققت الإرادة و أثبتت حريتها، و لا وجود للحرية بدونها، و لذلك و على مر العصور كان العبيد من الضعفاء و الأسياد من الأقوياء.

«حورية»: غير صحيح، أقصى ما يمكن أن ينال السيد من العبد أن يتحكم في جسده، لكن مهما أوتي من القوة فلا سلطان له على قلبه و روحه، و العبد مهما كان ضعيفاً فيمكنه أن ينال وراثة الأرض و الإمامة فيها، و علاقة العبد بالسيد علاقة مرتبطة بثقافة المجتمع و قوانينه من جهة و مرتبطة بالتفاعل الإنساني بينهما من جهة أخرى و بالتالي قد تكون إيجابية و قد تكون سلبية، و قد يكون السيد أشد دناءة و ضعفاً من العبد، بالله عليكِ أخبريني من أكثر قوة و تحرراً و أرفع قدراً و شرفاً و أجدر بالكرامة الإنسانية: بلال بن رباح أم أمية بن خلف؟

«سارة» في ثورة: إيجابية! العبودية قد تكون إيجابية! يعني إنسان يستعبد إنسانا فإذا بهذا الإنسان المستعبد يتقبل هذه العلاقة و يراها إيجابية و سنية و مُرضية و بهية! ما أبدع أفكارك المريخية!

«حورية» ضاحكة: ماذا لو أثبت لكِ أن ما ترينه مستحيلاً قد وقع، و أن الأفكار المريخية قد تحققت على كرتنا الأرضية؟

«سارة»: المياه تكذب الغطاس و الغطاسة.

«حورية» وقد تقمصت دور «شهرزاد»: كان يا مكان في قديم الزمان و سالف العصر و الأوان، طفل بريء رقيق اختطفه تجار الرقيق، فحملوه مع متاعهم على النوق و عرضوه في أم القرى للبيع في السوق، فاشترته سيدة مشهورة بالبر و السماحة و وهبته لزوجها المعروف بالصدق و الأمانة، فرباه و أكرمه، و علمه و أدبه، فتعلق قلب الفتى به فأحبه، و دارت الأيام و أهل الفتى يبحثون عنه حتى علموا أمره و جاء أبوه و عمه، و طلبا من الرجل الذي ملك ابنهما أن يتركه لهما، فجاء الرجل بالفتى أمامهما و قال له: « اخترني أو اخترهما «. فقال الشاب: « ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم «. فقالا له: « ويحك! أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ « فقال لهما: « ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. وإني يا أبي رأيت من ذلك الرجل الشيء الحسن فما أنا بمفارقه «. فحينها فرح الرجل الكريم ووقف على صخرة أمام الكعبة وقال: « يا أهل قريش اشهدوا، هذا الفتى ابني يرثني وأرثه «. فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفسهما وانصرفا.

«سارة»: قد أدركت ما تقصدين، و هذه الحادثة ليس لها في التاريخ مثيل، و لذلك لا يمكنكِ التعميم.

«حورية»: لستُ في حاجة إلى التعميم، و هذه الحادثة العجيبة فيها إشارة فريدة هي جوهر القصيدة، مع الحب و الكرم و الإحسان و بعد اجتياز الفتى الامتحان ،تطورت العلاقة من العبودية إلى البنوة، فإذا كان هذا العطاء و تلك المكافأة قد وقعا

من إنسان يوصف بأنه الرحمة المهداة لشاب اختاره دون سواه و فضله على أبيه و عمه، فما بالك بمن أهدى هذه الرحمة للعالمين كيف يكون عطاؤه و مكافأته لمن اختاره وحده و لم يرض بغيره؟

«سارة»: المسلمات التي تنطلقين منها هي عندي ليست بمُسَلمة، و الأحلام الوردية لا تزيل التناقض بين الحرية و العبودية، و لا تحل المعضلات الفلسفية.

«حورية»: يبدو أن الإشكالية التي طرحتِها في المحاضرة الماضية مازالت في ذهنكِ قائمة.

«سارة»: أي إشكالية تعنين؟

«حورية»: إن أردتني عبداً فلا تخيرني، و إن أردتني حراً فلا تحاسبني.

«سارة»: أجل. بلا شك.

«حورية»: ربما أراد من الحر أن يكون عبدا باختياره، أو أراد من العبد أن يكون حراً في عبوديته، و عندها تصبح العبودية قمة الحرية لأنه اختار بإرادته أن يمحو إرادته و يتحرر من جميع صفاته البشرية، و تصبح الحرية هي محض العبودية لأنه لم يبق له شيء يملكه حتى قلبه و روحه و بات مملوكاً لمعبوده بالكلية.

«سارة»: و هذا هو موقفك من الحرية الذي ستعلنينه في محاضرة الدكتور «لبيب» القادمة؟

«حورية»: لا. فرغم عشقي للحرية لم أتمكن حتى الآن من صياغة موقفي منها في عبارة موجزة محكمة.

«سارة»: لا بأس. لا يزال في الوقت بقية قبل موعد المحاضرة.

«حورية»: و ماذا عنكِ؟

«سـارة»: أنـا أيضـاً لم أصـل إلى الصياغـة النهائيـة، ثـم أضافـت باسـمة: لكنـي مندهشـة مـن اعتبـارك لنفسـكِ عاشـقة للحريـة، فـما أراكِ إلا عـدوة لهـا.

«حوريـة» مازحـة: مـا محبـة إلا بعـد عـداوة، لكـن إن كنـتِ تُعدينني كارهـة للحريـة فـما تُعديـن دكتورنـا المبجـل الـذي يراهـا خدعـة كـبرى.

«سـارة»: كلام الدكتـور «لبيـب» ينفـي جوهـر القضيـة فـلا مجال فيـه للكـره و المحبـة، فـإذا كانـت الحريـة في جوهرهـا لا وجـود لهـا، فكيـف سـتحبينها أو تكرهينهـا؟

«حوريـة»: صدقـتِ. هـذه شـخصيته و تلـك عادتـه، أن يطـرح الموضوعـات و المسـائل مجـردة مـن الأحاسـيس و المشـاعر.

نهضـت «سـارة» مؤذنـة بالانـصراف، و قالـت: أتـركِكِ لتعـودي إلى جـدكِ، ثـم غمـزت بعينهـا و أضافـت: لعلـه لا يـزال ينتظـرك ليصحبـكِ إلى قريـة الحريـة.

«حوريـة»: نعـم، و عندمـا نصـل سأرسـل لـك بالعنـوان لتلحقـي بنـا.

«سارة»: أحسب أن انتظاري سيطول.

*** ***

بعـد انـصراف صديقتهـا عـادت «حوريـة» إلى خلوتهـا، و غاصـت في أعـماق الأوراق لتُجـلي منهـا حكمـة الـيُراق، و عندمـا وصلـت إلى جدهـا وجدتـه يقـول لهـا:

(..هـا أنـا أعـاود الكتابـة بعـد طـول انقطـاع، فلكـي تكتـب لا بـد أن تنقطـع و تتقطـع، نعـم - بعـد رحلـة بحـث طويلـة لكنهـا جميلـة و مرهقـة بيـد أنهـا مشـوقة - وصلـت إلى القريـة التـي أردتهـا و وجدتهـا بالخصـال التـي حددتهـا، قريـة الحريـة - هكـذا سـميتها - حيـث تتغلـب فيهـا الفطـرة الإنسـانية عـلى التقنيـة العصريـة، و تعلمـت مـن الحيـاة فيهـا أن الإنسـان الأول كان أكثـر تحـرراً لأنـه كان أشـد تبسـطاً، و عـلى مـر الأزمـان صـار الإنسـان بـل صـارت الحيـاة كلهـا أشـد تعقيـداً، و هكـذا أضحـى الإنسـان رقيقـاً، الأجيـال الأولى مـن البشريـة كانـت بـلا جنسـية، فجنسـيتها كانـت الإنسـانية، و لم يكـن لهـا وطـن، فوطنهـا كان الكـرة الأرضيـة، و بالتـالي لم يكـن هنـاك حـدود بـين البـلاد و لا جـوزات للسـفر و لا تأشـيرات، و لم يكـن هنـاك صاحـب عمـل و عـمال، بـل كان الجميـع مـن رجـال الأعـمال، مـن أراد أن يحتطـب احتطـب، و مـن ابتغـى الصيـد اصطـاد، فـلا تصريحـاً للصيـد مطلـوب و لا سـجلاً تجاريـاً للحطـب مـشروط، و كان الجميـع سواسـية، لا يوجـد أحـرار و مماليـك و لا أسـياد و عبيـد، و لكـن رغـم أرض الله الواسـعة و نعمـه السـابغة لم يعجـز بنـو آدم عـن إيجـاد الذرائـع للحـروب فيـما بينهـم، و أصبحـت الحـروب ذرائعـاً لسـفك الدمـاء ثـم ذرائعـاً للاسـترقاق، و ذلـك بعدمـا عـرف البـشر الزراعـة فبـدلاً مـن قتـل المنتصريـن لإخوانهـم المنهزمـين عمـدوا إلى اسـتعبادهم تحـت ضغـط الحاجـة لليـد العاملـة لزراعـة الأرض و بنـاء الحضـارة، و العجيـب أن العديـد مـن الباحثـين و المؤرخـين يعـدون

هـذا – التحـول مـن سـفك دم العـدو أو أكل لحمـه إلى اسـتعباده – ترقيـاً في السـلم الأخلاقـي عـلى اعتبـار أنـه أدى في النهايـة إلى حقـن الدمـاء نسـبياً، رغـم أن الدافـع إليـه لم يكـن الرحمـة بـل الطمـع، و هكـذا نجـح الإنسـان – هـذا الكائـن الفريـد الـذي اجمعـت الملائكـة و الشـياطين عـلى سـوء الظـن بـه – في بنـاء أقـدم الحضـارات المعروفـة في تاريخـه عـلى الاسـتعباد، فلـم تخـل واحـدة منهـا سـواءً كانـت الفرعونيـة أو الأشـورية أو الإغريقيـة أو الرومانيـة مـن نظـام الـرق، بـل كان المعلـم الأول الخواجـة أرسـطو يـرى في هـذا النظـام الحكمـة البالغـة.

المهـم أننـي وجـدت القريـة، أعنـي وصلـت إلى بغيتـي و حصلـت عـلى حريتـي، فـلا أحـد يقـول لي لـشيء فعلتُـه لمَ فعلتَـه و لا لـشيء لم أفعلـه هـلا فعلتـه، ثـم مـاذا بعـد؟ في البدايـة كنـت متحمسـاً لمعرفـة أنـماط الحيـاة فيهـا، مشـغولاً بمراقبـة عـادات و تقاليـد أهلهـا و تعلـم لغتهـم، و لكـن بعـد فـترة عـاد الملـل و آبـت الرتابـة، وجـدت الحريـة لكنـي لم أجـد السـعادة، و مـا فـررت منـه بالأمـس أكاد أفـر إليـه اليـوم، و مـن هجرتـه البارحـة افتقـده الليلـة، الحريـة لم تمنـع الوحشـة، و لم تسـكن العـبرة، و لم تُـزل الجفـوة، يحزننـي أننـي حـزت الحريـة لكننـي لا أدري كيـف أمارسـها؟ كيـف أسـامرها؟ كيـف أراقصهـا؟

يبـدو أن رحلـة البحـث عـن الحريـة أجمـل مـن الحريـة ذاتهـا، و أن السـير إليهـا أمتـع مـن الحصـول عليهـا، و الجهـاد مـن أجلهـا أبـدع مـن الوقـوف عندهـا، و الرجـاء فيهـا أنفـع مـن نيلهـا، و العشـق لهـا أحـلى مـن الـزواج بهـا.

لكن إن صح ما سبق فهذا يعني أن البحث عن الحقيقة أجمل من الحقيقة ذاتها، و أن السعي إلى النجاح ألذ من النجاح، و أن السباق إلى الجنة أكثر روعة منها، و يقيني أن ذلك ليس بصواب، و هكذا يتضح إما أنني لم أصل لها و إما أنها لا وجود لها. و هنا يولد السؤال في الوجدان و ينمو في الجنان عن ماهية سيدة الحسن و الجمال تلك المدعوة بالحرية؟ ما هي الحرية؟..)

توقفت «حورية» عن القراءة، فقد شغلها السؤال عن الاسترسال، فطوت الورقات و أخذت تفكر في الجواب، ثم بدأت تجول ببصرها في وجوه من حولها من العلماء و الحكماء و الشعراء و الأدباء الذين ينتشرون في أرجاء الحديقة، لكن لم يسعفها واحد منهم بالدواء، فنهضت من جلستها و عادت أدراجها في انتظار ما يتحفها به تعاقب الليل و النهار.

*** ***

كان «عاصم» يمارس رياضة الركض بينما صديقه «عاطف» جالسٌ بالجوار يحتسي كوباً من الكاكاو و يتصفح بعض المواقع الإخبارية على جهاز الحاسوب، و يتابعه بنظراته بين الحين و الحين، و عندما انتهى «عاصم» من التمرين توجه بقوامه الرياضي الممشوق إلى الطاولة التي يجلس إليها صاحبه و ألقى عليه التحية ثم جلس على المقعد المقابل لينال قسطاً من الراحة.

«عاطف»: ها أنا قد طلبت لك عصير البرتقال الطبيعي بدون سكر كما أردت.

تناول «عاصم» الكوب و شرب بعضه ثم قال مازحاً: بدون سكر لأنك حتماً قد أفرغته كله في كوبك أليس كذلك؟

أغلق «عاطف» جهاز الحاسوب و هو يقول: بلى. أليس ذلك بأفضل من الحرمان الذي تفرضه على نفسك؟

«عاصم»: ما تعتبره حرماناً هو ما يجعلني أسعد بصحة جيدة و جسم رشيق.

«عاطف»: معنى هذا يا صديقي أنك تتنازل عن قدر من الحرية لتحقق قدراً من السعادة، أما أنا فسعادتي في حريتي، أتناول ما لذ و طاب، و لا أحمل هم الغذاء الصحي و القوام الرياضي، ثم أضاف ضاحكاً: فالحياة بدون سكر لا طعم لها.

«عاصم»: ستصاب بالسمنة يوماً، و عندئذ ستغير رأيك حتماً. حتى لو أمكنك الجمع بين السعادة و الحرية فلن يمكنك أن تضيف إليهما الصحة أيضاً.

«عاطف»: أنا إلى الآن بصحة جيدة و وزن مناسب، فلما الدخول في معركة لست مضطراً لها؟ لا شك أن مشاهدة المعارك أكثر متعة من التردي فيها، أنا متأكد أنك أثناء التمرين كان همك ضبط عملية تنفسك و توفير الأكسجين اللازم لخلايا جسدك و ليس التمتع برشاقة الحركات و تناسق الخطوات، تماماً كما أشاهد فيلماً من أفلام الحركة، أجد أنا المتعة مع كل قفزة بينما يجد الممثل فيها المشقة، فكم مرة اضطر لإعادة المشهد و كم كانت نسبة التعرض للخطر فيه، كل هذا و القفزة على الشاشة فما بالك لو كانت على أرض الواقع، ابشر حينئذٍ بالتواء كاحله

أو بكسر رقبته، الخلاصة أن المشاهد ينال الجمال و الممارس ينال الألم.

«عاصم»: المشاهد ينال جمالاً موهوماً بينما الممارس ينال مجداً حقيقياً، و المشاهد للمعارك لا ينتصر أبداً بينما المحارب قد ينتصر و قد يهزم.

«عاطف»: و قد يُؤسر المحارب فيفقد حريته بالكلية.

«عاصم»: الخوف من الأسر لا يحقق الحرية، بل يكبلها بقيود مضاعفة، و إن أردت الحق فالواحد منا لا يتمتع بالحرية الكاملة أبداً إلا في بداية حياته حين يولد و يعيش الأيام الأولى من عمره و له حقوق عند كل أحد و ليس عليه واجبات تجاه أي أحد.

«عاطف»: و ما قيمة الحرية في هذه المرحلة العمرية إن كنا لا نشعر بها؟

«عاصم»: لست أدري لكني لم استطع أن أجد أفضل منها معبراً عن أقصى درجات الحرية، فبمجرد أن يبدأ الإنسان في الإدراك و التعاطي مع من حوله تظهر القيود من حيث يحتسب و من حيث لا يحتسب، أبسط مثال أنك إذا كنت في غرفة وحدك ثم لحق بك أخر، ففي هذه اللحظة ستفقد نصف حريتك في إشعال مصباح الإضاءة أو إطفائه، و في فتح الشباك أو إغلاقه، فما بالك و أنت تعيش على كوكب يشاركك فيه ما يقارب العشرة مليارات من البشر.

«عاطف»: إن كنت لا تدري فأنا أدري، أتفق معك إن لحظة المولد فريدة في بيان الحرية و التعبير عنها، و لذلك كانت هي

اللحظـة التــي اســتندت إليهــا المقولــة التراثيــة الشــهيرة: (متــى اســتعبدتم النــاس و قــد ولدتهــم أمهاتهــم أحــراراً) في إدانــة اســتعباد البـشر بعضهـم البعـض بـكل صـوره و أنواعـه، و هـذه اللحظـة و إن كنـا لا نعيهـا و لا نذكرهـا، فإنهـا قـد غرسـت فينـا شـيئاً لا نصـل إلى الكـمال بدونـه، و مـن ثـم يصبـح سـعينا في الحيـاة هدفـه هـو الرجـوع إلى تلـك اللحظـة، لحظـة الـبراءة التامـة و التحـرر الكامـل، تلـك اللحظـة التـي عشـناها سـابقاً بـلا وعـي و لا ذاكـرة و لا إرادة سـنعود إليهـا لاحقـاً - إذا نجحنـا في إتمـام دورة حياتنـا عـلى الوجـه الأكمـل و اسـتطعنا وصـل البدايـة بالنهايـة - لنعيشـها كـرة أخـرى لكـن مـع الوعـي و الذاكـرة و الإرادة، و يمكنـك اعتبـار هـذا الـكلام جوابـاً عـلى سـؤالي السـابق.

«عاصـم»: أراك لا تنفـك عـن الـدوران في فلـك الفـردوس المفقـود الـذي أشرتَ إليـه أيضـاً في مناقشـتنا أثنـاء محـاضرة الدكتـور «لبيـب» الأخـيرة، هـل لاحظـت كيـف لمعـت عينـاه وقتهـا؟

«عاطف»: نعم. و لا أدري أكان هذا استحساناً منه أم استنكاراً؟

«عاصـم»: تعلـم أنـه شـخص يصعـب أن تعلـم مـا يـدور بخلـده، عـلى كل حـال خلاصـة قولـك أن الإنسـان يولـد محـرراً ثـم تتـوالى عليـه القيـود فتتحـول حياتـه إلى سلسـلة مـن المقاومـة ليعـود محـرراً كـما كان، فـإذا تحـرر عـاد إلى الـبراءة الأصيلـة التـي هـي شرط للعـودة إلى الفـردوس المفقـود.

«عاطـف»: أجـل. الـبراءة مـن الرذائـل و المعايـب تُحررنـا فـإذا تَحررنـا انطلقنـا إلى الفـردوس فتفتـح لنـا الأبـواب، و بقـدر مـا يقـترب الإنسـان مـن الـبراءة بقـدر مـا يمكنـه النفـاذ مـن الحجـب و لذلـك

يتوارث أجدادنا مقولة: (خذوا فالكم من عيالكم) للإشارة إلى حداثة عهد الأطفال بالملأ الأعلى و قدرتهم على اختراق الحجب ببراءتهم التي يفتقدها الكبار و يسعون لاستعادتها قبل انتهاء الحياة و فوات الأوان، و السعيد من ينجح في ذلك، و بهذا النجاح ينتقل الإنسان من مصارعة الآفات و الأهوال و الظلام إلى معانقة الجمال و الجلال و الأنوار، و من مجادلة الملأ الأسفل إلى مناجاة الملأ الأعلى، و يستعيد دور أبيه آدم عندما كان للملائكة معلماً.

«عاصم»: حالم أنت كعادتك، عاطفي كاسمك.

«عاطف»: يبدو أنك أكثر ميلاً لرأي الدكتور «لبيب» و تظن أن الحرية لا وجود لها و ليست محجوبة و علينا إزالة الحجب عنها.

«عاصم»: لا. أنا ما زلت مقتنعاً بالحرية النسبية المتاحة للبشرية، و لا أميل إلى نظرية الخدعة الكبرى التي يدعيها الدكتور و لا إلى نظرية الرومانسية المثلى التي تنادي بها.

«عاطف»: ترى ماذا يعد لنا الدكتور في المرة القادمة؟

«عاصم»: لا تعجل. ما تنتظره اليوم سيأتي غداً.

*** ***

دخل الطلاب قاعة المحاضرات و لاحظوا أن المقاعد قد رتبت على شكل حرف «U» اللاتيني فعلموا أنهم بصدد حلقة نقاشية، فبدأوا في اختيار المقاعد للجلوس، و بعد لحظات وصل الدكتور «لبيب» يرافقه مساعده «هانئ» و اتخذ كل منهما مقعده

على المكتب البيضاوي الموجود في مقدمة القاعة، و بعد التحية دخل «د. لبيب» في الموضوع مباشرة و قال:

اليوم سنطبق ما اتفقنا عليه في المحاضرة السابقة، و المطلوب أن يسجل كل واحد منا- أنا و أنتم- موقفه من الحرية في عبارة محكمة على الشاشة المثبتة في مقعده، و ستظهر له أيضاً العبارات التي سيكتبها الأخرون، و سيكون عليه أن يقيم كل عبارة منها بدرجة واحدة إن كان لا يتفق معها تماماً تتصاعد حسب مدى اتفاقه معها إلى خمس درجات إن كان يتفق معها تماماً، و بعدها سيقوم «د. هانئ» الذي بدوره ستظهر على شاشته أيضا مواقفنا من الحرية و تقييماتها بإعلان المواقف التي نالت أعلى الدرجات، ثم نبدأ في تلقي الأسئلة و التعليقات و المناقشة، ثم ابتسم ابتسامته المستفزة المعتادة وقال: واضح أم مفهوم؟

الطلاب في صوت واحد: لا واضح و لا مفهوم.

كاد «هانئ» أن يقهقه لكنه تمالك نفسه، بينما لم يبد على «لبيب» أي انطباع، فقد كان يدرك أن الطلاب إنما يحاولون الرد على استفزازه لهم، فنظر إليهم من فوق النظارات الطبية التي يرتديها رافعاً حاجبيه و قال: إذن فلنبدأ.

انهمك الطلاب في الكتابة و في نفس الوقت التي كانت العبارات تظهر على شاشاتهم كانت تظهر أيضاً على الشاشة الرئيسة الموجودة فوق مكتب المحاضرين في مقدمة القاعة، و لوحظ أن العديد من العبارات كانت تظهر لبرهة ثم تختفي، و كذلك الدرجات المسجلة أمام كل عبارة كانت تزيد و تنقص باستمرار مما يدل على أن العديد من المشاركين كانوا مترددين في تحديد المواقف و التقييم.

و بعد فترة أخذت التغيرات على الشاشة تتناقص بالتدريج حتى استقرت على الوضع النهائي لها، و عندها طلب «د. لبيب» من الطلاب غلق الشاشات الخاصة بهم و التركيز فقط على الشاشة الرئيسة، ثم بدأ «د. هانئ» في إعلان النتائج و تسجيلها على تلك الشاشة و هو يقول:

المواقف التي حازت أعلى الدرجات خمسة، و الغريب أنها جميعها متساوية، و سأقوم الآن بتسجيلها على الشاشة مع ملاحظة أن الترتيب لن يكون له دلالة إحصائية بالطبع.

ثم بدأت تظهر على الشاشة الرئيسة العبارات الآتية على التوالي:

العبارة الأولى: الحرية أن نكون آلهة لأن العبيد لا يكونون أحراراً.

العبارة الثانية: الحرية حق يقابله واجب.

العبارة الثالثة: الحرية الحقيقية أسمى معاني الحياة الإنسانية.

العبارة الرابعة: الحرية أجمل حلم في مسيرة البشرية.

العبارة الخامسة: الحرية أكبر خدعة في تاريخ البشرية.

انتظر الدكتور «لبيب» لحظات حتى يتأكد أن الطلاب قد وعوا الخمس عبارات ثم قال: يمكننا الآن أن نبدأ النقاش، و كما تعودنا يمكن لمن يريد أن يكون أول المشاركين أن يضغط زر المشاركة على شاشته و يلقي بدلوه، ثم تتوالى المشاركات بترتيب طلبات المداخلة آلياً.

افتتحت «سارة» النقاش بقولها: الحلم و الخداع كلاهما بعيد عن الحقيقة، و لذلك لا أجد فارقا جوهريا بين العبارة الرابعة و الخامسة بل أحسب أنهما مترادفتان.

«عاطف»: لو كانت العبارتان مترادفتان لكان لكل من الحلم و الخداع نفس المعنى و هذا غير صحيح قطعاً، فالحلم قابل للتحقق و عندها يتحول إلى حقيقة أما الخداع فلا يخرج عن دائرة الكذب في جميع الأحوال. الفارق الثاني و الذي أعده جوهرياً، أن التاريخ معني بالماضي في المقام الأول، أما المسير فيصل الماضي بالحاضر بالمستقبل.

«عاصم»: هذا يعني أن العبارة الخامسة تعبر عن موقف يائس من الحرية بينما الرابعة تعبر عن موقف متشوق إليها، أو يمكننا القول أن هذه تتبنى موقفاً سلبياً من الحرية و تلك تتبنى موقفاً إيجابياً منها.

«د. لبيب»: لا يعنيني في مسألة الحرية اليأسٍ أو الأمل، إنما يعنيني مدى تحققها على أرض الواقع، و هنا تتفق العبارتان في نفيها عن الواقع، إلا أن إحداهما تضع احتمال التغيير مستقبلاً بينما الأخرى لم تتعرض لهذه النقطة لأنها لا تدخل في نطاق البحث العلمي.

«حورية»: لا أحسب أن موضوع الحرية يندرج تحت العلم التجريبي حتى يقال إن المستقبل أو الغيب لا يدخل في نطاقه، و إنما هي من وجهة نظري تنطوي تحت البحث الفلسفي، و الفلسفة أوسع من العلم.

«عاطـف»: أريـد الانتقـال إلى العبـارة الأولى لـو أذنتـم، مـا معنـى أن نكـون آلهـة؟

«عاصـم»: هـذا ديـدن الحداثـة، عـادة مـا تصبـو إلى تأليـه الإنسـان و أنسـنة الإلـه.

«سـارة»: لم ألحـظ هـذا المعنـى في العبـارة، وواضـح أمامـي أنهـا عبـارة رمزيـة، و المقصـد أن التحـرر الكامـل المطلـق غـير متصـور إلا لمـن لا يُسـأل عـما يفعـل، و هـذا لا يعنـي خـروج البـشر عـن مقتـضى بشريتهـم، و إنـما يسـتلزم امتلاكهـم لمقاليـد القـوة، مـن يسـتطيع مسـاءلة الـدول العظمـى عـما تفعلـه في عصرنـا؟

«عاطـف»: معنـى هـذا أن القـوة هـي السـبيل إلى الحريـة، و القـوة جوهرهـا الإكـراه، إذاً الحريـة تقتـضي الإكـراه! ألا يعـد ذلـك تناقضاً؟

«سـارة»: لا تناقـض. فحريـة «ألـف» تقتـضي الانتقـاص مـن حريـة «بـاء»، و لا يمكـن لدولـة مـا أن تحـرز القـوة إلا إذا أضعفـت غيرهـا مـن الـدول، ببسـاطة عندمـا تفـرغ مـن دلـوك في دلـو أخيـك، يزيـد دلـوه بقـدر مـا ينتقـص مـن دلـوك.

«عاطـف»: نعـم هـذا إذا نظـرتِ إلى الدلـو أمـا إذا أبـصرتِ قلـب مـن يُفـرغ لوجدتِـه يمتـلأ بقـدر مـا يعطـي.

«عاصـم»: حريتـك لا تقتـضي الانتقـاص مـن حريـة الآخريـن، حريتـك تنتهـي حـين تبـدأ حريـة الآخريـن.

«سـارة» بـشيء مـن التحـدي: إن كنـت تؤمـن بتلـك المقولـة فتيقـن أن حريتـك سـتنتهي قبـل أن تبـدأ.

«د. لبيب»: تجنبوا الانتقال من الموضوعية إلى الذاتية، وجهوا حديثكم إلى الأفكار لا إلى الأشخاص.

«حورية»: أجل هذا ما سأفعله الآن. و بالعودة إلى العبارة محل النقاش – الحرية أن نكون آلهة – أجد أن التصور الذي تطرحه للألوهية غير مكتمل، فتعالي الألوهية على المساءلة لا يعني الحرية المطلقة لها.

لاحظت «حورية» تسلل أكثر من سبابة في محاولة للوصول إلى زر طلب المداخلة على شاشات الزملاء، فسابقتهم فسبقتهم فتمكنت من منعهم من مقاطعتها قبل توضيح فكرتها كاملة، وأضافت:

صحيح أنه لا يوجد في الكون مَن أو ما يمكن أن يحد من حرية القوة و القدرة و المشيئة الإلهية، و لكن تبقى الألوهية ذاتها، تفرض على ذاتها ما تشاء، فتحرم الظلم على نفسها كمثال، و هذا يعني أن الضوابط لا تتنافى مع الحرية المطلقة، بل إن كانت تلك الضوابط نابعة من الذات فهي دلالة ترقي في طلاقة و كمال الحرية، و ينبغي على البشر احتذاء هذا النموذج إذا أرادوا أن يكونوا أحراراً، و بقدر اقترابهم من الألوهية بقدر ما يحققون الحرية.

«عاصم»: هذا يصل بنا إلى تمحيص العبارة الثالثة – الحرية الحقيقية أسمى معاني الحياة الإنسانية – لماذا تم وصف الحرية هنا بالحقيقية؟ و ليس بالكاملة أو المطلقة على سبيل المثال؟

«عاطف»: ربما لأن الحرية الحقيقية ليست بالكاملة و لا المطلقة.

«سارة»: بل إن لم تكن الحرية كاملة و مطلقة فهي ليست حقيقية.

«عاصم»: كيف تكون الحرية كاملة و مطلقة لكائن ليس بكامل و لا مطلق، يجب ألا ننسى أننا بشر.

«حورية»: صحيح أن الإنسان ليس بكامل و لكنه قابل للكمال، و ليس بمطلق و لكنه قادر على الاتصال بالمطلق.

«عاطف»: يعني يمكننا القول أن الإنسان بقدر ما يقترب من الكمال و بقدر ما يتصل بالمطلق يجعل لحياته معنى سامياً، و بدون هذا السمو لا ينال حريته حقاً.

«حورية»: المهم أن نصل للحقيقة في كل شيء، حقيقة الإنسان، حقيقة الحياة، حقيقة الحرية.

نظر «د. لبيب» إلى الساعة المعلقة في قاعة المحاضرات ثم قال: أوشك الوقت المخصص للمناقشة على الانتهاء. ثم ابتلع ريقه و أضاف: أرى أنكم قد تناولتم أربعة مواقف من خمسة، ألا يريد أحدكم التعليق على العبارة الثانية: (الحرية حق يقابله واجب)؟

«عاصم»: لا اعتقد أنها بحاجة لتعليق، واضح أنها تتبنى الموقف التقليدي من الحرية باعتبار أنها نسبية و أنها مسؤولية.

«د. لبيب»: هل توافقون على ما قاله «عاصم»؟

الطلاب: نعم.

«د. لبيب»: إذن دعونا ننتقل للخطوة التالية. أرجو من كل واحد منكم أن يسجل أمام كل عبارة من العبارات الخمس كلمة واحدة تلخص الموقف الذي تتبناه تلك العبارة من الحرية، ثم يقوم «د. هانئ» مشكوراً بعرض ما توصلتم إليه.

انهى الطلاب المهمة المطلوبة خلال دقائق، ثم أخذ «د. هانئ» في تسجيل الخلاصة على الشاشة الرئيسة و هو يقول: لدينا الآن خمسة مواقف محددة من الحرية و معبر عنها بكلمة واحدة ستظهر أمامكم حالاً:

الحرية: نسبية

الحرية: إلحاد

الحرية: وهم

الحرية: حلم

الحرية: حقيقة

طلبت «سارة» المداخلة على عجل و قالت: اعترض وصف الحرية بالإلحاد، هذا تلخيص مخل للموقف الذي تتبناه إحدى العبارات، و نوع من الإرهاب الفكري.

«د. لبيب»: لا يوجد مجال للإرهاب الفكري في قاعات العلم و الدراسة، نحن نناقش الأفكار و لا نحاكم من يطرحها.

«د. هانئ»: ليس هناك إرهاب في الموضوع، إنما هو توصيف مجرد لما تنطوي عليه تلك العبارات من دلالات من خلال استيعابكم لها، دعيني أشرح لك. ما حدث هو أنني قمت بتجميع الكلمات التي كتبتموها أمام كل عبارة ثم عينت الكلمة التي حازت النسبة الأكبر من أصواتكم، و في حالة العبارة محل النقاش الآن - الحرية أن نكون آلهة - وجدت أن الكلمة التي جاءت في المرتبة الأولى هي (الإلحاد) تليها مباشرة (الفوضى) بفارق صوت واحد.

«د. لبيب»: إن أردت أن تلقي مزيداً من الضوء على مفهوم العبارة من وجهة نظرك ثم نعيد التصويت فلا بأس.

«سارة»: أظن أن الموقف الذي تعبر عنه العبارة هو أن الحرية انطلاق بلا حدود.

«عاصم»: لا أظن أن هذا التعريف قد أضاف جديداً، فإن كان المقصود انطلاقاً بلا حدود من السماء فهو إلحاد، و إن كان انطلاق بلا حدود من الأرض فهي فوضى.

«عاطف»: ألا يسعنا أن نقول إن الحرية انطلاق و كفى؟

«عاصم»: بلى و لكن في هذه الحالة لن تكون العبارة محكمة و لا محددة.

«حورية»: أحسب أن الموقف من الحرية على أنها إلحاد موقف حقيقي وواقعي، موجود عند نسبة لا بأس بها من البشر من كلا الفريقين: المحذرين من الحرية بعضهم يخشى أن تؤدي إلى الإلحاد، و الداعين إليها بعضهم يظن أنها لن تتحقق إلا بالإلحاد، و هذا يستحق البحث و الدراسة.

«عاصم»: و بالتالي ليس هناك تلخيص مخل و لا إرهاب فكري، دعونا نمضي مع هذا الطرح و لننظر إلى أين سيمضي بنا.

«سارة»: حسناً. اقتنعت و لا داعٍ لإعادة التصويت.

«د. لبيب» بأسلوب مسرحي نوعاً ما: جميل. و الآن أوشكت شمس المحاضرة على المغيب، و لم يعد لدنيا سوى دقائق معدودات، هذه الدقائق سأطرح عليكم فيها فكرة تجربة عملية

اختيارية لن يترتب عليها تحصيل درجات إضافية في المادة الدراسية، لكن الهدف منها خلق مناخ يساعدكم على مناقشة قضية الحرية من منظور مختلف و من خلال موقف جديد.

بدأ التوتر يظهر على وجه «د. هانئ»، و بدأ أيضا حماس الطلاب يزداد و أخذت نسبة المشاركين منهم في الحوار تعلو، فبادر أحد الطلاب يدعى «ماجد» بالسؤال قائلاً: و ما طبيعة تلك التجربة؟

«د. لبيب»: هي عبارة عن رحلة عبر «غابة الجبل»، تعلمون أن كثافة الأشجار هناك و الطبيعة الجبلية للتضاريس و رغبة الجهات المعنية في الحفاظ على تلك البقعة الفريدة كمحمية طبيعية بعيدة عن التلوث، كل ذلك سيجعل من أقدامكم وسيلة مواصلاتكم داخلها.

«ماهر»: هذا جيد، و اضح أننا سنجمع بين الرياضة الذهنية و البدنية.

«د. هانئ»: لكن هذه المنطقة بعيدة عن تغطية شبكات الهواتف المحمولة و هذا قد يؤثر على نسبة الأمان في تلك الرحلة.

«حنان»: و لكنه أيضا سيزيد من نسبة الإثارة و التشويق فيها.

«د. لبيب» بشيء من الضجر المخفي و الحدة المستترة: ليس هناك خطر يا دكتور، فهذه ليست غابة للحيوانات المفترسة و إنما كما نعلم جميعاً أنها عبارة عن غابة من النباتات يتوسطها جبل و تسكنها بعض الحيوانات الأليفة، و كل من يصطحب معه وسائل الاتصال الحديثة في رحلاته فكأنه لم يرحل أصلاً.

«حورية» و قد تذكرت رحلة جدها: هذا صحيح.

«جميلة»: و كم من الوقت يستغرق عبور «غابة الجبل»؟

«د. لبيب»: إذا تمكنا من قطع عشرين كيلو متر يوميا يمكننا عبورها في ثلاثة أيام.

«عادل»: متى موعد الرحلة؟

«د. لبيب»: في الأسبوع الثاني من إجازة منتصف العام الدراسي.

«عاصم»: و ما العلاقة بين تلك الرحلة الخلوية و بين مسألة الحرية؟

«د. لبيب»: لو أخبرتك لفسدت التجربة، الفكرة أن تواجه في تلك الرحلة موقفاً يدفعك إلى التفكير و يضع أمامك عدة اختيارات.

«عاطف»: أجدها تجربة شائقة، سأشترك في تلك الرحلة.

«سارة»: و أنا كذلك.

«ليلى»: و أنا أيضا.

تتابع الطلاب و الطالبات على تسجيل رغبتهم في الاشتراك حتى وصل عددهم إلى عشرة من الطلبة، و مع زيادة عدد المشاركين يزداد القلق على وجه «د. هانئ» و الارتياح على وجه «د. لبيب» الذي قال في النهاية : نسبة المشاركة تقترب من الخمسين بالمائة و هي نسبة جيدة، يمكننا أن نبدأ في الخطوات التنفيذية، يمكنكم الشروع في تجهيز الخيام و الأدوات و كل ما يمكن أن تحتاجونه في الرحلة، و سأرسل لكم من النصائح و المقترحات ما يساعدكم في الإعداد.

«د. هانـئ» بـشيء مـن التحـدي: و هـل يمكننـي أيضـا المشـاركة في الرحلـة يـا دكتـور؟

نظر «د. لبيب» إليه نظرة فاحصة ثم قال في اقتضاب: بالطبع.

*** ***

استلقت «حوريـة» عـلى فراشـها و أخرجـت مذكـرات جدهـا، و قالـت تخاطبـه: يبـدو أننـي سـأرحل إلى «غابـة الجبـل» كـما رحلـت أنـت إلى «قريـة الحريـة»، لكـن دعنـا أولاً نـرى إلى أيـن وصلـت؟ و هـل عرفـت جـواب سـؤالك عـن ماهيـة الحريـة؟ ثـم شرعـت في إكـمال القـراءة مـن حيـث انتهـت المـرة السـابقة، و أصغـت إلى صـوت جدهـا و هـو يقـول:

(.. و هنـا يولـد السـؤال في الوجـدان و ينمـو في الجنـان عـن ماهيـة سـيدة الحسـن و الجـمال تلـك المدعـوة بالحريـة؟ مـا هـي الحريـة؟

بعـد قـدر مـن التفكـير ليـس بالقليـل، و بعـد هـذا السـير الطويل، اعـترف أننـي لم أجـد جوابـاً يشـفي العليـل، و لكنـي و إن لم اسـتطع معرفـة ماهيـة الحريـة، أزعـم معرفـة مـا ليـس بالحريـة، فالحرية ليسـت في التخلـص مـن الواجبـات، و ليسـت في البعـد عـن المسـئوليات، و ليسـت في تـرك الوطـن و الفـرار في البـلاد، ببسـاطة لأننـي فعلـت كل ذلـك و مـا زلـت أشـعر بالقيـود داخـلي، يعنـي و إن كنـت قـد حققـت مـا تمنيـت ووطـأت قدمـاي قريـة الحريـة، فقـد وجدتهـا ظاهـراً و لم أجدهـا باطنـاً، وجدتهـا حـولي و لم أجدهـا في قلبـي.

عنـد هـذه النقطـة مـن التفكـير رأيتهـا، كنـت جالسـاً عـلى صخـرة عـلى شـاطئ البحـيرة التـي تطـل عليهـا القريـة، و كانـت هـي تمـشي

الهوينى، مرت أمامي و لم تلتفت إلي، امرأة ربما في العقد الخامس من عمرها لكن نضرة الشباب لم تغب عن وجهها، لست أدري ما الذي جذبني إليها، ربما الملامح الصارمة على وجهها، ربما طريقة مشيها، ربما شيء ما في روحها، تابعتها ببصري حتى انتهت إلى قارب خشبي صغير قديم مربوط بحبل إلى سارية على المرسى، فقفزت داخله و فكت الحبل و بدأت في التجديف حتى وصلت إلى عمق مناسب في البحيرة ثم التقطت الشبكة من قاع القارب و ألقتها في البحيرة و ظلت تراقب المشهد في صبر و سكون، و بعد فترة أخذت في جمع الشبكة بمهارة و التقاط ما علق بها من الأسماك، و قفلت عائدة إلى الشاطئ.

رغم أنني أمضيت قرابة العام في تلك القرية إلا أنني لم أر هذه المرأة إلا اليوم، و أغلب الظن لأنني لم أكن أجلس على الشاطئ في هذا الوقت من قبل، نظرت إلى ساعتي و عزمت على المجيء في اليوم التالي في نفس الموعد، و فعلت و لكنها لم تفعل، و تكرر الأمر في اليوم الذي بعده، و في اليوم الثالث جاءت و كررت ما فعلته في المرة الأولى، و ظلت على هذا النحو تغرب يومين و تشرق في الثالث، تبدو كأنها لا تراني و أبدو كأني لا أرى سواها، حتى جاء اليوم الموعود، و جاءت هي فيه و بدأت في تنفيذ برنامجها الذي صرت أحفظه عن ظهر قلب، لكن هذه المرة ما أن استقرت في القارب و حلت الحبل الذي يربطه و بدأت في الابتعاد أمتار قليلة حتى وجدتها تستخدم الدلو في إفراغ الماء الذي تسرب إلى القارب و في نفس الوقت تحاول التجديف للعودة إلى المرسى الخشبي على الشاطئ، أدركت أنها في أزمة و انطلقت على الفور التقطت الحبل و ألقيت به إليها بأقصى ما استطعت

من قوة، نجحت المحاولة و تمكنتْ من ربط الحبل في المكان المخصص له بالقارب، و أخذ كل منا يجذب طرف الحبل، و كلما جذبنا اقتربنا حتى وصل القارب إلى الشاطئ و لم يعد يفصل بيننا سوى خطوة واحدة خطتها المرأة و صعدت من القارب و وجدتني و إياها وجهاً لوجه، فنظرت إلي دون أن تتخلى عن صرامتها و قالت بلغة أهل القرية التي بدأت اتقنها: شكراً لك.

قلت و أنا أنزل إلى القارب الذي صعدتْ هي منه: لا شكر على واجب.

فحصتُ القارب و أدركت سبب تسرب المياه إليه، ثم قلت لها: يمكنني إصلاحه إن شئت.

قالت في توجس: هذا كرم منك أيها الشيخ الغريب.

يبدو أنها أرادت أن تذكرني بكبر سني حتى لا يلعب الشيطان برأسي، و الحقيقة أنها لم تكن بحاجة لذلك فأنا من ناحية لم أنس سني و من ناحية أخرى لم يخطر في ذهني و أنا أساعدها أنني أساعد امرأة في ورطة و إنما مجرد إنسان يحتاج من يمد له يد العون، صحيح أنني انجذبت إليها منذ أسابيع و كنت انتظرها و أراقبها لكن ليس لأنوثتها و إنما لغرابتها و غرابة شأنها، و أحببت أن أزيل توجسها فقلت: اسمي «نادر» تركت وطني بعد وفاة زوجتي منذ عامين و استوطنت قريتكم منذ عام.

قالت: كم من الوقت يستغرق إصلاح القارب؟

قلت: سأبدأ فيه اليوم و يمكنك استخدامه غدا.

قالت: لا بأس هذا جيد.

قلت: هل لديكم ما يكفيكم من السمك حتى الغد.

قالت: لديكم؟ أنا أعيش وحدي، ليس معي أحد.

قلت: أليس لديكِ عائلة؟

قالـت: زوجـي تـوفي منـذ عقديـن، و ابنـي الوحيـد غـادر القريـة منـذ عامـين.

قلت باستنكار: غادر! إلى أين؟

قالت: المأفون ذهب يبحث عن الحرية.

شـعرت أن دلـواً مـن المـاء البـارد يصـب فـوق رأسي السـاخن، و قلـت: لا ينبغـي لـه أن يبحـث عـن الحريـة و يـترك والدتـه و هـي في حاجـة إليـه.

قالـت: أنـا لسـت في حاجـة إليـه، أنـا اصطـاد و مـا أصطـاده أطعـم منـه و أبيـع لأشـتري مـا يكفينـي لمـدة يومـين ثـم أعـود إلى الصيـد في اليـوم الثالـث و هكـذا.

قلـت: ربـما لـو قمـتِ بالصيـد كل يـوم أو يومـين لـزاد دخلـكِ و ادخـرتِ.

قالــت: و لمــا الادخــار و الــرب موجــود و البحــيرة و مــا فيهــا ملكــه.

قلت: ليوم كهذا.

قالت: يوم بلا طعام لا يتعب بدناً و لا يقرب أجلاً.

أدركـت أنهـا تتحـدث بمنطـق مختلـف عـن منطقـي و أن لهـا رؤيـة مغايـرة للحيـاة و بالتـالي للحريـة، فسـألتها: طالمـا أن أمـورك عـلى مـا يـرام و لا تحتاجـين لابنـك فلـما تعتبـين عليـه بحثـه عـن الحريـة؟

قالت: لأنه الأحرى به أن يفر من الحرية لا أن يبحث عنها.

صحت: و لما؟

قالـت: الحريـة تعنـي الشـقاء، تعنـي الذبـول، تعنـي الحرمـان، تعنـي البعـد.

و قلت و أنا اشعر بمطارقها تحطم أحلامي: كيف؟

قالت: انظر إلى الجنين، انظر إلى الزهرة، انظر إلى الناي.

قلت: ما لها؟

قالـت: الجنـين كان يعيـش في جنـة الرحـم، لا يحمـل هـم الجـوع و العـري، و لا الظمـأ و الحـر، ينصـت إلى أعـذب الألحـان، لحـن قلـب الأم، ثـم تحـرر فانتقـل مـن النعيـم إلى الشـقاء، و بـدأت المعانـاة فأخـذ في الـصراخ. و الزهـرة كانـت تحيـا في جنـة الأرض، بديعـة الألـوان تفـوح بالعطـر، فجـاء مـن يحررهـا فقطفهـا فقتلهـا، ففقـدت نضارتهـا، و بهتـت ألوانهـا، و ذبلـت أوراقهـا، و ذهـب عبيرهـا، و في النهايـة داسـتها الأقـدام. و النـاي كان في جنتـه كذلـك حتـى نـزع منهـا منـذ زمـان سـحيق فـلا يـزال إلى الحـين، يعـاني مـن الحرمـان و يئـن مـن الحنـين. ألا يعنـي كل ذلـك البعـد عـن النعيـم؟ و عـن الحيـاة؟ و عـن السـعادة؟

قلت: بل لولا تحرر الأجنة ما عرفنا الحياة، و لولا تحرر الزهور ما تهادى المحبون، و لولا تحرر الناي ما تذوقنا الألحان.

قالت و هي تهم بالانصراف: إذن أنت ترى أن الشقاء و الذبول و الحرمان ثمن مناسب للحرية، فاشبع بها.

غاظني أن تتركني في حيرتي و تنصرف فهممت أن أمسك بها لأمنعها، ثم انتبهت أن هذا لا يليق، فقلت مستعطفاً: أرجوكِ لا تذهبي. ما زال لدي سؤال. إذا كان هذا ما أراه أنا، فماذا ترين أنتِ؟ ألا تريدين للأجنة أن تولد؟

قالت: بلى أريدها أن تولد و لكن لكي تعود.

قلت: إلى أين؟

نظرت إلى نظرة من يتعجب من غبائي ثم قالت: إلى الجنة.

استدارت المرأة و أخذت في الابتعاد، و لم استطع أن أمنعها هذه المرة، لم يسعفني ذهني بحيلة، أقصى ما استطعته أن أصيح قائلاً بعدما ابتعدت بضعة أمتار: سيدتي. هل يمكنني أن أعرف اسمك؟

التفتت بوجهها الذي يجمع بين الصرامة و الطيبة و قالت: رحيمة.

صحت مرة أخرى و هي تبتعد: ستجدين القارب جاهزاً غداً في نفس الموعد يا سيدة رحيمة.

بمجرد أن غابت عن نظري انطلقت إلى مسكني لأحضر أدواتي ثم شرعت في إصلاح القارب، كنت أشعر بنوعٍ من

الهمـة و الحـماس فارقنـي منـذ عقـود، و كنـت سـعيداً لا أعـرف لمـاذا تحديـداً، و لكـن عـلى الأقـل لم أعـد أشـعر بالملـل و الرتابـة، و وجدتنـي اسـتخدم المطرقـة في تثبيـت الألـواح كمـن يعـزف مقطوعـة موسـيقية، و وجـدت أننـي كلـما تناثـرت حبـات العـرق عـلى جبينـي و جذعـي تناثـرت معهـا العديـد مـن الأفـكار و المشـاعر السـلبية التـي كانـت تعشـعش في رأسي أو تسـكن في صـدري، فأخـذت تغـادر كيـاني و تسـبح مبتعـدة عنـي في الأثـير مـن حـولي..)

طـوت «حوريـة» الورقـات و أعادتهـا إلى الصنـدوق و هـي تخاطـب جدهـا بصـوت مسـموع قائلـة: حـيرت قلبـي معـك يـا جـدي! هـل تبحـث عـن الحريـة أم عـن السـعادة أم عـن المغامـرة؟ ثـم وضعـت رأسـها عـلى الوسـادة و استسـلمت للنـوم، ذلـك الـبرزخ بـين المـاضي و المسـتقبل، حيـث يمكنهـا أن تـرى مـن ذا و ذاك، فهـي قبـل النـوم كانـت بالأمـس و بعـده سـتصبح في الغـد، فرأت أنهـا حبيسـة في مكان مظلـم إلا مـن ضـوء خافـت لا تـدري مـا مصـدره، صاحـت تنـادي مـن يسـاعدها فلـم تجـد مـن يسـمعها، تحسسـت طريقهـا نحـو البـاب و أخـذت تطرقـه بيديهـا فلـم تجـد مـن يجيبهـا، و عندمـا يئسـت أن يأتيهـا العـون مـن الخـارج نظـرت إلى الداخـل فوجـدت حجـراً يزيـد عـن حجـم قبضـة اليـد ملقـى عـلى بعـد خطـوات منهـا، تحركـت نحـوه و التقطتـه ثـم عـادت إلى البـاب عـلى أمـل أن تتمكـن مـن ثقبـه أو كـسره، و بـدأت ضرباتهـا تتـوالى حتـى أصابهـا الإجهـاد و انحـدر عـلى جبينهـا العـرق، ثـم سـمعت صوتـاً يوحـي بقـرب انهيـار البـاب فـازداد حماسـها، و لكـن فجـأة أضـاءت الغرفـة بضـوء النهـار فالتفتت تتفقـد المـكان فوجـدت أن الغرفـة محاطـة بالجـدر مـن ثـلاث جهـات فقـط أمـا الجهـة المقابلـة للبـاب فمفتوحـة و تطـل عـلى غابـة مـن

النباتـات يتوسـطها جبـل في منظـر بديـع، فانطلقـت تركـض بسرعتهـا القصـوى تجـاه الغابـة، حتـى لم يبـق بينها و بـين النجـاة إلا بضعـة أمتار سـمعت صوتـا مألوفـا لديهـا يحذرهـا، كان صـوت جدها و هـو يقول: احـذري يـا «حوريـة»، احـذري و تذكـري مـا حـل بطـيرك، ربـما قادتـك الحريـة الزائفـة إلى حتفـك. في التـو مـر بخيالهـا مشـهد الطائـر و هـو يصطـدم بالنافـذة فيلقـى مصرعـه، لم تتوقـف عـن الركـض لكنهـا ألقـت بالحجر الـذي كان لا يـزال بقبضتهـا نحـو الغابـة بأقصى قوتهـا، فـإذا بـه يصطـدم بالجـدار الزجاجـي المضـاد للكسر و يرتـد بعنـف تجـاه وجههـا، فرفعـت يدهـا تحتمـي بهـا، ثـم اسـتيقظت لاهثة.

*** ***

التقـى الطـلاب في إحـدى سـاحات الجامعـة و جلسـوا يرتبـون أمورهـم قبـل الرحلـة ببضعـة أيـام و هـم يحتسـون بعـض المشروبـات السـاخنة، قـال «ماجـد»: لمـاذا وقـع اختيـار الدكتـور عـلى هـذا المـكان في ظنكـم؟

«عـادل»: غابـة الجبـل تبعـد عـن العاصمـة مسـيرة يـوم بالسـيارة، و هـي منطقـة نائيـة كانـت فيـما مـضى مصـدر جـذب سـياحي لجـمال الطبيعـة فيهـا، أمـا الآن فقليـل مـن يذهبـون إليهـا خاصـة في هـذا الوقـت مـن العـام، أي في الشـتاء.

«ماجـد»: يقـال أن سـبب انـصراف النـاس عنهـا، وقـوع عـدة حـوادث اختفـاء بسـبب المتاهـات، فجبـل الغابـة يمتـاز بالعديـد مـن الممـرات داخلـه التـي تغـري المغامريـن بمحاولـة الوصـول إلى الجانـب الآخـر مـن الغابـة عـبر الجبـل، فـلا يصلـون و لا يعـودون و لكـن يتيهـون.

«ماهـر»: كل هـذه مجـرد إشـاعات و حكايـات كنـا نسـمعها مـن أمهاتنـا و جداتنـا، ربـما حدثـت واقعـة مـا منـذ بضعـة عقـود، و أحسـب أنـه لا يمكـن تكرارهـا الأن مـع تقـدم وسـائل البحـث و الاتصـال.

«عاصـم»: ألم تسـمع تحذيـر الدكتـور «هانـئ» بـأن المنطقـة خـارج نطـاق التغطيـة و أن الهواتـف الحديثـة لا جـدوى منهـا هنـاك؟

«ماهـر»: إذا كانـت الخطـورة تكمـن في المسـالك داخـل الجبـل فنحـن قطعـاً لـن نسـلكها، فهـي ليسـت رحلـة مغامـرة و استكشـاف و إنـما المفـترض أنهـا رحلـة تسـاعد عـلى دراسـة علـم الاجتـماع.

«عاطـف»: أجـل و معنـا خرائـط واضحـة للطـرق المؤديـة للجانب الأخـر مـن خـلال الممـرات الممهـدة بـين ثنايـا الجبـل لا داخله.

«عاصم»: لكن لا يزال السؤال قائما، لماذا هذا المكان بعينه؟

«ماهـر»: هـذا السـؤال لا طائـل مـن ورائـه، لأنـه سـيظل مطروحـاً مـع كل مـكان آخـر.

«عـادل»: صحيـح و لكـن في كل الحـالات مـن الأهميـة بمـكان أن نكـون عـلى بصـيرة مـن أمرنـا.

«ماهر»: لماذا لا تسألون الدكتور و تريحون أدمغتكم؟

«ماجد»: قد فعلت.

نظروا إليه نظرات تجمع بين الغيظ و الاستنكار ثم قالوا:

- يا لك من مستفز!

- يعني حصلت على الإجابة ثم جئت تمتحننا!

- و لماذا جعلتنا نضرب الأخماس في الأسداس؟

- ثم تركتنا نقع في حيص بيص؟

«ماجد»: رويدكم. نعم سألته و لكن لم تقنعني إجابته و لذلك أحلت السؤال إليكم في أول الجلسة.

«عاصم»: و ماذا كانت إجابته؟

«ماجد»: قال إن المكان مألوف بالنسبة له لأنه تردد عليه عدة مرات منذ الصغر، و أنه مناسب للمواقف التي يعدها لنا كحافز للتفكير و دافع للدراسة، كما أن عدم وجود رواد في هذا الوقت من العام سيمنع عنا التشويش و يعطينا المزيد من الحرية.

«ماهر»: أجدها إجابة مقنعة.

«عاطف»: و أنا كذلك.

«عاصم»: حتى لو لم تكن مقنعة، فكما يقولون الماء سيكذب الغطاس، دعونا نخوض التجربة ثم نعيد التقويم لمدى مناسبة المكان للرحلة و الهدف منها.

«عادل»: لا بأس و للننتقل الآن للتجهيزات، أنا لدي خيمة تكفي لخمسة أشخاص.

«ماجد»: حسناً ما دمتم كلكم مقدمون فلن أحجم، يمكننا أن نستقل سيارتي الجيب فهي مناسبة تماما لتلك الرحلة، و نتناوب القيادة خلال الطريق.

«ماهـر»: و أنـا سـأوفر لكـم مـا طلبـه الدكتـور في الرسـائل التـي أرسـلها إلينـا مـن المصابيـح الكهربائيـة المخزنـة للطاقـة و الحبـال و غيرهـا.

«عاطـف» و هـو يشـير إلى بطنـه مبتهجـاً: و أنـا عـلي التمويـن مـن المـاء و العصائـر و الغـذاء.

«عاصـم»: أظـن أنـه لم يعـد ينقصنـا شيء سـوى أن يعـد كل واحـد منـا حقيبتـه الشـخصية و حـذاءه الريـاضي، لكـن إذا تذكرتـم أي شيء قـد تحتاجونـه فأنـا عـلى اسـتعداد أن أوفـره لكـم.

*** ***

قال والد حورية بحزم: لا أوافق.

«حورية» باستعطاف: و لمَ؟

«الأب»: المـكان بعيـد و لا توجـد جهـة إشراف رسـمية عـلى الرحلـة، إنـما هـي اجتهـاد أحـد الأسـاتذة عندكـم.

«حوريـة»: يـا أبتـي نحـن جميعـاً في سـنة التخـرج و قـد قاربنـا سـن الرشـد أو جاوزناه.

«الأب»: المسـألة ليسـت بالسـن، فالمسـافرون بحـراً و جـواً مهمهـا كانـت أعمارهـم، الجهـة أو الشركـة التـي تنقلهـم مسـئولة عـن أمنهـم و سـلامتهم و تخضـع لمعايـير دوليـة و إذا قـصرت تتـم محاسـبتها، أيـن تجديـن هـذا في رحلتكـم المزعومـة.

«حوريـة»: نحـن لـن نركـب البحـر و لـن نطـير في الجـو، هـي مجرد رحلـة بريـة مثلهـا مثـل أي رحلـة تقـوم بهـا عائلـة أو مجموعـة مـن

الأصدقـاء للاصطيـاف أو السـياحة، هـل هـذه أيضـا تحتـاج جهـة إشراف رسـمية؟

«الأب»: لا تجادلي.

لم تستسـلم «حوريـة» و قـررت أن تلقـي بورقتهـا الرابحـة، فقالت: و إذا كان سـيصحبنا في هـذه الرحلـة شـخص أنـت تعرفـه و تثـق فيـه؟

«الأب»: من هذا الشخص؟

«حورية»: الدكتور هانئ سعيد.

«الأب» و قـد أخـذت ثلـوج حزمـه في الذوبـان: هانـئ شـخصية محترمـة، أعرفـه منـذ صغـره فوالـده مـن أعـز أصدقائـي، ثـم أضـاف بنظـرة ذات مغزى: و أعلـم أنـه لـن يدخـر وسـعاً في حمايتـك حتـى لـو ضحـى بنفسـه مـن أجلـك.

«حوريـة» و هـي تقـاوم وصـول حمـرة الحيـاء مـن قلبهـا إلى وجنتيهـا: أفهـم مـن ذلـك أنـك توافـق؟

«الأب» و هـو يبطـئ في الإجابـة متعمـداً ليطيـل انتظارهـا: قـد.. قـد أوافـق.

قبلـت «حوريـة» رأس أبيهـا و انصرفـت مسرعـة قبـل أن يعيـد التفكـير و هـي تقـول: شـكراً يـا أبي. شـكراً جزيـلاً.

«الأب» مداعبـاً: انتظـري أنـا قلـت قـد. قـد فقـط. و لكنهـا كانـت قـد اختفـت.

*** ***

لحقت «حورية» بصديقاتها المجتمعات في بيت «سارة»، و دخلت عليهن و هي تشير بعلامة النصر و تقول: لقد نجحت في الحصول على الموافقة، فهل حصلتن عليها أيضاً؟

«حنان»: بشق الأنفس.

«جميلة»: نعم بشيء من الجهد.

«سارة»: أما أنا فلم أجد مشقة في ذلك.

«ليلى»: و أنا استخدمت طريقة الإلحاح على الأذان أمر من السحر.

«حورية»: يعني كل شيء على ما يرام.

«جميلة»: كيف سنسافر؟

«حنان»: يبدو أنكِ لم تقرئي رسالة الدكتور حازم الأخيرة.

«جميلة»: بالفعل فقد نسيت هاتفي بالمنزل، ماذا كتب فيها؟

«سارة»: ذكر أن لديه سيارة ملحق بها مقطورة مجهزة بكل ما قد نحتاجه في الرحلة ما عدا الطعام و الشراب يمكننا استخدامها، و سيتناوب القيادة مع الدكتور «هانئ»، أما الطلاب فسيستقلون سيارة «ماجد» الجيب.

«ليلى»: هذا رائع. ستكون رحلة مريحة، كأننا سنسافر في غرفة من غرف المنزل.

«حنان»: صحيح. الطريق طويل و من الأفضل أن نكون في مكان مغلق لنكون على راحتنا.

«جميلة»: مسألة الطعام و الشراب هينة يمكنني تدبيرها.

«ليلى»: ما يشغلني هو كيف سيوظف الدكتور «لبيب» هذه الرحلة في دراسة قضية الحرية؟

«سارة»: ربما من خلال مراقبة و مناقشة سلوك بعض الحيوانات في المواقف المختلفة، فهذه المنطقة مشهورة بالغزلان و الأرانب.

«حنان»: ستكون رحلة صيد إذن.

«حورية»: لا يوجد مثل الطيور في عشقها للحرية.

«جميلة»: ما يهمني الرحلة ذاتها لا ما فيها من التجارب، فأنا بحاجة لتغيير الجو.

«ليلى» مازحة: المهم أن يكتفي الدكتور العبقري بالتجارب على الحيوانات لا أن يحولنا نحن إلى حيوانات تجارب.

*** ***

عادت «حورية» إلى منزلها بُعيد العصر و كان الجو دافئاً رغم الشتاء، فشعرتْ بأن القراءة تناديها، فلبت النداء و أخذت مذكرات جدها و جلست تطالعها في الشرفة مع كوب من الشاي الساخن:

(..مرت ستة أشهر على حادثة القارب، و عادت السيدة رحيمة إلى عادتها و برنامجها، و عدت إلى مجلسي على الصخرة و مراقبتها، لم أتكلم معها طويلاً و لكنني تعلمت منها كثيراً، و كان الصيد من ضمن ما تعلمته منها أو بسببها لأكون أدق و أضبط،

لم تكـن لـدي رغبـة في الأسـماك بقـدر رغبتـي في رمـي الشـباك، و معالجـة الصـبر و الترقـب، و كانـت وسـيلتي في التعلـم المشـاهدة عـن بعـد و لذلـك ربـما لم أحقـق نتائجـاً عظيمـة، و لكنـي تمكنـت مـن خـلال ممارسـة الصيـد أن ألحـظ المفارقـة بـين رؤيتـي و رؤيـة السـيدة رحيمـة للأمـور، فمـن وجهـة نظـري كان الصيـد تجسـيداً للوقـوع في الأسر و فقـدان الحريـة، و مـن وجهـة نظرهـا كان تكريسـاً للتحـرر في أوضـح صـوره، أليـس هـو بالنسـبة للسـمك الخـروج مـن مـاء البحـيرة المحـدود إلى الفضـاء اللامحـدود؟ يعنـي حيـاة الكائنـات في بيئتهـا، عـلى أرضهـا و تحـت سـمائها، صـورة مـن صـور الحريـة أم العبوديـة؟ إذا نظرنـا إلى رحلتـي مـن وجهـة نظـر السـيدة رحيمـة فهـا أنـا قـد تحـررت و هـذا مـا أدعيـه، و إذا نظرنـا لهـا مـن وجهـة نظـري فمعنـى هـذا أننـي قـد وقعـت أسـيراً في قريـة الحريـة و هـذا مـا أنفيـه، لقـد جعلتنـي السـيدة رحيمـة أشـعر بـما أنـا فيـه مـن التناقـض، فأنـا أرى أن مغـادرة الأسـماك لموطنهـا وقـوع في الأسر بينـما مغـادرتي أنـا لموطنـي انطـلاق نحـو الحريـة!

سألتني مرة: لماذا غادرت؟

صحيـح، لمـاذا غـادرتُ؟ لمـاذا تركـتُ مـا تركـتُ؟ لمـاذا جئـتُ إلى هنـا و مـاذا أدركـتُ؟ و هـل وجـدتُ مـا طلبـتُ؟ تذكـرتُ قولهـا عـن ابنهـا: (المأفـون يبحـث عـن الحريـة)، فاسـتحييت أن أجيبهـا إجابـة مبـاشرة، فقلـت لهـا: هنـاك شيء ينقصنـي، أبحـث عنـه و أطلبـه.

قالـت: مـا تظـن أنـه ينقصـك إنـما ينقصـك نقيضـه، و مـا تبحـث عنـه بالسـفر إلى الخـارج لـن تجـده إلا بالسـفر إلى الداخـل، و مـا تطلبـه أمامك.

يبـدو أنهـا لم تكتـفِ بإشـعاري بالتناقـض فأحبـت أن تشـعرني بالحـيرة، فنظـرت لهـا نظـرة تجمـع بـين البلاهـة و الاستفسـار و قلـت: مـاذا تقصديـن؟

قالت: أتنصت إذا حكيت لك حكاية؟

قلت: بالطبع.

قالـت: كان هنـاك رجـل مـن العابثـين اللاهـين غـير الآبهـين لشيء، وفي ليلـة كان يلهـو مـع رفاقـه يشربـون ويمرحـون، فمـرَّ بهـم رجـل صالـح، فـدقَّ البـاب، فخرجَـت إليـهِ جاريـة، فقـال لهـا: صاحـب الـدار حـرٌّ أم عبـد؟ قالـت: بـل حُـرّ، قـال: صدَقْـتِ، لـو كان عبـداً لاستعمل أدب العبوديـة، فَسَـمِعَ الرجـل محُاورَتهُـما، فسـارع إلى البـاب حافيـاً حـاسراً، و قـد ولَّى الرَّجُـل الصالـح، فقـال للجاريـة: ويحـك! مـن كلَّمـكِ ومـاذا قـال لـكِ؟ فأخبرَتْـهُ بـما جـرى، فقـال: أي ناحيـة أخَـذَ هـذا الرّجُـل؟ قالـت : كـذا، فَتبِعَـه حتّـى لحَقـهُ، فقـال لـه: يـا سـيدي أنـت الـذي دققـت البـاب وخاطبـت الجاريـة؟ قـال : نعـم، قـال: أعـد عـليَّ الـكلام، فأعَـادَهُ عليـهِ فَمَـرَّغَ خدَّيـهِ عـلى الأرض و قـال: بـل عبـد! بـل عبـد! ثـمّ هـام عـلى وجهـه حافيـاً حـاسراً، حتـى عُـرِفَ بالحَفَـاء فقيـل لـه: لِمَ لا تلبـسُ نعـلاً، قـال: لأنّي مـا صالحَنِـي مـولاي إلاّ وأنـا حـافٍ فـلا أزول عـن هـذه الحالـة حتـى المـمات.

أدركـتُ مـا رمـتْ إليـه لكنـي لم أوافقهـا عليـه، نعـم، مـا قالتـه كان صحيحـاً في جملتـه لكنـه لا ينطبـق عـلى حالتـي، مشـكلة السـائرين و السـالكين و المسـافرين و الراحلـين تكمـن في تداخـلات و تشـابكات و تقاطعـات محطـات السـير و مقامـات السـلوك و مسـافات السـفر و اتجاهـات الرحـلات، فـما يقـع عـلى يمـين أحدهـم قـد يقـع على شـمال

الآخر، و ما يكون أمام بعضهم قد يكون وراء البعض الآخر، و من يسلك طريق الحرية قد يتجاوز طريق الرضا، و من يسير نحو الرحمة قد يصطدم بالعدل، و من يتجه نحو المحبة قد يتعثر في الأدب.

مضت الأيام على نفس الوتيرة، تغيب يومين ثم تشرق في الثالث السيدة رحيمة، لكن دوام الحال من المحال، ففي يوم جاء الموعد و لم تأتِ هي، انتظرت و ترقبت و تمنيت لكن لم يأت المنتظر و لم يظهر المرتقب و لم تتحقق الأمنية، و في اليوم التالي عاودت الكرة فلم تعد، شعرت بالقلق و ضاعفه معرفتي أنها تأكل رزقها يوماَ بيوم، و تذكرت قولها: (يوم بلا طعام لا يتعب بدناً و لا يقرب أجلاً)، و الآن مر يومان مما يعني انتهاء صلاحية مقولتها، و ضرورة الاطمئنان على حالتها.

كانت القرية مكونة من حيين كبيرين: الحي الشرقي و الحي الغربي، توجهت إلى سوق الحي الشرقي أولاً و سألت عنها، و بعد قليل من الجهد وصلت إلى مسكنها، فالناس في القرى يعرفون بعضهم بعضاً و كان تقدمي في العمر و سمعتي الحسنة عندهم بعد فترة طويلة من الإقامة بين ظهرانيهم طاردة للريبة عني، لم استطع طرق الباب لأنني أعلم أنها لا عائلة لها، فتجولت حول المنزل استفسر من الجيران فأخبروني أنها لم تظهر منذ ثلاثة أيام و أغلب الظن أنها في بيتها الثاني في الحي الغربي، فهنا منزل والدها رحمه الله و هناك بيت زوجها رحمه الله، و هي تقيم هنا أحياناً و تستقر هناك أحياناً أخرى، فكررت المحاولة في سوق الحي الغربي، فوصلت إلى نفس النتيجة، و جاءني نفس الجواب،

كل حي يزعم أنها في الحي الأخر، أهل الشرق يحسبونها قد غَرَّبت و أهل الغرب يظنونها قد شَرَّقت، أخبرتهم أنني جئت لتوي من الحي الشرقي و أنها ليست هناك و طلبت منهم التأكد من وجودها ببيتها، فانطلقت معي عائلة من جيرانها و بدأوا يطرقون بابها و ينادون اسمها لكن لا الباب فتح و لا النداء سمع، حاولت أن أقنعهم بالدخول فربما أصابها مكره، فرفضوا بشدة أن يقتحموا على السيدة رحيمة دارها في غيابها، و عندما جادلتهم سألوني: هل طرقت بابها في الحي الشرقي؟ هل تأكدت من عدم وجودها؟ فقلت: لا.

قالوا: إذن عد من حيث أتيت و تأكد من عدم وجودها قبل أن تطالبنا باقتحام دارها.

كان منطقهم محكماً ففعلت ما أمروني به، و تكرر الموقف على الجانب الشرقي، فلم تفتح الباب و لم تسمع النداء، تصاعد توتري و ازددت تعصباً كلما تعنتوا في إجابة مطلبي، فقد كانوا يرون أن دخول الدار عنوة كبيرة الكبائر، لكنني كنت متيقن من وجودها في أحد الدارين، فطالما لم تذهب للصيد و لم تظهر في السوق فأين يمكن أن تكون؟

تخطيت الجيران و توجهت نحو الباب الخشبي و انهلت عليه بقبضتي و قدمي، فسارع جارها ليمنعني خشية أن ينكسر الباب و جذبني إلى الخلف ليبعدني، تراجعت عدة خطوات فوقع نظري على حجر كبير نسبياً ملقى على الأرض، فالتقطته و رميت به نحو الباب بقوة فأحدث ضجة عالية، غضب الجار غضباً شديداً و تقدم نحوي مسرعاً حتى ظننت أنه سيفتك بي لولا

أننــا ســمعنا صــوت وعــاء أو إنــاء يكــسر داخــل البيــت، عندهــا فقـط اقتنـع الجيران أنني عـلى حـق، و بـدلاً مـن أن يهاجمنـي الرجـل تجـاوزني و انطلـق إلى بيتـه المجـاور للسـيدة رحيمـة و عـاد مسرعـاً معـه معولـه فـضرب بـه البـاب ضربـة واحـدة ففتحـه، انتظـرت أنـا و الرجـل و دخلـت زوجتـه و ابنتيهـا، لحظـات و عـادت المـرأة بوجـه يعلـوه الفـزع و طلبـت منـا إحضـار الطبيـب و أخبرتنـا أنهـا سـتقوم بعمـل مـا في وسـعها بمسـاعدة ابنتيهـا لحـين وصـول الطبيـب.

عدنـا و معنـا الطبيـب، فرافقتـه الجـارة إلى حجـرة السـيدة رحيمـة، و بقيـت أنـا و زوجهـا في الصالـة، كان بيـت السـيدة رحيمـة عبـارة عـن غرفتـين، الغرفـة التـي تقيـم فيهـا، و غرفـة مغلقـة اسـتنتجت أنهـا تخـص والديهـا رحمهـما الله، و الصالـة التـي جلسـنا ننتظـر فيهـا الطبيـب، كانـت الصالـة بـلا أثـاث تقريبـاً، مجـرد سـجادة أنيقـة نظيفـة و بعـض الوسـائد حولهـا للجلـوس، و في زاويتهـا قطعـة مـن الخشـب المزخـرف عـلى شـكل قـوس ارتفاعـه مـتر واحـد يبـدو أنـه محـراب للصـلاة، و في الجانـب الأيمـن مـن المحـراب طاولـة صغـيرة عليهـا صنـدوق خشـبي بديـع الصنـع عـلى شـكل جـزء مـن جـذع شـجرة طولـه يزيـد عـن الشـبر قليـلاً و عرضـه و ارتفاعـه يقـل كل منهـما عـن الشـبر قليـلاً.

خـرج الطبيـب و أخبرنـا أنهـا تعـاني مـن الحمـى بسـبب الالتهـاب الرئـوي و كونهـا لم تـذق طعامـاً منـذ ثلاثـة أيـام قـد زاد مـن وطـأة المـرض عليهـا، ثـم أصـدر لنـا التعليـمات و التوجيهـات التـي أخذنـا في تنفيذهـا عـلى الفـور، فبـدأت البنتـان في نقـل كل مـا يمكـن أن تحتاجـه السـيدة رحيمـة مـن بيتهـما إلى بيتهـا، و ذهبـت أنـا مـع

الأب لشراء الأدوية و الأعشاب المطلوبة، و في الطريق اعتذر لي الرجل و اعتذرت له، وصدقنا فتصادقنا، و كان يشعر بالذنب تجاه تفريطه في حق جارته و يؤكد لي أنهم كانوا يظنونها في بيتها في الحي الغربي، و أنها المرة الأولى التي يصيبها فيها المرض منذ سفر ابنها، و كنت أحاول أهون عليه لما شعرت به من صدقه، و تناوبنا على خدمة السيدة رحيمة طوال الأسبوعين التاليين، كنت في كل زيارة أحضر معي شيئاً من الأطعمة و الفواكه و كل ما من شأنه أن يساعد السيدة رحيمة في مرضها و أن يخفف المؤنة عن جيرانها، فهم لم يكونوا من الأغنياء و لكنهم كانوا من الأسخياء.

بعد مرور الأسبوعين تماثلت السيدة رحيمة للشفاء و أخذت تسترد عافيتها فأذنت لي في زيارتها، دخلت برفقة جارتها السيدة حليمة فوجدت حجرتها أيضا خالية من الأثاث إلا بعض الوسائد و صندوق أحسب أنه للملابس و سجادة كبيرة على جزء منها قماش محشو بالقطن تستخدمه كسرير لها، و على يمنها طاولة خشبية صغيرة عليها جرة ماء، جلست السيدة رحيمة و عليها غطاء من الصوف على سريرها و جلست بجانبها جارتها السيدة حليمة، بينما جلست أنا على وسادة في الجهة المقابلة لهما و قلت: حمداً لله على سلامتك.

قالت: شكراً لك للمرة الثانية.

قلت: في خدمتكِ يا سيدة رحيمة.

قالت جارتها السيدة حليمة: كانت تسمع نداءنا و طرقنا على الباب لكن لم تكن تستطيع الحركة أو الصياح.

أضافت السيدة رحيمة: أجل. حتى قذفتَ بالحجر على الباب و أحدث تلك الجلبة العالية، فانتبهت بعدما كاد أن يغمى علي، و شعرت أنها فرصتي الأخيرة للنجاة فاستجمعت ما بقي من قوتي و أطحت بجرة الماء القديمة من على الطاولة فانكسرت.

قلت: أما زلت تصرين أنكِ في غنى عن ابنكِ؟

قالت بإصرار: بلى. ما كان وجوده ليمنع موتي كما لم يمنع غيابه نجاتي.

قلت: كعهدك تتكلمين بمنطق غير منطقي.

أطرقت برهة ثم رفعت رأسها ببطء و سألتني: هب أنني أخبرتك بحاجتي إليه، ماذا أنت صانع؟

قلت بأكبر قدر من الصدق شعرت به في حياتي: أسافر إليه و أحضره إليك.

نظرت إلي نظرة لم و لن أنسها، ثم قالت: إذا احتجت إليه سأبلغك...)

طوت «حورية» مذكرات جدها و هي تقول: يا لك من فارس نبيل أيها الجد! يبدو أنك ستضيف لبحثك عن الحرية البحث عن الابن الضال للسيدة رحيمة.

*** ***

الفصل الثاني

المصيدة

قبيل الرحلة المرتقبة بعدة أيام كانت هناك أشياء ما، تحدث في المكان بفعل شخص أو أشخاص ما، لتعد الموقع لأحداث ما، تماما كما يقوم المخرج و معاونوه بإعداد المسرح للعرض المنتظر، فترى أجهزة يتم تركيبها في أماكن محددة بحيث لا تظهر للجمهور، و ترى أدوات تظهر و تختفي، و ترى أشياء تنتقل من هنا و هناك، و من ضمن ما ترى أيضاً صخرة كبيرة على رأس منحدر يبعد عشرة أمتار من فتحة أحد الكهوف بالجبل، بحيث لو انحدرت لسدت تلك الفتحة، و لا يمنعها من الانحدار سوى حجر كبير مثبت في قاعدتها، و إذا دققت النظر و كنت ذا بصيرة أدركت أن هذا الحجر مربوط بحبل غليظ مدفون تحت التراب و متصل بيد رافعة حديدية من الطرف الأخر مختفية أو قل مخفاة بين الأشجار، و لا يتطلب الأمر سوى جذبها ليزول الحجر و تنحدر الصخرة، و هكذا لم تعد «غابة الجبل» مكاناً طبيعياً خالصاً و إنما مزيج بعضه طبيعي خالص و بعضه اصطناعي بامتياز.

*** ***

انطلقت السيارتان تنهبان الطريق إلى غابة الجبل، سيارة الدكتور «لبيب» تجر المقطورة و بداخلها الطالبات، و سيارة «ماجد» و معه أصدقاؤه من الطلاب، و الجميع يتسامرون و يمرحون.

كان الدكتور «لبيب» يقود السيارة و بجانبه الدكتور «هانئ» الذي بدأ الحديث قائلاً: ما خطتك للرحلة يا دكتور؟

«لبيب»: حوارات سقراط. فالغرض إعطاء أكبر فرصة ممكنة للتفكير و النقاش ليصل الطلاب إلى قناعاتهم بأنفسهم دون ضغط الوقت و المنهج كما في قاعة المحاضرات.

«هانئ»: و هل هذا الغرض يستلزم قطع مئات الأميال إلى غابة الجبل لتحقيقه؟

«لبيب»: دور غابة الجبل في الخطة مجرد توفير المناخ الملائم للانطلاق في التفكير و التحرر من البيئة الاجتماعية المغلقة و الحياة المدنية الجافة، فهي مجرد عامل محفز ليس إلا.

«هانئ»: فأين كلام حضرتك عن دراسة الحرية من خلال التجربة العملية؟

«لبيب»: الرحلة في ذاتها تجربة على كل حال.

استعاد «هانئ» الحوار السابق بينه و بين «لبيب» و حديث الأخير عن طرفي النقيض للحرية، فقال: و أين السجن أو الفوضى في تلك الرحلة؟

ضاقت عينا «لبيب» و هو يجيب بقوله: المقصود من حديثي عن السجن أو الفوضى كان المعنى الفلسفي، أما إذا أردت المعنى المادي، فيمكننا عندما نصل إلى بقعة بعيدة مهجورة من الغابة الشاسعة أن نفرغ وقود السيارتين دون أن ينتبه الطلاب، عندها ستتحول الغابة إلى سجن لنا جميعاً، ووقتها يمكن لكل منا أن يعلم قيمة الحرية عنده و كم يمكنه أن يدفع لينالها؟ و هل تستحق بالفعل أن يدفع لها؟

اتسعت عينا «هانئ» و هو يقول: أهذا ما تنوي عمله فعلاً؟

اختلس «لبيب» نظرة إلى وجه «هانئ» ثم عاد للنظر إلى الطريق و هو يقول: لو كان الرد بالإيجاب، أكنت توافقني؟ و بالمناسبة لا يوجد هنا خطر حقيقي و إنما خطر موهوم و مع ذلك محسوب.

«هانئ»: بالطبع! فبما أنك ستفرغ الوقود لابد أنك ستحتفظ بوقود احتياطي في مكان ما لا يعلمه غيرك، لتصبح وحدك من يمتلك تحرير البشر، فأنت من يملك مفتاح سجن الغابة، إن شئت أغلقته و إن شئت فتحته، لست أدري لماذا يصر بعض الناس على القيام بدور الإله و يجدون متعتهم في ذلك!

«لبيب» دون أن يستفزه رد «هانئ»: ليس الأمر كما تقول، صحيح سيكون لدي حل للمعضلة و إلا لتعرضنا جميعاً للهلاك، و لكن ليس من باب القيام بدور الإله و إنما من باب أن كل تجربة لابد لها من ضابط يحدد نقطة البداية و نقطة النهاية، و لذلك أخبرتك أن المخاطرة هنا محسوبة و لا يوجد خطر حقيقي على الطلبة.

«هانئ»: هذا ما تظنه، هل يمكنك أن تخبرني عند أي نقطة ستطلق صافرة نهاية التجربة؟ عندما تنهار أعصاب الطلاب؟ أم عندما تظهر أخلاق الأزمات و يبدأ بعضهم في قتال بعض على الماء أو الغذاء أو أي ضرورة من ضرورات الحياة؟

«لبيب» بشيء من العناد: لن أدع الأمور تصل إلى هذه الدرجة.

«هانــئ» بــشيء مــن الحــدة: بالطبــع فأنــت تــرى أن مقاليــد الأمــور بيــدك، و كل شيء تحــت ســيطرتك، هــل تظــن أن الطــلاب سيســامحونك عــلى شيء كهــذا؟ هــل تظــن أنهــم لــن يقاضــوك؟

«لبيــب» محــاولاً تهدئــة النقــاش: أرجــو أن تهــدأ، لاحــظ أننــا نناقش مجــرد فرضيــة، أنــا لم أفعــل شــيئاً بعــد، و لــو كنت ســأفعل لمــا أخبرتك. و الآن دعنــي أجــب عــن ســؤالك فأقــول: الطــلاب لــن يســامحوني بــل سيشــكرونني، مــا ســيتعلمونه في أيــام معــدودات في هــذه الرحلــة قــد لا يتعلمــون مثلــه في ســنوات، و العلــم لا يكــون بــلا ثمــن، أمــا عــن ملاحقتهــم لي قضائيــاً فــلا أظنهــم يفعلــون، و كيــف يفعلــون و أنــا لم أجبرهــم عــلى شيء، و كلهــم راشــدون و قــد أقــروا في المحــاضرة الأخــيرة – و هــي مســجلة كــما تعلــم – بأنهــم موافقــون عــلى رحلــة يتعرضــون فيهــا لمواقــف تدفعهــم للتفكــير و البحــث في مســألة الحرية.

«هانــئ»: عــذرك الوحيــد بالفعــل إنهــا مجــرد فرضيــة، لكــن تأكــد أنــك إذا فكــرت في تحويلهــا إلى واقــع ســأمنعك.

«لبيــب» بــشيء مــن الســخرية: لــو أردتُ لمــا اســتطعتَ منعــي، ثــم عــاد إلى الجــد قائــلاً: أليــس لديــك أي شــغفٍ علمــي؟ ألا تريــد حتــى مــن بــاب الفضــول أن تتوقــع كيــف ســيكون رد فعــل الطلبــة أمــام هــذا الموقــف؟ و كيــف ســيفكر فيــه كل منهــم؟ و كيــف ســيعالجونه؟

«هانــئ»: لــدي مــن الفضــول و الشــغف العلمــي مــا يكفــي، لكــن أيضــا لــدي مــن القيــم مــا يحــول دون معاملــة البــشر كحيوانــات تجــارب.

*** ***

صاحت «ليلى»: هذه المقطورة رائعة.

«جميلــة»: نعــم أريكــة مريحــة تتحــول إلى سريــر عنــد الحاجــة، و مقاعــد وثــيرة، و أدوات لصنــع المشروبــات الســاخنة، ثلاجــة مليئــة بــما لــذ و طــاب.

«حنــان»: أهــذا مــا لفــت نظــرك، و لم يلفتــه وجــود مكتبــة صوتيــة بجانــب مكتبــة الكتــب، بهــا محــاضرات مســجلة للدكتــور «لبيــب» و آخريــن؟

«حوريــة»: كل يغنــي عــلى ليــلاه، هنــاك أيضــاً أدوات للصيــد لــو لاحظتــن.

«ســارة»: و لكــن مــن أيــن لــه هــذا؟ هــذه الســيارة و المقطــورة الملحقــة بهــا قيمتهــا مرتفعــة جــداً.

«ليــلى»: مــا أعلمــه أن عائلــة الدكتــور «لبيــب» عائلــة ثريــة تعمــل في مجــال المقــاولات و تنفــذ مشــاريع عملاقــة، و بالتــالي امتلاكــه لمثــل هــذه الســيارة ليــس بالأمــر المســتغرب.

«جميلة»: حقا!

«حورية»: أجل. هذا ما أعرفه أيضا.

«ســارة»: و كيــف ســنمضي وقتنــا حتــى نصــل إلى غابــة الجبــل، فالطريــق طويــل طويــل.

«ليــلى»: أنــا ســأســتلقى عــلى هــذه الأريكــة المريحــة و أضــع الســماعات لاســتمع إلى الموســيقى.

«جميلة»: و أنا سأستخدم الحاسوب المحمول.

«حنان»: و انا سأجلس على هذا الكرسي الوثير أراقب جريان الأشجار على الطريق، هذه هوايتي.

«حورية»: أما أنا فأجدها فرصة رائعة لأكمل القراءة في مذكرات جدي.

«سارة»: أما زال جدك العزيز يطارد السراب؟

«حورية» باسمة: لا تحكمي بغير علم، لو قرأتِ ما كتب لتغير رأيك.

«سارة» و هي تمد يدها للأوراق: هاتها إذن.

«حورية» و هي تبعدها عنها: كان غيرك أمهر منك، إن أعطيتك المذكرات فماذا أقرأ أنا؟

«سارة» بتهكم: حورية أيتها الذكية! أعطني ما قرأته منها.

«حورية»: نعم، هذا حل لا بأس به.

قسمت «حورية» الأوراق و أعطت ما قرأته لصديقتها و جلست هي في استرخاء لقراءة ما تبقى.

*** ***

(... ها قد مضى عامان لي في قرية الحرية، و ثلاثة أعوام منذ غادرت بلدتي و بدأت رحلتي، في البداية شعرت أنني حققت ما قصدت و أنجزت ما أردت، و لكن عندما استقرت الأمور و هدأت الأحوال و طال بي المقام في القرية أدركت أنني عدت إلى

ما كنت عليه، و أن حياتي هنا لا تختلف كثيراً عن حياتي هناك، و أن ما شعرت به في النصف الأول من رحلتي كان ناتجاً عن التغيير في الموجود لا عن تحقق المقصود، أو إن شئت قلت ناتجاً عن تغير مفردات الحياة اليومية لا عن تحقق الأمنيات و الأحلام الوردية، فلا أجد فارقاً ملحوظاً بين مقدار الحرية الذي أنعم به الآن في بلدة الحرية و بين كم الحرية الذي كنت أنعم به في بلدتي الأصلية، و الواجبات و المسئوليات التي تحررت منها بالأمس اكتشفت أنني استبدلتها بغيرها اليوم، يبدو أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بلا قيود، كل ما في الأمر أنه إذا قيد نفسه بإرادته لم يشعر أن ذلك ينتقص من حريته، أما إذا قيد نفسه مكرهاً أو قيده غيره رغماً عنه شعر بوحشة السجن و قسوة القيد ووطأة العبودية.

و هكذا أدركت أن السبيل هو الاستمرار في الرحيل، فالمزيد من الارتحال يعني المزيد من الحرية، و هذا هو الفارق بين النهر الجاري و الماء الراكد، و لهذا السبب تدور الأفلاك و تتعدد المشارق و المغارب و لا تتوقف الأنفاس إلا بموت النفوس، فمع السفر و الترحال تتجدد الأشخاص و الأنفاس و المشاعر و الأحداث و المقاصد و الغايات و التجارب و الخبرات و الموجودات و المفقودات ، لكن إلى أين الرحيل؟ و في أي اتجاه يكون المسير؟ و كيف السبيل؟ و كيف سأترك السيدة «رحيمة» في غياب ولدها بلا سند و لا ظهير؟ تدفعني نفسي التواقة إلى المسير و يجذبني ضميري إلى البقاء في القرية حتى حين.

جلست كعادتي على الصخرة المطلة على البحيرة و لكن في غير الموعد الذي اعتدت الجلوس فيه، و الغريب أن السيدة «رحيمة»

أيضاً أتت في غير الموعد الذي اعتادت المجيء فيه، توجهت نحوي مباشرة، فلما وصلت قالت:

- سلاما أيها الشيخ الغريب.

- سلام يا سيدة رحيمة.

- ما الذي أخرجك من بيتك في هذه الساعة؟

- الحيرة و التفكير.

- و أنا أخرجني الذي أخرجك.

- و ما يُحيرك يا سيدة رحيمة؟

- ولدي.

هززت رأسي متفهماً و قلت: نعم. كان الله في العون.

ثم لاحظت أنها تحمل الصندوق الخشبي البديع الصنع الذي رأيته في بيتها يوم مرضها، فأشرت إليه و قلت:

- يبدو أن لهذا الصندوق شأناً.

- هذا الصندوق هو أثمن ما أملك.

- من أين حصلت عليه؟

- صنعه جدي رحمه الله، نحته من جذع شجرة دون أن يغير من صورته الأصلية، فقد كان نجاراً.

- يبدو أنه كان فناناً أيضاً، هل لي أن أسألك عن محتواه؟

فتحت السيدة «رحيمة» الصندوق فرأيت فيه ثلاث قطع من الجلد، صغيرة الحجم رقيقة السُمك، كل قطعة مكتوب عليها عبارة ما، ثم قالت:

- وصية جدي لأبي، و وصية أبي لي، و وصيتي لولدي.

- جميل أن يوصي كل جيل الجيل الذي بعده.

- و أجمل منه أن يعمل كل جيل بوصية الجيل الذي قبله.

- صدقت.

- هل يهمك أن تعرف مضمون الوصايا؟

- يهمني إلى المدى.

أخرجت السيدة «رحيمة» قطعة الجلد الأولى من الصندوق و قالت: وصية جدي لأبي كانت:

(لكي تجد الحرية يجب أن تركب سفينة النجاة)

ثم التقطت القطعة الثانية و قالت: و وصية أبي لي كانت:

(لكي تعيش حراً يجب أن تحطم جميع الأصنام)

ثم رفعت القطعة الثالثة أمام وجهي و قالت: و وصيتي لولدي هي:

(لكي تظل حراً يجب أن تلقي عصاك)

تأملت في الوصايا طويلاً، ثم قلت لها: و هل تظنين أن شاباً في العقد الثالث من عمره مثل ابنك سيفهم مثل هذه الوصايا.

قالت: إن لم يفهمها اليوم سيفهم غداً.

قلت: و هل تريدين مني أن أوصل تلك الوصايا إليه أم أن أحضره هو إليك؟

قالت: لا أريد أن أقطع عليه رحلته أو أفسد عليه تجربته، يكفيني أن أطمئن عليه و أن يصل الصندوق إليه.

تناولت منها الصندوق و أنا أسألها: منذ متى بدأ ابنك رحلته؟

أجابت: اليوم يمر ثلاثة أعوام على مغادرته هذه القرية و ربع قرن على مجيئه هذا العالم.

قلت متعجباً: إن ابنك بدأ رحلته في نفس الوقت الذي بدأت فيه رحلتي، يبدو أن ولدك يسبقني بأربعة عقود تقريباً.

ثم أضفت متسائلاً: ما الذي دفعه لهذه الخطوة؟

قالت: الخطوة التي قبلها.

قلت: و ما هي؟

قالت: المعرفة. لم يحب ولدي شيئاً منذ صباه مثلما أحب المعرفة، و لم يتعلق بالبحث عن شيء قدر تعلقه بالبحث عنها، كان يتنقل بين أهل القرية يتعلم من هذا علماً أو أدباً و من ذاك حرفة أو صنعة، و أهل القرية كما تعلم بسطاء و ما لديهم من المعرفة يمكن تحصيلها في فترة ليست بالطويلة، و لذلك انتهى به المطاف أخيراً إلى حكيم القرية، ذاك الرجل الطيب الذي أفنى عمره في جمع الكتب و الرسائل حتى تكونت لديه مكتبة

لا بـأس بهـا كان يحتفـظ بهـا في حجـرة ملحقـة بمنزلـه، فلـما تحقـق مـن صـدق رغبـة ابنـي في المعرفـة أعطـاه مفتاحـاً لتلـك الحجـرة و أذن لـه في الحضـور وقتـما شـاء ليقـرأ مـا شـاء، فـكان ابنـي يمـضي في مكتبـة الحكيـم السـاعات الطـوال، بـل ربـما يبيـت فيهـا لبضعـة أيـام، حتـى انتهـى مـن قـراءة جميـع مـا فيهـا.

قلت معجباً: رائع. لا بد أن هذا كان أسعد يوم في حياته.

قالـت: بـل كان أشـقى يـوم فيهـا، فـما عسـاه يفعـل بعـد ذلـك؟ هـذا السـؤال هـو مـا أثـار شـجونه و أشـعل حيرتـه.

قلـت: لقـد دخـل مبكـراً في معضلـة: و مـاذا بعـد؟ لكـن قـدرة الشـباب عـلى إيجـاد مخـرج مـن تلـك المعضلـة أعـلى مـن قـدرة الشـيوخ عـلى ذلـك.

قالـت: لكـي يخـرج منهـا خـرج مـن القريـة بأسرهـا، فقـد أراد أن يمتحـن المعرفـة التـي حصـل عليهـا، هـل الحيـاة كـما قـرأ عنهـا؟ هـل التاريـخ كـما درسـه؟ هـل المسـطور في الكتـب و المجـلات منظـور في القـرى و البـلاد؟ و ألـف هـل و هـل..

قلت: و هل وافقته على قراره؟

قالت: و هل كنت قادرة على منعه؟

قلت: و لِمَ لا؟

قالـت: لأن رغبتـه في السـفر أضحـت كالشـجرة المحرمـة التـي يعجـز عـن الصـبر عنهـا البـشر ، كل مـا اسـتطعته وقتئـذ هـو أننـي أخبرتـه مقدمـاً بالنتيجـة التـي سـيصل إليهـا، أخبرتـه أن الكتـب

و الحيـاة يلتقيـان و يفترقـان، و أنـه سـيعرف منهـا و ينكـر، و أن مـا يعرفـه اليـوم قـد ينكـره غـداً، و مـا ينكـره اليـوم قـد يقـره غـداً.

قلت: فما كان جوابه؟

قالـت: قـال: ليـس هـذا يـا أمـي مـا يشـغلني، لقـد حررتنـي المعرفـة مـن ضيـق القريـة إلى سـعة العـالم، و أخرجتنـي مـن الشـأن الخـاص إلى الشـأن العـام، و جعلتنـي أدرك أن كثـيراً مـن العقـول و الشـعوب و الأوطـان مـا زالـت محتلـة مضللـة مسـتغلة، مـا فائـدة المعرفـة إن لم نتحـرر و نحـرر بهـا؟ و مـا فائـدة النـور إن لم نبـصره و نُبَـصر بـه؟ و مـا فائـدة العلـم إن لم نعمـل بـه و نُعَلمـه؟ يـا أمـي أنـا غـادرت القريـة بذهنـي و إن بقيـت فيهـا ببـدني، فـلا تمنعـي جسـدي مـن اللحـاق بعقـلي.

قلـت: حلـم إصـلاح العـالم الـذي لا ينفـك عـن مـراودة عقـول الشـباب، ثـم بعـد عقـود يدركـون أنـه ليـس في الإمـكان أبـدع ممـا كان. أطرقـت برهـة ثـم سـألتها: و إلى أيـن توجـه؟

قالـت: لسـت أدري تحديـداً إلى أيـن توجـه، و لا أحسـبه هـو نفسـه يـدري، لـو انتفـع بالمعرفـة فعـلاً لحررتـه مـن ضيـق العـالم إلى سـعة قريتـه التـي هـي أصلـه و قلبـه، و لأخرجتـه مـن الشـأن العـام و جعلتـه يقبـل عـلى خاصـة نفسـه، كـما أخبرتـك مـن قبـل كان الأولى بـه أن يفـر مـن هـذه الحريـة لا أن يفـر إليهـا.

قلـت: لا تقسـي عليـه، مـا كان ليـدرك مـا تقولـين بالقـراءة وحدها دون التجربـة، و حتـى إذا أدرك فقـد يتفـق معـك و قـد يختلـف عنـك.

قالت: أنا لا أقسو عليه و إنما أرحمه، و لكن يأبى الإنسان أن يدرك خطر النار دون أن تحرقه.

قلت: لن تحرقه إن شاء الله بل ستنضجه.

قالت: هذا ما عزيت به نفسي فتركته يمضي.

قلت: و هل ما زال التواصل بينكما قائماً أم انقطعت عنك أخباره؟

قالت: كان يرسل لي الرسائل بين الحين و الحين، ثم انقطعت رسائله منذ ثلاثة أشهر.

قلت: و من أين وصلتك رسالته الأخيرة؟

قالت: لم يكن يرسل الرسائل عن طريق البريد، فليس في قريتنا بريد، و إنما عن طريق أشخاص و حينما كنت أسألهم عنه أدركت أنهم لا يعرفونه و أن الذي أعطاهم الرسالة ليس هو، و في كل مرة كان الشخص الذي يسلمني الرسالة يأتي من مكان غير الذي جاء منه من قبله.

قلت: ربما لبعد المكان و اختلافه كانت رسالته تحتاج لأكثر من شخص ليوصلها، و الأكيد أن أولهم يعرفه لكن آخرهم ليس كذلك.

قالت: أجل يبدو ذلك.

هنا شعرت بمدى صعوبة المهمة المطلوبة، كنت أرجو أن أعرف محطته الأخيرة لأبدأ منها، و عندها كنت سأقتفي أثر ثلاثة أشهر فقط بيني و بينه، أما و هذا هو الحال فأنا مضطر

أن أبدأ من حيث بدأ و حينها سأقتفي أثر ثلاثة أعوام، طلبت من السيدة «رحيمة» رسائله القديمة، و سألتها عن أصدقائه في القرية و ما جاورها من القرى، ثم سألتها إن كان لديها صورة له؟ فأخرجت من جيبها صورة و أعطتني إياها و هي تقول: هذه هي الصورة الوحيدة له عندي.

أحسست بمدى تمسكها بالصورة و تعلقها بها، و تفهمت مشاعرها جراء انتقال الصورة منها إلي، فقلت مطمئناً لها لأخفف عنها: سأذهب إلى أقرب بلدة لأستنسخ منها عدة نسخ، فأحتفظ ببعضها معي و أترك لك البقية.

تبسمت السيدة «رحيمة» ابتسامة تجمع بين الشكر و الرضا و هزت رأسها موافقة، فقلت: ما اسم ولدك؟

قالت: صادق.

قلت: صادق من؟

قالت: صادق كريم حكيم.

رفعت صورته أمامي و تأملت ملامحه فوجدته شاباً و سيماً فتياً، فخاطبته في نفسي قائلاً: أرجو أن يكون وصفك كاسمك فتكون صادقاً كريماً حكيماً فعلاً فتستحق ما سأبذله من جهد في هذه المهمة، و ألا يكون وصفك بالضد من اسمك فترهقني ووالدتك كذباً و لؤماً و حمقاً...)

*** ***

وصلت القافلة إلى مقصدها بين العصر و المغرب، و ترجل الرحالة ليبدأوا الجزء الثاني من رحلتهم سيراً على الأقدام لعبور غابة الجبل، و تعالت الصيحات و التعليقات و الاستفسارات من هنا و هناك:

- المكان رائع حقاً.

- المنظر بديع فعلاً.

- دعونا نتجول في الجوار أولاً.

- أين الخرائط؟

- هل أخذتم جميع أغراضكم من السيارة؟

- من أين نبدأ المسير؟

- من الأفضل أن نبدأ السير الآن لنتمكن من اختيار مكان مناسب لنصب الخيام قبل حلول الليل.

- سنبدأ السير و لكن قبل أن نبدأ عليكم أن تتركوا هواتفكم و ساعاتكم اليدوية في السيارات.

- لا توجد شبكات هنا فلن نتمكن من استخدام الهواتف، و لكن ماذا عن الساعات؟

- تحرروا من أعباء الحياة الصناعية و استمتعوا بالحياة الطبيعية لفترة وجيزة.

- هذا ما نحتاجه بالفعل.

و هكـذا اسـتأنف الركـب المسير على طريـق ممهدة بـين ثنايـا الجبل، تحفهـم النباتـات و الأشـجار، و يعطـر الأجـواء مـن حولهـم شـذى الـورود و الأزهـار، و تطـرب أذانهـم تغاريـد الأطيار، و تمتـع أبصارهم قفـزات الظبـاء و الغـزلان، كانـوا كأنـما يسـيرون عـلى أنغـام مقطوعـة موسـيقية رائعـة، و يزيـد مـن روعتهـا طيـب الريـح و حسـن المنظـر.

و بعـد دقائـق ليسـت بالطويلـة، قادتهـم السـبيل إلى واد فسـيحة، و كانـت الشـمس قـد أوشـكت عـلى المغيـب و قـد تراكمـت حولهـا بعـض الغيـوم، فاسـتقر رأيهـم عـلى نصـب خيامهـم و بـدء برنامجهـم لتلـك الليلـة عـلى أن يعـاودوا السـير فجـر اليـوم التـالي، لكـن مـا أن شرعـوا في تنفيـذ مـا تقـرر حتى أخذت السـماء في صـب دلوهـا عليهم.

- هل نستمر في نصب الخيام رغم الأمطار؟

- لا بأس فالأمطار خفيفة.

- و ما يدرينا قد تصير غزيرة.

- الأفضل أن ننتظر حتى يتوقف المطر.

- و لكن لابد لنا من مكان نحتمي به، أو نأوي إليه.

- ها هو ذا.

انطلقـت العبـارة الأخـيرة مـن في أحدهـم و هـو يشـير مـع آخـر شـعاع مـن ضـوء النهـار إلى فتحـة كهـف في الجهـة اليمنـى مـن سـفح الجبـل.

- هل سيسعنا؟

- الفتحة تبدو ضيقة؟

- دعونا نعاين عن قرب.

- أضيئوا المصابيح.

- رائع.

- مناسب جداً.

- الفتحة ضيقة بالفعل لكنه متسع و رحب من الداخل.

- الأرضية أيضاً تكاد تكون مستوية.

- يمكننا أن نفرش عليها ما لدينا من البسط لتكون مريحة.

- فكرة جيدة.

انتهى الطلبة من نقل أغراضهم و بسط الفرش و إعداد المكان حتى صار أنيقاً مريحاً إلى حد ما، ثم همس «عاطف» لصديقه «عاصم»: لم أشعر بهذا القدر من الحرية و الانطلاق من قبل، يبدو أن الدكتور «لبيب» كان موفقاً في اختيار هذا المكان.

«عاصم»: لست متفائلاً مثلك.

«عاطف»: و لمَ؟

«عاصم»: أية حرية تلك التي تتحدث عنها، نحن هنا معزولون عن العالم، و إذا عرض لنا عارض، أو طرأ علينا طارئ، فسنصبح عالقين.

«عاطف» مازحاً: أجل. عالقين في جنة الحرية.

قطع صوت «د. لبيب» حوارهما الهامس و هو يقول: معذرة يا شباب، نسيت بعض الأغراض التي سنحتاج لها في برنامجنا في المقطورة، سأذهب لإحضارها و أعود إليكم عاجلاً.

«د. هانئ» متوجساً: و لكن المطر بدأ يشتد.

«لبيب»: نعم لكنه مازال محتملاً، و المسافة التي قطعناها ليست بالطويلة، لن يستغرق الذهاب و العودة زمناً طويلاً، أرجو أن تلزموا جميعاً أماكنكم، و سأكون معكم خلال دقائق، اطمئنوا.

انطلق «لبيب» بمجرد الانتهاء من جملته الأخيرة و لم ينتظر تعقيب «هانئ» الذي بدوره بدأ القلق يتصاعد في ذهنه، فهو لم يكن يرغب أن يغيب «لبيب» عن بصره، فانتظر دقيقة على الجمر حتى يبعد قليلاً ثم انطلق خلفه و هو يقول للطلاب: سألحق بالدكتور «لبيب»، ربما يحتاج للمعاونة في نقل الأغراض.

جلس الطلبة في مجموعات ثنائية و ثلاثية يتناولون أطراف الحديث، ثم صاحت «ليلى»: أين الطعام يا رفاق؟

قامت «سارة» و «جميلة» تتفقدان الأغراض التي تم نقلها لداخل الكهف، ثم قالتا: لا يوجد هنا سوى المياه و العصائر. يبدو أننا تركنا صناديق الطعام بالخارج.

في تلك الأثناء كان «هانئ» تحت الأمطار يحاول اقتفاء أثر «لبيب» و هو يفكر هل اتجه فعلاً للمقطورة أم أنه يدبر أمراً ما؟ و ماذا سأقول له إذا لقيته؟ إنني لا أثق بك؟ لابد أنه يدرك ذلك بالفعل، لكن المواجهة لن تكون يسيرة، ربما الأفضل أن أراه من حيث لا يراني. و بينما هو في تساؤلاته و تأملاته شعر أنه مراقب،

و أن هناك مـن يـراه مـن حيـث لا يـراه، و أنـه يتحـول مـن مطـارِد إلى مطـارَد، و مـن صيـاد إلى فريسـة، و تزايـد هـذا الشـعور داخلـه حتـى تملكتـه الرغبـة أن يطلـق سـاقيه للريـح هربـاً مـن الخطـر الـذي لا يعـرف مصـدره، فبـدأ يكثـر الالتفـات و يـسرع الخطـى، و لكـن مـن يسـعى خلفـه لم يتـح لـه الفرصـة للفـرار فقـد عاجلـه بضربـة عـلى عنقـه قطعـت وصـول الـدم إلى مخـه، فسـقط مغشـياً عليـه مـن فـوره.

«ليـلى»: يمكننـي إحضـار الطعـام مـن الخـارج، لكنـي أحتـاج مـن يعاونني.

«حنان»: لا بأس، يمكنني مرافقتك.

«ماجـد» موجهـاً الحديـث لرفاقـه: أظـن مـن الواجـب أن يصحبهما أحدنا.

«ماهر» ناهضاً: سأقوم أنا بهذه المهمة.

انطلـق الركـب، «ماهـر» في المقدمـة و خلفـه مبـاشرة الفتاتـان، تحمـل كل منهـما مظلـة في يمناهـا و مصباحـاً كهربيـاً في يسراهـا، و الأمطـار قـد اشـتدت و السـماء قـد بـدأت تـبرق و ترعـد، وصلـوا سريعـاً إلى صناديـق الطعـام التـي تركوهـا في موضـع لا يبعـد سـوى عـشرات الأمتـار عـن مدخـل الكهـف، حملهـا «ماهـر» و أخـذوا يعـودون أدراجهـم، و ضـوء الـبرق يلمـع في السـماء و يعقبـه صـوت الرعـد بعـد ثـوانٍ معـدودات، حتـى إذا لم يبـق بينهـم و بـين كهفهـم سـوى مسـافة قصـيرة، امتـدت يـد بشريـة في الظـلام بعـد سـطوع الـبرق و قبـل سـماع الرعـد لتجـذب يـد الرافعـة الحديديـة ليتحـرك الحجـر المثبـت في قاعـدة الصخـرة التـي تحـررت فجـأة مـن أسرهـا،

و لم تعـد تجـد مـا يكبـح جموحهـا، فانطلقـت مبـاشرة نحـو هدفهـا، اختلطـت صـوت الرعـد بصـوت تدحـرج الصخـرة فلـم ينتبـه مـن في داخـل الكهـف، أمـا مـن خارجـه فشـعروا أن الأرض تهتز مـن تحتهـم، و التفـت «ماهـر» فلمـح عـلى ضـوء المصبـاح الـذي تحملـه «حنـان» الصخـرة الهائلـة و هـي تندفـع نحـو الكهـف كحيـوان أسـطوري، لا يفصلـه عـن فريسـته سـوى ثلاثتهـم، ألقـى ماهـر صناديـق الطعـام مـن لحظتـه، و في اللحظـة التـي تليهـا كان يدفـع زميلتيـه بـكل قوتـه في جهـة و يقفـز هـو إلى الجهـة المقابلـة، و مـرت الصخـرة مـن بينهـم، لكنهـا أصابـت قـدم «ماهـر» و سـاقه أثنـاء مرورهـا، و اختلـط صوت صراخ الفتاتـين بصـوت ارتطـام الصخـرة بمدخـل كهفهـم.

بعـد برهـة توقـف الـصراخ و سـكن الغبـار و هـدأت الأمطـار، ثـم ارتفـع صـوت «ماهـر» في مزيـج مـن الألم و القلـق و هـو يسـأل زميلتيـه: هـل أنتـما بخـير؟

«ليلى»: نعم. إلا من بعض الرضوض و الكدمات.

«حنان»: و الخدوش و السجحات.

ثم قالتا في نفس الوقت: و أنت؟

«ماهـر»: لسـت عـلى مـا يـرام، أحسـب أن قدمـي و سـاقي قـد أصيبتـا اصابـة بالغـة.

تحاملـت كلتـا الفتاتـين عـلى نفسـيهما، و توجهتـا إلى زميلهـما تسـاعدانه عـلى النهـوض، و تضمـدان جروحـه في حـدود الإمكانـات المتاحـة، ثـم قالـت «ليـلى»: أكان هـذا زلـزالاً؟

«حنـان»: نعـم أظـن ذلـك، فقـد شـعرت أن الأرض تهتـز تحـت قدمـي.

«ماهـر»: لسـت متأكـداً، هنـاك شيء مريـب فيـما مـر بنـا مـن الأحـداث.

«ليلى»: و ماذا عن رفاقنا؟

«حنان»: حبستهم الصخرة في الكهف.

«ليـلى»: أعلـم تلـك المصيبـة، و إنـما قصـدت مـاذا في إمكاننـا أن نصنـع لهـم؟

التقـط «ماهـر» غصـن شـجرة ليسـتخدمه كعصـا يتـوكأ عليهـا و توجـه نحـو الكهـف ليتفقـد موضـع الصخـرة، تبعتـه الفتاتـان، و وقـف الثلاثـة في الظـلام يحاولـون عـلى ضـوء المصبـاح الـذي تبقـى معهـم أن يجـدوا و لـو منفذاً ضئيـلاً إلى مدخـل الكهف و لكـن هيهات فقـد سـدت الصخـرة المدخـل بالكامـل حتـى كأنهـا قـد خلقـت لهـذا الغـرض، فلـما غشـيهم العجـز و حاطتهـم الحـيرة، أخـذوا ينـادون عـلى أصدقائهـم بأعـلى أصواتهـم عـلى أمـل أن يتمكنـوا مـن التواصـل معهـم و لكـن ذهبـت جهودهـم سـدى و تلاشـت أصواتهـم مـع الريـاح. و في الوقـت الـذي كانـوا يهتفـون فيـه بأسـماء أصدقائهـم كان أصدقاؤهـم داخـل الكهـف يهتفـون بأسـمائهم، لكـن لا هـؤلاء كانـوا يسـمعون أولئـك، و لا أولئـك كانـوا يسـمعون هـؤلاء.

«ليلى» بحنق: و أين «لبيب» و «هانئ»؟ لماذا لم يعودا؟

«حنـان»: صحيـح. لقـد مـر مـن الوقـت مـا يكفـي لعودتهـما، و ليـس لنـا مـن أسـباب النجـاة سـواهما.

«ماهر»: أخشى أن يكونا من أسباب الهلاك لا النجاة.

«ليلى»: ماذا تقصد؟ هل تقصد أن لهما دور فيما حدث؟

«حنان»: هذا مستبعد جداً، كيف سيعرفان بوجود الصخرة و وقوع الزلزال؟ و لماذا يخططان لمثل هذا العمل الجنوني؟ ماذا سيجنيان؟

«ماهر»: فأين اختفيا إذاً؟ و لماذا لا يعودان؟

«ليلى»: ربما أصابهما مكروه بدورهما.

«حنان»: ما العمل الآن؟

«ماهر»: ليس أمامنا سوى التوجه نحو موقع السيارتين و محاولة العثور على الرجلين، أو محاولة العثور على أي نوع من أنواع المساعدة.

*** ***

أفاق «هانئ» ليجد نفسه مقيداً إلى كرسي داخل مقطورة «لبيب»، الذي كان يجلس على الأريكة المقابلة له يتطلع إليه في صمت.

حرك «هانئ» رأسه في جميع الاتجاهات ليتأكد من سلامة عنقه و ليزيل عن نفسه أثر الإغماء، ثم نظر إلى «لبيب» و قال: توقعت أنك ستقدم على عمل أخرق.

«لبيب»: و أنا توقعت أنك ستقتفي أثري.

«هانئ»: أين الشباب؟

«لبيب»: في الحفظ و الصون.

أعاد «هانئ» السؤال بحدة: أين هم؟

قـام «لبيـب» و توجـه نحـو الشاشـة المثبتـة في المكتبـة داخـل المقطـورة و ضغـط زر التشـغيل و هـو يقـول: هـا هـم.

نقلـت الشاشـة مشـهد بعـض الشـباب و هـم متجمعـون أمـام مخـرج الكهـف مـن الداخـل يحاولـون زحزحـة الصخـرة التي تسـده، فحـاول «هانـئ» أن يقفـز مـن مقعـده لكـن منعتـه قيـوده التـي نسـيها مـن شـدة الغضـب، فصـاح قائـلاً: مـا ظننـت أن يبلـغ بـك الإجـرام هـذا المبلـغ.

«لبيـب»: أتعـد التجربـة العلميـة جريمـة! لا تكـن عاطفيـا، الجميع سيسـتفيد، هـم سيكتشـفون اعماقـاً جديدة في نفوسـهم و سـيدركون و سـيتعلمون، و أنـا سـأنجز البحـث و التجربـة، و العلـم سـيضاف لـه بابـاً فريـداً، يعنـي الـكل رابـح هنـا. اطمئـن لـن يصـاب أحـد بسـوء.

«هانـئ»: إن كنـت لا تـرى السـوء حتـى الآن فأنـت أعمـى، هـل تظـن أنـك سـتنجو بفعلتـك؟

«لبيـب»: لا أظـن، أنـا متأكـد. كـما تلاحـظ يمكننـي مراقبتهـم، فـإذا وجـدت في نهايـة التجربـة أنهـم سـيتبعون عواطفهـم و يسـيرون نحـو مقاضـاتي و النيـل مني سـأغادر البـلاد، أوراق سـفري جاهـزة و لـدي فرصـة عمـل في احـدى الجامعـات الأجنبيـة، و إن وجـدت أنهـم سـيغلبون عقولهـم و يسـيرون عـلى مقتـضى الحكمـة عندمـا يدركـون قـدر الفائـدة التـي تحصلـت لديهـم مـن جـراء تلـك التجربـة، فسـأبقى في وسـطهم و سـنكمل معـا البحـث و الدراسـة.

«هانـئ»: لا فائـدة مـن مناقشـتك، لكـن تيقـن أن خطتـك لـن تنجـح.

قـال «هانـئ» عبارتـه الأخـيرة ثـم عـاد إلى مراقبـة الشباب عـلى الشاشـة بقلـق بالـغ، و فجـأة اتسـعت حدقتـاه و صـاح بلهفـة: ويحـك! أيـن بقيتهـم؟

التفت «لبيـب» بسرعـة إلى الشاشـة و عقـد حاجبيـه بشـدة و أخـذ يعـد الشـباب بعينـه، ثـم قـال: يـا للمصيبـة! هـؤلاء سـبعة فأيـن الثلاثـة الآخـرون؟

«هانـئ» في قمـة الانفعـال: مـاذا تعنـي؟ ألم يكـن ذلـك مـن ضمـن خطتـك القـذرة؟

«لبيب» شارداً: لا.

«هانـئ» و قـد أصبـح لديـه بعـض الأمـل أن يتراجـع «لبيـب» عـن موقفـه: و مـاذا أنـت صانـع؟

توجـه «لبيـب» نحـو الشاشـة و ضغـط زر إعـادة التشـغيل و هـو يقـول: دعنـي أرى مـا حـدث مـن البدايـة لأفهـم ثـم أقـرر.

*** ***

انتفـض الشـباب مـع اصطـدام الصخـرة بمدخـل كهفهـم، و أسرعـوا يتفقـدون الموقـف فأدركـوا مـا حـل بهـم، حاولـوا زحزحـة الصخـرة باسـتخدام كل نقـاط الارتـكاز الممكنـة، و وسـائل الدفـع الثنائـي باليديـن، و الرباعـي باليديـن و القدمـين، لكـن لم تتحـرك قيـد أنملـة، وقفـوا برهـة يلهثـون ثـم بـدأوا يتحـاورون.

«ماجد»: كيف حدث هذا؟

«عادل»: ربما زلزال أو صاعقة تسببت في ذلك.

«عاصم»: بهذه الدقة! الصخرة لم تترك منفذا لشعاع من الضوء و سدت المدخل تماما! عجيب! بل مستحيل!

«عاطف»: كيف يكون مستحيلاً و قد وقع؟

«عاصم»: أقصد مستحيل أن يقع هكذا من غير يد بشرية.

«عادل»: بل المستحيل أن يقع بتدخل بشري، من ذا الذي يمكنه أن يحرك مثل هذه الصخرة بهذه الدقة؟

«سارة»: ها قد وقع المحال، و بدلاً من مناقشة كيف حدث هذا فلنناقش كيف سنخرج من هنا؟

«جميلة»: هذا هو السؤال.

«ماجد»: نعم و لكنه لا يلغي السؤال السابق بل يكمله، بمعنى أننا لكي نفكر في المخرج من هذه الورطة من المهم أن نعرف كيف دخلنا فيها؟

«حورية»: تقصد هل نحن في مأزق قدري طبيعي أم بشري مصطنع؟

«ماجد»: أجل.

«سارة»: و هل هناك فارق؟

«عاصم»: بالطبع.

«سـارة»: و مـا هـو هـذا الفـارق؟ إن كان قدريـاً سنستسـلم لـه و نجعـل مـن الكهـف قـبراً و ننتظـر المـوت؟ و إن كان صناعيـاً سـنقاوم مـن أجـل الحريـة؟ أم مـاذا؟

«عاصـم»: لا تخلطـين الأمـور كعادتـك، القـدر يطالبنا بالاستسـلام لـه بقلوبنـا و التفاعـل معـه بجوارحنـا كـما في أي نـوع مـن الأمـراض و المصائـب، و إن كان أمـراً مدبـراً مـن شـخص مـا فهـو أيضـا بقـدر لكـن في هـذه الحالـة علينـا أن نفهـم دوافـع هـذا الشـخص و كيـف يمكننـا هزيمتـه؟

«سـارة»: إذا في الحالـين نحـن مطالبـون بالتحـرك، يعنـي لا يوجـد فـارقٌ جوهـريٌ.

«ماجـد»: أرجوكـما كفـا عـن الجـدال، و دعونـا نبحـث كافـة الاحتـمالات و المخـارج.

«عـادل»: هنـاك احتـمال أن تكـون كارثـة طبيعيـة، و المخـرج في هـذه الحالـة أن ننتظـر الدكتوريـن، لاشـك أنهـما عـلى وشـك الوصـول و فـور اطلاعهـما عـلى الأمـر سـيأتون بالنجـدة مـن أقـرب قريـة لنـا.

«عاطـف»: أقـرب قريـة تبعـد حـوالي مائـة ميـل، و أتوقـع أن الوصـول لهـا و البحـث عـن وسـيلة لتحريـك الصخـرة و العـودة قـد يسـتغرق ثـماني سـاعات.

«عاصـم»: مـاذا لـو كان الدكتـوران العظيـمان همـا مـن دبرا لنـا هذه المصيـدة ؟ ألم يختـر «لبيب» هـذا المكان المهجور؟ ألم يخبرنا أننا سـنتعرض لموقـف يجعلنـا نـدرس و نبحـث موضـوع الحريـة بشـكل أعمـق؟ ألم يغادرنـا قبـل وقـوع الكارثـة بدقائـق؟ ألم يلحـق بـه «هانـئ» مباشرة؟

«حوريـة»: إن كان هنـاك احتـمال لتـورط «د. لبيـب» فليـس هنـاك احتـمال لتـورط «د. هانـئ»، فنحـن نعرفـه و أسرتـه منـذ زمـن طويـل، و لا يمكـن أن يكـون طرفـاً في هـذا العمـل الـدنيء.

«جميلـة»: نعـم. أذكر أنـه لم يكـن مرتاحـاً لاختيـار المكان، و أحسـب أنـه لحـق بالدكتـور «لبيـب» ليمنعـه من تنفيـذ خطتـه لا ليعاونـه عليها.

«سـارة»: و طالمـا لم يمنعـه فهـذا يعنـي أن النـصر كان حليفـاً للبيـب و أنـه نجـح في التخلـص مـن «هانـئ» بطريقـة أو بأخـرى.

بـدا الانزعـاج عـلى وجـه «حوريـة» لكنهـا لم تعلـق، بينـما قـال «عـادل»: تتحدثـون و كأنكـم تأكدتـم مـن تـورط «د. لبيـب»؟ الرجل كان يعلمنـا، و مشـهور بالكفـاءة، و لـه مكانتـه العلميـة و الاجتماعيـة، فـما الـذي يدفعـه لتلـك الجريمـة؟

«عاصـم»: الجنـون العلمـي، الرغبـة في تحقيـق سـبقٍ علمـيٍّ عـلى حسـاب المخاطـرة بحياتنـا.

«ماجـد»: السـاعات التـي ذكرهـا «عاطـف» هـي التـي ستحسـم الأمـر، إذا جـاءت فيهـا النجـدة برأتـه و إذا لم تـأت فهـذا دليـل إدانتـه.

«عاطـف»: إن فقدنـا الأمـل في «هانـئ» و «لبيـب» فلـن نفقـده في «ماهـر» و «ليـلى» و «حنـان»، مـن حسـن حظنـا أنهـم بالخـارج.

«سـارة»: و مـاذا في أيديهـم أن يصنعـوا لنـا و ليـس لديهـم وسـيلة مواصـلات للبحـث عـن النجـدة؟ فسـيارة «ماجـد» مغلقـة بإحـكام، و سـيارة «لبيـب» إن كان متورطـاً فلـن يعثـروا عليهـا، فهم مسـجونون خـارج الكهـف كـما نحـن مسـجونون بداخلـه، لننتظـر ثـم نقـرر مـاذا سـنفعل إن لم تصـل النجـدة خـلال سـاعات.

«حوريـة»: و كيـف سـنعلم بانتهـاء تلـك المهلـة و قـد تـم تجريدنـا مـن سـاعاتنا اليدويـة؟

«ماجـد»: صحيـح. في هـذه الحالـة لـن يمكننـا حسـاب الوقـت و علينـا أن نحـاول أن نصنـع شـيئا و لا نكتفـي بالانتظـار.

«عاصـم»: أجـل. فالوقـت ليـس في صالحنـا، تذكـروا أن أصدقاءنـا خرجـوا لجلـب الطعـام و لم يتمكنـوا مـن العـودة، يعنـي نحـن لا نمتلـك سـوى كميـات مـن المـاء و العصائـر تكفينـا يومـين أو ثلاثـة أيـام كحـد أقـصى.

«عاطـف»: أعتقـد أن هـذه المـدة أيضـاً هـي العمـر الافـتراضي للمصابيـح الكهربيـة التـي في حوزتنـا.

«جميلـة»: هـل يعنـي هـذا أن أمامنـا يومـين أو ثلاثـة ثـم نغـرق في الجـوع و الظمـأ و الظـلام!

سـاد الصمـت المصحـوب بالقلـق البالـغ و التوتـر العنيـف داخـل الكهـف بعـد عبـارة «جميلـة» الأخـيرة، و أخـذ كل واحـد منهـم في تخيـل مـا يمكـن أن يحـدث و إلى أي مـدى سـيتحمله؟ و كيـف سـيواجه مصـيره؟

*** ***

ابتعـد «لبيـب» بجذعـه قليـلاً عـن الشاشـة التـي تنقـل مـا يـدور في الكهـف، و أسـند ظهـره إلى الكـرسي الـذي يجلـس عليـه بجـوار الكـرسي المقيـد إليـه «هانـئ» مع وجـود طاولـة صغـيرة تفصـل بينهـا، ثـم قـال محدثـاً نفسـه بصـوت مسـموع: طالمـا لم يتمكـن «ماهـر» و الفتاتـان مـن العـودة إلى الكهـف فمـن المنطقـي أن يتوجهـوا إلى موقـع

السيارات للبحث عنا لنجدتهم، و إذا فعلوا فالمفترض أن يكونوا قد وصلوا إلى هنا بالفعل منذ فترة، و لكنهم لم يصلوا حتى الآن! و هذا من حسن الطالع، فلو وجدونا لفسدت التجربة و فشلت الخطة، يجب أن نغادر هذا المكان فوراً.

بمجرد أن أنهى «لبيب» كلمته نزل من المقطورة وصعد إلى مكان القيادة و أدار المحرك و انطلق غير عابئ بصياح «هانئ» لمنعه من تلك الخطوة، و أخذ يبحث عن موقع جديد مناسب للمقطورة، و بعد عدة دقائق استقر على موضع مرتفع عن الموضع الأول و محاط ببعض الأشجار، فكان مناسباً تماما للاختفاء عن الموقع الأول و مراقبته في ذات الوقت، فأخرج النظارات المكبرة المزودة بخاصية الرؤية الليلية من صندوق أسفل عجلة القيادة، و عاد مرة أخرى لداخل المقطورة، و بدأ ينقل نظره بين الشاشة و النظارات بين الفترة و الأخرى ليتمكن من مراقبة من بداخل الكهف و من خارجه في نفس الوقت.

و بعد فترة وجيزة شاهد الأصدقاء الثلاثة و هم في طريقهم إلى سيارة «ماجد»، و لاحظ أن «ماهر» يمشي بصعوبة بالغة على ساق واحدة بمساعدة «ليلى» و «حنان» و قد بدا على هيئاتهم جميعاً الارهاق و التعب، فقال: الآن فهمت لماذا تأخروا، «ماهر» مصاب إصابة بالغة، و الفتاتان في حالة بائسة.

كان «هانئ» قد يئس من السباب و الصياح، فاستعاد الهدوء و قد شغله ما حل بالشباب و أحنقه عجزه عن نجدتهم، فقال: و رغم ذلك ستستمر في تجربتك المشؤومة؟

«لبيب»: نعم لكن مع معالجة الأثار الجانبية التي لم تكن في الحسبان، هؤلاء الشباب بحاجة للمساعدة، و لن أبخل عليهم بها.

«هانئ»: و ماذا تنتظر؟

«لبيب»: اللحظة المناسبة.

عاد «لبيب» إلى مراقبة الشباب من خلال النظارات المكبرة، و كان المطر قد خف لكنه لم يتوقف، و شاهد محاولاتهم البائسة اليائسة لفتح السيارة باستخدام ما يتوفر لهم من الأدوات و ما تطاله أيدهم من هنا و هناك.

استمر الشباب في محاولاتهم، و في النهاية التقط «ماهر» حجراً كبيراً و هشم به الزجاج الجانبي للسيارة و هو يصيح: أنا متأكد أن ماجداً سيسامحني.

«حنان» بانزعاج: ويحك! ماذا صنعت!

«ماهر»: لابد مما ليس منه بد.

«ليلى»: نعم نحن في احتياج شديد إلى مكان آمن نمضي فيه ما تبقى من هذه الليلة الرهيبة.

فتح «ماهر» الباب الخلفي للسيارة و أدخل الفتاتين و جلس هو على المقعد الأمامي، و أخذ يزيل أثار الزجاج المكسور، ثم أخذ يبحث عما يصلح أن يكون بديلاً له لمنع الرذاذ المتطاير و الهواء البارد من الدخول، حتى عثر على بعض الصحف و المجلات فثبتها مكان الجزء المكسور من الزجاج، و هو يقول:

الآن يمكننا الحصول على بعض الراحة، و في الصباح نحاول إنقاذ أنفسنا و أصدقائنا.

و رغم الألم و القلق، ما أن أراحوا رؤوسهم على المقاعد حتى راحوا في سبات عميق بعد دقائق.

أزاح «لبيب» النظارات المكبرة عن وجهه و هو يقول: الآن حانت اللحظة المناسبة.

*** ***

شرع أصحاب الكهف في مناقشة كيفية الحفاظ على ما لديهم من مصادر الماء و الغذاء و الضياء المحدودة لأطول فترة ممكنة، و دار بينهم الحوار التالي:

«عادل»: أرى أن نقتسم ما لدينا بالسوية، ثم يقوم كل فرد بتدبير نصيبه ليكفيه أطول مدة ممكنة.

«ماجد»: و ماذا لو لم يحسن التدبير و أفنى ما لديه قبل الآخرين؟ هل سنتركه يموت عطشاً أم نتحمل عاقبة سوء تدبيره من أنصبتنا التي نحن في أشد الحاجة إليها؟

«عاصم»: بل يتحمل هو سوء تدبيره، فما ذنب الآخرين؟

«جميلة»: و ماذا لو لم يتحمل؟ أنقاتله؟

«حورية»: ربما من الأفضل أن نختار من بيننا من يقوم بتلك المهمة بالعدل و الحزم و القسطاس.

«سارة»: و ماذا لو خان الأمانة و آثر نفسه على إخوانه؟

«جميلة»: كيف هذا و كلنا أصدقاء منذ زمن و يعرف بعضنا بعضاً معرفة جيدة؟

«سارة»: لا يمكننا الاعتماد على حسن الظن في هذه الظروف، فنحن لا ندري ماذا يمكن أن يفعل أحدنا تحت شدة الحاجة و ضغط الضرورة.

«عاصم»: في هذه الحالة لا بد من وجود رقابة على من سيقع عليه الاختيار.

«ماجد»: أجل. يمكننا أن نقوم بحصر ما لدينا الآن و أن يتم التوزيع أمام الجميع في كل مرة ثم نعيد الحصر قبل كل نوبة للتأكد أنه لم ينقص شيء من المخزون فيما بين النوبتين.

«عادل»: و إذا اكتشفنا أن هناك نقص، فهل يعني هذا أن الذي يقوم بدور الخازن هو المذنب؟ ربما يستغل أحد فترة نومه أو انشغاله ليقتنص منه ما ليس من حقه.

«جميلة»: هل تريدون أيضا عمل نوبات حراسة على بضع زجاجات من المياه و العصائر؟

«سارة»: نعم، فتلك الزجاجات هي ما يضمن لنا الحياة.

«ماجد»: لا حاجة لذلك، فالصندوق الذي أحضرته للتخزين من النوع الذي يحافظ على درجة حرارة ما بداخله، و له قفل يعمل بالأرقام مثل حقائب السفر، و بالتالي ستقع المسئولية فقط على من سيقوم بدور الخازن لأنه وحده من يملك اختيار الأرقام.

«جميلة»: ما ظننت أنه سيأتي اليوم الذي نعامل فيه بعضنا البعض بهذا القدر من الشك و التخوين!

«عاصم»: ليس الأمر كما تظنين، و لكن الاحتياط واجب، و ما نفعله في الحقيقة يبعد عن نفوسنا هواجس الشك و التخوين لأننا نحاول ألا نترك مجالاً للارتجال أو التخمين.

«عادل»: نعم. يجب أن تكون الأمور كلها متفق عليها و واضحة و معلومة للجميع.

«عاطف»: و كيف سيقوم هذا الخازن بالتقسيم؟

«عادل»: ما هذا السؤال الغريب يا «عاطف»؟ بالطبع سيقسم القدر المتاح في كل نوبة بالتساوي.

«عاطف»: هذا ليس عدلاً يا «عادل».

«عادل» مندهشاً: و لِمَ؟

«عاطف» منفعلاً و هو يشير إلى نفسه: هل ترى أنه من العدل أن ينال من وزنه مائة كيلوجراماً نفس القدر من الطعام الذي يناله من وزنه خمسون كيلوجراماً. و أشار إلى زميلتيه.

«سارة» محتدة: ويحك! ما ذنبنا نحن في زيادة وزنك؟

«عاطف» و هو يكاد يبكي: إذن أنتم تريدون تعذيبي و قتلي.

«عاصم»: أرجوكم حاولوا أن تهدأوا، إذا انفعلنا و تنازعنا فكلنا خاسرون.

«ماجد»: لا بأس من مناقشة أعدل الطرق في توزيع الثروة التي لدينا، هل حسب مدى الاحتياج؟ أم بحسب القدرة على التحمل؟ أم بالمساواة المطلقة دون النظر إلى الوزن أو القوة أو الجنس؟

«عادل»: ما لدينا ليس ثروة و إنما المقومات الضرورية للحياة.

«سارة»: إذا نظرنا للاحتياج فلا شك أن الاحتياج الأكبر سيكون لمن ليس لديه مخزون من الدهون، و إذا أخذنا في الاعتبار القدرة على التحمل فمعلوم أن الرجال أقوى على التحمل من النساء، فإذا لم تتم القسمة بالتساوي فالواجب أن يكون للنساء النصيب الأكبر لضعف قدرتهن على التحمل.

«عاطف»: من قال إن النساء أقل تحملاً من الرجال؟ النساء يتحملن الولادة و نحن لا نتحملها قطعاً.

انفجرت الضحكات من أفواه الحاضرين رغم خطورة الموقف ثم بدأوا يستعيدون الهدوء كرة أخرى، فقال «عاصم»: حتى لو حاولنا توزيع ما لدينا توزيعا نسبياً و ليس كمياً فهذا يكاد أن يكون مستحيلاً لتعدد المعايير من الوزن و القدرة على التحمل و مدى الاحتياج من جهة و عدم وجود ضوابط محكمة لحساب النسب من جهة أخرى.

«عادل»: نعم. القسمة بالتساوي أقرب إلى العدل من وجهة نظري.

«سارة»: فلنجري تصويتاً إذن.

«ماجد» رافعاً يمناه: حسناً. من يوافق على التقسيم بالتساوي فليرفع يده.

أخـذت الأيـدي ترتفـع الواحـدة تلـو الأخـرى حتـى تحقـق الإجمـاع، فنظـرت «سـارة» باسـتنكار إلى «عاطـف» قائلـة: مـا دمـت موافقـاً فلـمَ صدعـت رؤوسـنا مـن البدايـة؟

«عاطـف»: كانـت لحظـة ضعـف. و أضـاف و هـو يشـير إلى بطنـه: ثـم أدركـت أنهـا لا يمكنهـا أن تهضـم شـيئاً لم تحـظ بطونكـم بمثلـه.

ابتسـم «عاصـم» و هـو يربـت عـلى كتـف صديقـه مشـجعاً و هـو يقـول: أرجـو أن نجـد مخرجـاً قريبـاً و ألا نصـل إلى حالـة الاضطـرار.

«ماجـد»: هـذا مـا أخشـاه فنحـن إلى الآن نقيـم الأمـور بعقولنـا و نتـصرف بـما تمليـه علينـا أخلاقنـا، و لكننـا لا نـدري مـدى تأثـير الاضطـرار عـلى قوانـا العقليـة و قيمنـا الأخلاقيـة.

«جميلـة» في محاولـة لتغيـير دفـة الحديـث حتـى لا يغوصـون في الاحتـمالات المخيفـة: و مـن تختـارون ليكـون خـازن بيـت المـال؟

«حورية»: أنا أرشح «عادلاً» تفاؤلاً باسمه.

ارتفعت الأيدي مرة أخرى بالإجماع.

ثـم قالـت «سـارة» موجهـة الحديـث إلى «عـادل»: أول مشـكلة سـتواجهك أيهـا الخـازن هـي كيفيـة حسـاب الوقـت بـين نوبـات التوزيـع لضـمان الحفـاظ عـلى المخـزون لأطـول فـترة ممكنـة، فنحـن لا نملـك سـاعات يدويـة كـما تعلمـون.

أطـرق «عـادل» برهـة ثـم رفـع رأسـه و قـال: لا أجـد سـوى الاعتـماد عـلى أنفاسـنا.

«عاطف»: بالطبع سنعتمد على أنفسنا، لكن كيف؟

«عادل»: لم أقل على أنفسنا و إنما على أنفاسنا.

«عاصم»: ماذا تقصد؟

«عادل»: ما أعلمه أن الإنسان يتنفس بمعدل عشرين مرة في الدقيقة تقريباً أي ألف و مائتين مرة في الساعة، فإذا قام كل واحد منا بعد أنفاسه لمدة ساعة فيمكننا حساب الوقت بشكل تقريبي.

«ماجد»: فكرة رائعة.

«سارة»: لكنها غير مضمونة بالمرة، ماذا لو أخطأ أحدنا أو شرد ذهنه و غفل عن العد؟

«عاصم»: على كل واحد منا أن يبذل أقصى قدر من التركيز حين يحين دوره، و حتى إن شرد أو أخطأ فليكمل، فأن تصبح الساعة سبعين أو ثمانين دقيقة أفضل من فقدان عنصر الزمان بأسره.

«حورية»: و بذلك كلما أنهينا ثلاث دورات من العد، انقضت أربع و عشرون ساعة تقريبا و وصلنا إلى الغد.

«عادل»: لقد دخلنا الكهف مع غروب الشمس تقريباً، و في تقديري أن الساعة الآن حوالي العاشرة مساء، فإذا بدأنا عد الأنفاس من الآن، فيمكنني القول أن أول وجبة لنا ستكون بعد اثنتي عشرة ساعة من الآن أي حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

«عاطف»: اعتقد أنها فترة كافية لوصول الدكتور «لبيب» و الدكتور «هانئ» بالنجدة، أليس كذلك؟

«عاصم»: أما زال لديك أمل فيهما.

«ماجد»: لن نفقد الأمل فيهما أو في أحدهما إلا بعد مرور تلك الساعات على الأقل، فليس هناك دليل مؤكد حتى الآن على تورطهما في الكارثة التي نحن فيها.

«جميلة»: أرجو أن تصل النجدة خلال تلك الساعات و ينتهي هذا الأمر على خير.

«سارة»: و ماذا لو لم تصل؟

تبادل الأصدقاء النظرات و لم ينبس أحدهم ببنت شفة للجواب على سؤال «سارة» فكل منهم كان يريد التفكير منفرداً قبل أن يعلن رأيه على الملأ.

أتم «عادل» توزيع الساعات لعد الأنفاس على المجموعة، ثم انزوى كل واحد منهم في زاوية من زوايا الكهف يفكر في ماذا لو؟ و ماذا بعد؟

و خيم الصمت على الكهف إلا من شهيق و زفير من يقوم بعد أنفاسه.

*** ***

أشرقت الشمس على أصحاب السيارة فاقتلعت النوم من العيون، و كان أولهم استيقاظاً «ماهر» الذي بمجرد أن ردت إليه روحه شعر بألم قدمه و ساقه، فأخذ يتأوه تأوها مكتوماً خجلاً من رفيقتيه، استيقظت الفتاتان بعده مباشرة، فقالت ليلى: لقد كنا في أشد الحاجة إلى الراحة.

«ماهر»: و نحن الآن في أشد الحاجة إلى الدواء و الغذاء.

«حنـــان»: فلنفتــش في الســيارة ربــما تــرك فيهــا ماجــد بعــض الأطعمـــة و الأدويـــة.

أخــذوا ينظــرون فيــما حولهــم و تحــت المقاعــد و خلفهــا حتــى وجــدوا في المكان المخصص للأمتعـة صندوقـين مغلقـين، فالتقطـت «ليـلى» احداهمـا و التقطـت «حنـان» الأخـر، و عندمـا فتحـت الأولى صندوقهـا قالـت بنـبرة انتصـار: الحمـد لله، هـا قـد وجدنـا المـاء و الغــذاء.

فأردفــت الأخــرى بنفــس النــبرة: و حصلنــا أيضــا عــلى الــدواء، فلــدي هنـا حقيبـة اسـعافات أوليـة بهـا بعـض المضـادات الحيويـة و المســكنات و المطهــرات و الضــمادات و غيرهــا.

«ماهر» بفرح و دهشة: رائع.

«ليـلى»: ألم تكـن معهـم في السـيارة؟ ألم تـر هذيـن الصندوقـين مـن قبل ؟

«ماهر»: بلى كنت معهم لكني لم أتفقد مكان الأمتعة.

«حنـان»: إذا كان هــذان الصندوقـان لماجـد، فلـمَ لم يحضرهمـا معـه حـين بدأنـا رحلـة السـير؟

«ليـلى»: ربـما نـسي، و ربـما أخـذ زملاؤنـا مـا فيـه الكفايـة و لم تكـن هنـاك حاجـة لهذيـن الصندوقين.

«حنــان»: نعــم. اذكــر أننــي قبــل مغــادرة الكهــف لمحــت حقيبــة اســعافات أوليــة مشــابهة وســط الأمتعــة التــي قمنــا بنقلهــا.

أخـذ «ماهـر» يسـتعيد بذاكرتـه لحظـات تعاونـه مـع زملائـه في نقـل الأمتعـة مـن السـيارة، ثـم قـال: أحسـب أن هذيـن الصندوقـين لم يكونـا في السـيارة مـن قبـل.

«ليلى»: و ماذا يعني هذا؟

«حنـان» بنـبرة شـك: يعنـي أن هنـاك مـن وضعهـما في السـيارة أثنـاء نومنـا.

«ماهر»: أجل. هذا ما أظنه.

«ليـلى»: إن كان ظنكـما في محلـه فلـن يكـون هـذا الشـخص سـوى «لبيـب» أو «هانـئ».

«حنـان»: و هـذا معنـاه أنهـما متورطـان فيـما نحـن فيـه، و أن لديهـما خطـة مـا، و لذلـك لا يريـدان مواجهتنـا حتـى لا تفسـد تلـك الخطـة.

التقـط «ماهـر» صنـدوق الإسـعافات الأوليـة و تنـاول قرصـين من المسـكن أتبعهـما بالمضـاد الحيـوي ثـم بـدأ يطهـر جـروح قدمـه و سـاقه و يضـع عليهـا الضـمادات و يربطهـا بإحـكام ليمنـع التلـوث و يخفـف مـن الألم، ثـم قـال: لا بـد أن نجدهمـا و نواجههـما حتـى نجبرهمـا عـلى إخراجنـا و أصدقائنـا مـن تلـك الورطـة.

«ليـلى»: كيـف سـيمكنهما تحريـك تلـك الصخـرة؟ مـاذا لديهـما مـن الآلات لإنجـاز مثـل هـذه المهمـة؟

«حنان»: ماذا تقصدين؟

«ليـلى»: أقصـد أن اتهامهـما بتدبـير تلـك الكارثـة مسـتبعد و لا دليـل عليـه.

«ماهـر»: فلـمَ غـادرا الكهـف الواحـد تلـو الآخـر قبـل وقـوع الصخـرة؟ و أيـن اختفـت سـيارتهما؟ و لمَ تسـللا إلى سـيارتنا و لم يوقظانـا؟

«ليـلى»: إن كانـا يدبـران شراً فلـمَ يقدمـان لنـا المسـاعدة و نحـن نيـام؟

«حنـان»: الأمـر محـير بالفعـل، و عـلى كل حـال إن كانـا همـا الجانيـان فلـن نسـتطيع أن نجبرهمـا بسـهولة عـلى تحريـر أصدقائنـا فضـلاً عـن أن نجدهمـا أصـلاً.

«ماهر»: و العمل؟

«ليـلى»: أن نجتهـد في نجـدة أصدقائنـا أولى مـن الاجتهـاد في البحـث عنهـما.

«حنان»: كيف؟

«ماهـر»: سنسـلك كافـة الطـرق الممكنـة، سـنحاول تشـغيل سـيارة «ماجـد»، و سـنحاول الوصـول إلى منفـذ أخـر للكهـف، و سـنحاول اقتفـاء أثـار سـيارة «لبيـب»، و سـنحاول العثـور عـلى النجـدة مـن أقـرب بلـدة إلينـا.

*** ***

جلـس «عاصـم» عـلى البسـاط و أسـند ظهـره و رأسـه إلى جـدار الكهـف و أخـذ يفكـر في مـاذا لـو؟ و مـاذا بعـد؟ مـاذا لـو لم تصـل النجـدة بعـد سـاعات؟ و مـاذا بعـد أن ينفـد مـا لديهـم مـن المشروبـات؟ و أدرك أنهـم اليـوم يكافحـون مـن أجـل الحريـة لكـن

غـداً سـيكون كفاحهـم فقـط مـن أجـل البقـاء عـلى قيـد الحيـاة، و تسـاءل بينـه و بـين نفسـه: أيهـما أثمـن الحريـة أم الحيـاة؟ طالمـا أن البـشر يضحـون بحيواتهـم مـن أجـل حرياتهـم فالحريـة أثمـن مـن الحيـاة، لكـن التاريـخ في مجملـه يكـذب هـذه الفرضيـة لأن عـدد مـن ماتـوا تحـت نـير العبوديـة يفـوق بكثـير عـدد مـن قتلـوا مـن أجـل الحريـة، و بالتـالي سـيظل «سـبارتكوس» اسـتثناءً و ليـس أصـلاً، ربـما لم تسـنح الفرصـة لأغلبيـة العبيـد أن يقاتلـوا لينالـوا حرياتهـم، ربـما كانـوا ينتظـرون اللحظـة المناسـبة ثـم انقضـت أعمارهـم قبـل أن تـأتيَ تلـك اللحظـة، ربـما كان صبرهـم عـلى العبوديـة سـنيناً بسـبب أملهـم في الحريـة يومـاً، و ربـما كان تحملهـم بسـبب عجزهـم، لكـن إن فرضنـا عجزهـم عـن القتـال فهـل كانـوا عاجزيـن أيضـاً عـن المـوت؟ لمـاذا قبلـوا بالحيـاة في الأسر؟ لمـاذا لم يقضـوا عـلى أنفسـهم بأنفسـهم؟ لماذا لم ينتحـروا؟ يبـدو أن الانتحـار أصعـب مـن القتـال، و أن يقتـل الإنسـان نفسـه أشـق مـن أن يقتـل غـيره، فقـد يقتـل الإنسـان غـيره حسـداً أو طمعـاً أو كراهيـةً أو قصاصـاً أو لغيرهـا مـن الدوافـع التـي كثـيراً مـا يجدهـا تجـاه غـيره و قلـما يجدهـا تجـاه نفسـه، بـل حتـى إن كـره حياتـه و اشـتد ألمـه و كربـه لا يقـدم عـلى هـذه الخطـوة إلا أصابـه القنـوط مـن غـده، ليـس القريـب فحسـب بـل البعيـد أيضـا، إذن فالحيـاة أقـوى مـن الألم و مـن الأسر و لكنهـا أضعـف مـن اليـأس.

إيـاك أن تيـأس يـا «عاصـم»، فإنـك إن آيسـت فقـدت حياتـك و حريتـك و بالتـالي يومـك و غـدك ، هـذا مـا دار بذهنـه حينـما التقـت رأسـه بالصخـر عـلى جـدار الكهـف.

*** ***

في زاويـة أخـرى مـن زوايـا الكهـف جلـس «عـادل» القرفصـاء بجـوار الصنـدوق الـذي يحتـوي مـادة الحيـاة بالنسبة لهـم، كان يفكـر في المهمـة التـي أسـندت إليـه، لقـد أصبـح «خـازن الكهـف» و عليـه أن يبقـي عـلى محتـوى هـذا الصنـدوق لأطـول فـترة ممكنـة، فتـح الصنـدوق و أخـذ ينظـر إلى محتـواه و يقسـم في ذهنـه الكميـات عـلى الأفـراد و السـاعات و يتوقـع مـا يمكـن أن يواجـه مـن المشـكلات، هـذا المحتـوى الـذي يعـدل اليـوم دراهـم معـدودة سـيعدل غـداً مُلـك «هـارون الرشـيد»، مـا أعجـب تصاريـف الأقـدار و مـا يـأتي بـه الليـل و مـا يذهـب بـه النهـار، فـإذا كانـت قيمـة شربـة المـاء يمكـن أن تتفـاوت هـذا التفـاوت الشاسـع بـين اليـوم و الغـد، فهـل قيمـة نسـمة الحريـة ثابتـة؟

محـال في كل الأحـوال! محـال أن تسـتوي حريـة الأخـذ مـع حريـة العطـاء، محـال أن تسـتوي حريـة الهـدم مـع حريـة البنـاء، محـال أن تسـتوي حريـة القبـح مـع حريـة الجـمال، محـال أن تسـتوي حريـة الظلـمات مـع حريـة الأنـوار، محـال أن تسـتوي حريـة الأبـدان مـع حريـة الأرواح، و لكـن رغـم كل مـا سـبق تسـتوي حريـة الكفـر مـع حريـة الإيـمان!

مـا قيمـة حريتـك في الـكلام إن كان مـن تحدثـه أصـم؟ مـا قيمـة حريتـك في السـماع إن كانـت مـن تشـدو لـك قـد وقعـت أسـيرة الهـم؟ مـا قيمـة حريتـك في الحركـة إن كانـت حبيبتـك تئـن في القيـد؟ و عـلى الصعيـد المقابـل، كـم تعـدل حريتـك في نهـار تزيـل فيـه السـد؟ كـم تعـدل حريتـك في مسـاء تبنـي فيـه المجـد؟ كـم تعـدل حريتـك في ليـل تصنـع فيـه الغـد؟

لا شـك أن هنـاك أوقـات تصبـح فيهـا الحريـة كالمـاء و الهـواء، و هنـاك أوقـات تصير فيهـا الحريـة و عدمهـا سـواء، و السـؤال يـا «عـادل» بينـما نحـن في سـجن الكهـف: في أي الأوقـات نحـن الآن؟ هـب أننـا لا نواجـه مشـكلة في المـاء و الغـذاء، مـا القيمـة الحقيقيـة لتحررنـا مـن أسر الكهـف؟ هـل إذا بقينـا فيـه حتـى ينقطـع الرجـاء، سـتفتقدنا الأرض أو سـتبكي علينـا السـماء؟

إيـاك يـا «عـادل» إن قـدر لـك النجـاة، و اسـتعدت حريتـك المفقـودة، أن تجعـل قيمتهـا بعـد عودتهـا كـما كانـت قبـل فقدهـا، هـذا مـا وجـده في خلـده أثنـاء جلسـته القرفصـاء.

*** ***

جلـس «ماجـد» محتبيـاً قـرب مدخـل الكهـف كأنـما يريـد أن يكون أول مـن يـرى الصخـرة إذا تزحزحـت بقـوة مـن الأرض أو بمعجـزة مـن السـماء، ثـم لم يلبـث أن عقـد سـاعديه فـوق ركبتيـه و أسـند جبهتـه إليهـما و أخـذ يعيـد ترتيـب مفـردات الموقـف في عقلـه ليسـتعد لمواجهـة المعركـة القادمـة، و بعدمـا أطـال النظـر في العاقبـة و المـآل و قلـب الاحتـمالات ذات اليمـين و ذات الشـمال، رسـخ في قناعتـه أن المعركـة القادمـة ليسـت النضـال في سـبيل الحريـة و ليسـت الكفـاح مـن أجـل البقـاء و إنـما الجهـاد للحفـاظ عـلى الإنسـانية، عندمـا تشـتد الحاجـة و يصلـوا إلى درجـة الاضطـرار سـتختل العقـول و تضطـرب الأخـلاق و يـزول الـبرزخ بـين الإنسـان و الحيـوان، و عندهـا سـيصبح هـذا الكهـف هـو الدنيـا و مـا فيهـا، و سـتصبح الحريـة داخلـه مطلقـة خاصـة مـع فقـدان الأمـل في النجـاة و فقـدان الخـوف مـن الحسـاب، عندهـا يمكـن للواحـد منـا أن ينهـب قـوت صديقـه

و يسفك دم أخاه و يغتصب عرض زميلته، بدون الاستمساك بالإنسانية سيصبح الكفاح من أجل البقاء محكوماً بشريعة الغاب حيث البقاء للأقوى، و سيصير النضال من أجل الحرية في جوهره استعباداً للآخرين ليس إلا، لكن إذا كان الحفاظ على الإنسانية يتطلب ضمانات من الأحكام المنطقية و القيم الأخلاقية و الجوع يذهل العقول و القنوط يغتال الأخلاق، فأين المفر؟ و كيف السبيل؟ و متى النجاة؟

لابد من ضمانات أخرى تساعدنا على الاستمرار داخل الدائرة الإنسانية و تمنع تسلط الغرائز الحيوانية على سلوكنا حين تشح مقومات الحياة، فنحن لا نريد في معركتنا القادمة الحرية الممزوجة بالدماء، و لا نبتغي مجرد البقاء أحياء و إنما أن نحيا أسوياء، فما هي تلك الضمانات؟ ربما هي الإرادة، ربما هو الإيمان!

إياك يا «ماجد» أن تنكسر إرادتك أو أن يلتوي إيمانك، و إن أدمت القيود التي تكبل حريتك الآن بنيتك فإياك إياك أن تجعلها تُدمي آدميتك، هذا ما جاس في نفسه بعدما طرق على ساعديه برأسه.

*** ***

استلقى «عاطف» على ظهره في ركن من أركان الكهف فوق البساط المفروش، عاقداً كفيه تحت رأسه ناظراً إلى السقف الصخري، يفكر كيف انتقل حلم الحرية بين الأمس و اليوم من مرتبة الحاجات إلى مرتبة الضرورات، فما كان بالأمس حاجة من الحاجات الإنسانية أصبح اليوم ضرورة حياتية، كان بالأمس يظن أن الحياة ممتدة أمامه أعواما طويلة ليحقق فيها حلمه بالحرية

حتـى ينتقـل إلى الحيـاة الأخـرى و قـد اسـتعاد لحظـة الـبراءة الأصليـة لحظـة الميـلاد، و اليـوم يـدرك أنـه إن لم يحقـق حلمـه خـلال أيـام قليلـة ضاعـت فرصتـه و فقـد عمـره، حينئـذ شـعر بشـعور الطالـب الـذي اسـتغرق في حـل السـؤال الأول مـن الامتحـان و لم يفـق من اسـتغراقه إلا عـلى صـوت المراقـب و هـو يعلـن أنـه لم يبـق مـن الوقـت سـوى خمـس دقائـق و يتـم سـحب الأوراق، مزيـج مـن الحـسرة و الحـيرة و اليـأس و الفـزع و الاضطـراب و الغضـب، و عندئـذ تـتراوح ردود أفعـال الطـلاب مـن تمزيـق ورقـة الإجابـة، إلى الانهيـار و البـكاء، إلى اسـتجداء المراقـب، إلى تـرك القلـم و دفـن الوجـه في الكفـين، إلى الخـروج مـن اللجنـة، إلى مـا شـابه ذلـك أو قاربـه، أمـا هـو فلـن يقـدم عـلى شيء ممـا سـبق، و إن كان امتحانـه قـد أوشـك عـلى الانتهـاء، و حياتـه قـد أوشـكت عـلى الفنـاء، فليكـن ذلـك بـشرف، كل مـا سـيفعله أنـه سيقسـم مـا تبقـى مـن الدقائـق عـلى مـا تبقـى مـن الأسـئلة، و سـيكتب في كل إجابـة جملـة واحـدة يفهـم منهـا المصحـح أنـه يـدرك مغـزى السـؤال و لديـه مفاتيـح الإجابـة و لكـن الزمـن لم يسـعفه، ثـم إذا جـاء المراقـب لسـحب الأوراق فلـن ينازعـه و لـن يسـتجديه و إنـما سيسـلم ورقتـه شريفـاً عزيـزاً.

إيـاك يـا «عاطـف» أن تفقـد شرفـك أمـام نفسـك، و إيـاك أن تفقـد عطفـك عـلى مـن حولـك، و امـض حـين تمـضي واقفـاً عـلى قدمـك رافعـاً رأسـك لا مكبـاً عـلى وجهـك، هـذا مـا تحـرك في وجدانـه و هـو شـاخص ببـصره مسـتلقياً عـلى ظهـره.

*** ***

لم تتمكن «سارة» من الجلوس لشدة توترها، فظلت تسير في الكهف على غير هدى، تخطو خطوات إلى الأمام ثم تعود أدراجها، تنعطف يمنة أحيانا و تنحرف يسرة أحيانا أخرى، لم تكن تبحث عن «ماذا» و إنما عن «لماذا»، لم يكن يشغلها التفكير في ماذا لو؟ و ماذا بعد؟ بقدر ما كان يؤرقها لماذا كان ما كان، و لماذا يكون ما يكون؟ لماذا يعطي بعض البشر أنفسهم الحق في تقرير مصير غيرهم؟ أخبرتك بالأمس يا «حورية» إنها القوة ليس إلا، و لكنكِ لم تُصدقي، و اليوم وجد أحدهم لديه القدرة على حبسنا فحبسنا،.. لماذا..؟ لماذا..؟ ربما ليهلكنا، ربما ليراقبنا، ربما لينتقم منا لشيء لا نعلم عنه شيئا، أو لأي سبب أحمق تفتق عنه ذهن هذا الأخرق.

أعلم ما ستقولين يا «حورية»، ستقولين: ليس للبشر أن يقرروا مصير البشر، إنما هو القدر. لكن «لماذا» لا يكفيها هذا، فما زلت أراها قائمة شاخصة، ناظرة حاضرة، تعيد السؤال و تنتظر الجواب، لماذا لا بد من وجود قوة ما أو جهة ما تتحكم في مصائر البشر؟ لماذا لا نقرر مصائرنا بأنفسنا و نأخذ أزمتها بأيدينا؟

أهل الدول المتقدمة يزعمون أنهم يفعلون، و يدعون أنهم في مصيرهم و مصير غيرهم يتحكمون، و أنهم على أرضهم قادرون، لكن هل هم صادقون؟ بالأمس كنت على اليقين من ذلك، فكل الشواهد تخبر أنهم يفعلون ما يقولون، و ينفذون ما يخططون، و يُقسمون و لا يستثنون و مع ذلك ينجحون و ينجزون، لكن اليوم و بعدما قرأت ما قرأت مما كتب جدك يا «حورية»

أدركـت أن هنـاك مـن يلعـب في حيواتنـا أدواراً لا يمكـن تجاهلهـا أو إنكارهـا، و لا يسـتقيم أن ندعـي أننـا أصحابهـا، فصالحـتُ الشـك و خاصمـتُ اليقـين.

لكـن الشـك مرير، و النفـس تميـل، تميـل إلى اليقـين و إن كان كاذبـاً و تفضلـه عـلى الشـك و إن كان صادقـاً، لأن الأول يدفعهـا أن تسـتريح و تسـتكين و الثـاني يحثهـا أن تكمـل البحـث و المسـير، و الأول يبـشر بالاسـتقرار و الثـاني ينـذر بالانفطـار، و لذلـك أريـد العـودة لليقـين، أريـد أن أعـرف أيهـما السـبب و أيهـما النتيجـة؟ هـل أقدارنـا نتيجـة أفعالنـا أم أفعالنـا ناتجـة عـن أقدارنـا؟

و الآن في موقفنـا هـذا العصيـب أجـد الفرصـة سـانحة للتجريـب، سـأقرر ثـم أنظـر، سـأقرر الخـروج مـن المـأزق و التحـرر مـن الأسر و سأسـير نحـو هـذا المصـير، ثـم سـأنظر هـل سيسـتجيب القـدر أم سـيأبى الليـل أن ينجـلي و يأبـى القيـد أن ينكـسر؟

هـذا مـا صـال و جـال في سرهـا و هـي تـتردد ذهابـاً و إيابـاً في أسرهـا.

*** ***

انتهـت «جميلـة» مـن نوبتهـا في عـد الأنفـاس، فتنفسـت الصعـداء، و شـعرت بعظـم الفـارق بـين مـن يتنفـس ليحيـا و مـن يتنفـس ليحسـب الوقـت الـذي مـضى مـن عمـره، و بـين مـن يتنفـس تكلفـاً و مـن يتنفـس سـجية، و أحسـت بخطـورة عـد الأنفـاس و النظـرات و الخطـرات و السـكنات و الحـركات ثـم المحاسـبة عـلى كل مـا فـات، و تذوقـت نعمـة حريـة التنفـس، نعمـة أن تتنفـس و لا تـدرك أنهـا

تتنفس، جميل أن تفعل الصواب و تأتي الخيرات و لا تدرك أنك فعلت هذا و لا أتيت تلك، فأسرعت جذلة إلى صديقتها «سارة» لتسلمها نوبتها التي تحررت منها منذ لحظات، ثم جلست تستمتع بالاسترخاء.

الجميل في شخصية «جميلة» أنها بسيطة، تفر من التركيب و تنفر من التعقيد، و لذلك لم تقف طويلاً أمام»ماذا» و «لماذا» و كيف حدث هذا؟ فقد كان المشهد أمامها واضحاً بسيطاً فلم تستغرق كثير وقت لتدرك أنه لا رجاء في الخروج من مأزق الكهف دون تدخل من السماء، هذه النتيجة يمكن الوصول إليها ببساطة سواء أكان هذا المأزق بفعل البشر أم بحكم القدر، صحيح أن هناك خمسة أشخاص خارج الكهف يعلمون علم اليقين أنها و من معها أضحوا سجناء داخله، لكن هؤلاء الأفراد إما متورطون في ضرهم و إما عاجزون عن نفعهم، لا شك عندها في ذلك، و هذا يؤكد رؤيتها بشدة حاجتهم إلى تدخل السماء عسى أن يرعوى المتورطون و يقدر العاجزون و يتحرر المأسورون.

هذا ما تردد في ضميرها فأدركت أن الأسئلة الفلسفية و التأملات المنطقية بل و حتى الأماني القلبية و الآمال النفسية لن تغني عنهم شيئا، كما أنها لن تجدي نفعاً مع موجة البلاء القادمة، هذه الموجة لن تبعدها السباحة و لن تصدها المقاومة، و ليس لها إلا الدعاء و التضرع، و عندما وصلت إلى هذه النقطة من التفكير اختصرت السبيل فتحولت من جلستها إلى جلسة التشهد و رفعت يديها إلى السماء و شرعت في التضرع و الدعاء.

*** ***

بين الفنية و الفنية كانت «حورية» تتأمل فيما يواجهها و فيمن يرافقها، و تمكنت من التعرف على بعض أحوالهم من مشاهدة صورهم و أعمالهم، فهذه ثائرة حائرة متوترة، و تلك ساكنة ضارعة مستسلمة، و هذا يتأمل تأملات منطقية و يجري في ذهنه مقابلات فلسفية، و ذاك يعزي نفسه و يصبرها و يشحذ قواه العاطفية، و الثالث مهموم بما حمل من المسئولية، و الأخير يحاول ألا يفقد القيم الأخلاقية و الإرادة الإنسانية.

عجيب أمرنا، فنحن في نفس المكان و ذات الزمان، أعمارنا متقاربة، دراستنا متماثلة، و نخوض الآن نفس الامتحان، و مع ذلك كل منا في شأن، و كل منا له حال.

نعم كل منا له حال، و هذه أحوال من حولكِ يا «حورية»، فما حالك أنتِ؟ هل الحرية حقيقة أم خيال؟ و هل نحن أحرار حقاً أم نتوهم أننا أحرار؟ هل دورنا في الحياة أن ننفذ ما نريد أم أن ننفذ ما أريد لنا؟ تذكرت بعض الأبيات، جمع الشاعر فيها بين المتناقضات، فقالت في نفسها: يبدو أننا نتردد بين هذا و ذاك، فصاحب الأبيات في أولها يدعو إلى الحرية و هجر الأرض و ترك الديار، و في آخرها يؤكد أنك إن استجبت فما ذاك إلا لأنه لا خيار، فكأنما يريد أن يقول: عليك أن تخطو خارج دائرة الذل و خطواتك هذه مكتوبة عليك، أي أن الإجبار إنما هو على الاختيار، فأنت مجبور على أن تختار، و الاختيار احتيار، فأنت مقهور على أن تحتار.

عجبت لمن يقيم بدار ذل .. وأرض الله واسعة فضاها

فذاك من الرجال قليل عقل .. بليد ليس يدرى ما طحاها

فنفسك فز بها إن خفت ضيما .. و خلِّ الدار تنعى من بناها
فإنك واجد أرضا بأرض .. ونفسك لا تجد نفسا سواهـــا
مشيناها خطى كتبت علينا .. ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض .. فليس يموت في أرض سواها
و أرزاق لنا متفرقات .. فمن لم تأته منا أتاها

إذا كانـت الحريـة حقيقـة فلـن تختلـف باختـلاف الزمـان و المـكان، و لـن تختلـف داخـل الكهـف عنهـا خارجـه، و لـن تتغـير ماهيتهـا بين الدنيـا و ، فمـن يعـش حـراً في الأولى يعـش مَلِـكاً في الثانيـة، و مـن يكـن في هـذه مقيـداً فهـو في الأخـرة الآخـرة أشـد تكبيـلاً.

كان هـذا مـا تعتقـده قبـل أن يحـل الكهـف عقائدهـا الموهومـة، و يسـلب حريتهـا المزعومـة، فكثـير مـن الدعـاوى التـي يدعيهـا البشر و المزاعـم التـي يزعمونهـا لا تصمد أمـام الكهـوف المظلمة المغلقـة، تلك الكهـوف مهمتهـا هـدم المعتقدات و سـحق الحريـات، و عـادة ما تنجح في مهمتهـا خاصـة مـع الذيـن يدخلونهـا عـلى غـير هـدى و يسـيرون فيهـا بـلا زاد ولا بصـيرة، أمـا مـع الذيـن يسـاقون إليهـا بيـد الرعايـة و عـين العناية فـلا تزداد عقيدتهـم إلا رسـوخاً و لا حريتهم إلا شـموخاً.

مـن أي الفريقـين أنـتِ يـا «حوريـة»؟ أحسـب أنـكِ مـن كليهـما، فللوهلـة الأولى تلاعبـت بـك الأمـواج في كهـف الظلـمات، حتـى شـعرتِ أن مـا عقدتِـه ينحـل، و مـا جمعتِـه يتفـرق، و مـا شـيدته ينهـار، ثـم امتـدت إليـكِ يـد الرعايـة، و أضـاء لـك مصبـاحُ الهدايـة، فـإذا مـا انحـل قـد انعقـد بـإصرار، و مـا تفـرق قـد اجتمـع بإحـكام، و مـا انهـار قـد قـام و عـلا عـما كان، فعلمـتِ أن الرحلـة مـا زالـت في

البداية، و تذكرتِ الوصايا، و أدركتِ أنكِ لابد أن تركبي سفينة النجاة، و عليك أن تحطمي أصنامك و تلقي عصاك، و لكن متى؟ و كيف؟ هذان هما السؤالان.

*** ***

فتح «ماهر» مقدمة السيارة و أخذ ينظر إلى المحرك و الأسلاك بحيرة، و لم يكن لديه معرفة بميكانيكا السيارات البتة إلا أن العديد من أفلام الحركة التي شاهدها تؤكد أنه يمكن تشغيل السيارات بتوصيل سلكين ما في مكان ما بطريقة ما، حاول أن يجد هذين السلكين لكن هيهات، فالأمور في الحقيقية لا تجرى على هوى مخرجي الأفلام، حاول أن يعبث ببعض الأسلاك و هو يخبط خبط عشواء عسى أن تحدث المعجزة و يعزف المحرك أعذب الألحان لكن دون جدوى، فأغلق غطاء المحرك بعنف و هو يصيح: لا فائدة.

حاولت الفتاتان أيضا إدخال بعض أدوات تقليم الأظافر أو تثبيت الشعر مكان مفتاح السيارة لتدوير المحرك لكن بلا طائل، و بعد أن يئس ثلاثتهم ثلاثاً قالت ليلى: فلننتقل إلى الخطة باء.

«ماهر»: بل سننتقل إلى الخطتين باء و جيم في نفس الوقت.

«حنان»: ماذا تقصد؟

«ماهر»: ننقسم إلى فريقين، فتذهب إحداكن لتفقد موقع الكهف ربما في ضوء النهار يمكنها أن تكتشف منفذا أخراً له أو وسيلة تواصل مع أصدقائنا داخله أو نقطة ضعف في الصخرة الجبارة، أو على الأقل تجمع ما تناثر حوله من الطعام أو الأدوات

التي قد نحتاجها، ثم سكت برهة و أضاف: و لتبقى الأخرى معي لتساعدني في اقتفاء أثار سيارة الدكتور، فلن يمكنني القيام بهذه المهمة وحدي مع إصابة ساقي و قدمي.

«ليلى»: فكرة جيدة. سأذهب أنا لتفقد موقع الكهف و ما حوله.

«حنان»: لا بأس. و أنا سأرافق «ماهر».

افترق الفريقان، فانطلقت «ليلى» نحو الكهف، و بقي «ماهر» و «حنان» في موقع السيارتين يحاولان اقتفاء أثر المقطورة، كانت آثار السيارتين واضحة إلى حد ما و يمكن التمييز بينهما بسهولة فهناك فارق واضح في حجم و عدد الإطارات و نظراً لأن المنطقة مهجورة منذ فترة فلم توجد أثار أخرى تتداخل مع أثار سيارتي «ماجد» و «د. لبيب»، كما ساعدت الأمطار التي هطلت البارحة على تحويل الرمال إلى طين فأصبحت الأثار أكثر بروزاً، لكن واجهتهما مشكلتان: الأولى تحديد الاتجاه، فقد كانت هناك عدة اتجاهات لأثار الإطارات مما يوحي أنها تحركت في أكثر من اتجاه و أن قائدها كان يبحث عن موقع ما أو أنه انتقل بها أكثر من مرة في الليلة السابقة، و الثانية تحديد المسافة، فها هما يريان الآثار لكن لا يعلمان أين ستنتهي.

تغلبا على المشكلة الأولى بطول النظر و تصفية الاحتمالات إلى أقل ما يمكن ثم بالتجربة و الخطأ، و تغلبا على المشكلة الثانية بالصبر على السير و تحمل المشقة ثم بالأمل في قصر المسافة، و بعد ساعتين من المثابرة على ما سبق، وصلا في النهاية إلى طريق متدرجة الارتفاع تنتهي بهضبة عليها بعض الشجيرات

و في وسـطها يمكـن تمييـز المقطـورة بـشيء مـن الصعوبـة، فصاحـت «حنـان»: هـا قـد نجحنـا.

تنفـس «ماهـر» نفسـاً عميقـاً و أجابهـا و هـو يخـرج زفـيره: نعـم.. أخـيراً.

كانـت المسـافة التـي تفصلهـما عـن المقطـورة حـوالي المائتـي مـترٍ، و كان الجهـد قـد بلـغ منهـما كل مبلـغ، لكـن رؤيـة المطلـوب و تحقـق الأمـل، بعثـا العزيمـة في روحيهـما، و جـددا القـوة في جسـديهما، فانطلقـا بأقـصى سرعـة تسـمح بهـا إصابـة «ماهـر»، حتـى لم يبـق سـوى مائـة مـن الأمتـار عـلى بلـوغ المـرام، اشـتعلت الحماسـة في صـدر الفتـاة فأنسـتها الحيطـة و الحـذر و نـادت بأعـلى صوتهـا: يـا دكتـور «لبيـب».. يـا دكتـور «هانـئ» أدركانـا.

بقـدر مـا اشـتعلت الحماسـة في صـدر الفتـاة بقـدر مـا اشـتعل الغضـب في فـؤاد الفتـى، كانـت «حنـان» تسـبقه بعـدة خطـوات نظـراً لحماسـتها و إصابتـه لكنـه تحامـل عـلى نفسـه و قفـز عـلى سـاقه السـليمة قفـزة طـوى بهـا المسـافة بينـه و بـين رفيقتـه، و في اللحظـة التاليـة كان يجذبهـا مـن يدهـا بيـد و يغلـق فمهـا بالأخـرى و هـو يقـول بصـوت منخفـض لكـن ممتلـئ بمزيـج مـن الغيـظ و الحـسرة: أتريديـن أن يهربـا نزلـة أخـرى!

في اللحظـة التـي وصلـت فيهـا صيحـة «حنـان» إلى المقطـورة كان «لبيـب» يراقـب مـا يـدور في الكهـف و بالقـرب منـه «هانـئ» مقيـد في مقعـده، اسـتطاع الثـاني أن يميـز الصيحـة و انتعـش أملـه في النجاة، لكنـه أدرك أن صاحبـه يمكنـه أن يقـضي عـلى هـذا الأمـل في دقائـق، فاصطنـع العطـاس عـلى الفـور ليغطـي عـلى صيحـة الفتـاة مـن ناحيـة

و ليشتت رفيقه من ناحية أخرى، ثم صاح بعدها مباشرة: ألم يأن لك أن توقف هذا العبث؟ ألا تشعر بخطورة الموقف و ما يعانيه الشباب؟

كان انشغال «لبيب» بمتابعة ما تنقله الكاميرا من داخل الكهف مانعاً له من تمييز الصيحة بوضوح، لكنه مع ذلك سمع جلبة ما، و شعر أن شيئا ما يجري، فنظر إلى «هانئ» و تجاهل التعليق على كلامه و قال: ما هذا الصوت؟

«هانئ»: لا يوجد هنا من يصدر الأصوات سواي، و قد عطست آنفاً.

نظر «لبيب» إليه بعينين تملؤهما الريبة و قال: هناك صوت ما خارج المقطورة.

«هانئ»: ربما أحدى الغزلان أو أحد الأرانب.

لم يعره «لبيب» اهتماما و قام مباشرة و أزاح الستائر لينظر من شباك المقطورة في الاتجاه الذي جاء منه الصوت مستخدماً النظارات المكبرة، و في تلك اللحظة كان «ماهر» يشير لرفيقته أن تخفض رأسها و تنبطح أرضاً مثله، فمرت عينا «لبيب» فوقهما و لم ترهما لأنهما كانا قد خرجا من مجال رؤيته، و رغم أنه لم يلحظ شيئاً إلا أنه لم يطمئن، فقام متجهاً نحو باب المقطورة و هو يقول: الاحتياط واجب، لا بد أن ننتقل إلى موقع آخر.

أدرك «هانئ» أن الفرصة في طريقها إلى الفوات، و قرر أن يمنعه بأي وسيلة، فمد رجليه المقيدتين فجأة ليحول بينه و بين الوصول للباب، و لأن الحركة كانت سريعة و مباغتة فقد

فَقَدَ «لبيب» توازنه و انكفأ على وجهه أمام «هانئ» الذي لم يرد أن يفقد زمام المبادرة فحاول أن يعالجه بركلة أخرى من قدميه المقيدتين، لكن «لبيب» تدحرج بسرعة ليتفادى تلك الركلة و نهض قائماً و هو ينظر بحنق إلى مهاجمه ثم صفعه قائلاً: لا تجعل الأمور تزداد سوءاً.

و في اللحظة التالية غادر المقطورة و قفز إلى غرفة القيادة و انطلق سريعاً ليبحث عن موقع بديل للمرة الثالثة.

سمع «ماهر» و «حنان» صوت السيارة و هي تنطلق فرفعا رأسيهما، و بينما هي تبتعد ضرب «ماهر» الأرض بقبضتيه و هو يصيح: لا. ليس ثانية. في حين أطرقت «حنان» برأسها خجلاً و هي تنظر إلى الأرض في أسى.

*** ***

انقضت الليلة الأولى في الكهف و مرت الساعات الأولى من نهار اليوم التالي، و قام «عادل» بتوزيع الوجبة المقررة على أصحابه، و استمرت مناوبات حساب الزمان بعد الأنفاس في المكان، كان الدور قد وصل إلى «حورية» فاعتزلت في زاوية من زوايا الكهف لتقوم بمهمتها، بينما تحلق البقية لتناول غذائهم و مناقشة شئونهم.

تجرع «ماجد» جرعة من الماء ثم قال: أحسب أنه قد غدا واضحاً أن النجدة لن تأتِي من الخارج.

«عاطف»: إن كان قد تأكد لديك تورط «لبيب» و «هانئ»، فالمؤكد لدينا جميعاً أن «ماهر» و «ليلى» و «حنان» ليسوا متورطين، و لن يدخروا وسعاً لعوننا، و لا يزال الأمل معقود عليهم.

«عـادل»: لـو صحـت نظريـة الجنـون العلمـي التـي اقترحهـا «عاصـم»، فالأمـل كبـير لأن الأمـر في هـذه الحالـة لـن يعـدو كونـه تجربـة مـن بدأهـا سينهيها بعدمـا يحقـق غرضـه ثـم يطلـق سراحنـا، فـما علينـا سـوى الانتظـار.

«عاصـم»: لا يمكننـا الاطمئنـان إلى هـذا الاحتـمال، فهـي تجربـة مـن ناحيـة و مـن ناحيـة أخـرى جريمـة تضعـه تحـت طائلـة القانـون، و فرصتـه في الافـلات تزيـد إذا اختفـى هـو مـن عـلى ظهـر الأرض و اختفينـا نحـن في بطنهـا.

«عاطـف»: هـذا التصـور يقتـضي أن يكـون الدكتـور «لبيـب» عـلى اسـتعداد لقتـل تلاميـذه و التضحيـة بمكانتـه العلميـة و مسـتقبله الأكاديمـي في سـبيل تجربـة أو دراسـة مـا، و هـذا احتـمال أقـرب إلى المحـال، لمـاذا نلجـأ إلى أعقـد التصـورات و أبعـد الاحتـمالات؟ هنـاك العديـد مـن الاحتـمالات الأكثـر واقعيـة، فإزاحـة تلك الصخـرة يحتاج رافعـة عملاقـة أو حفـار غايـة في الكفـاءة، و كلاهمـا لـن يتوفـرا قطعـاً إلا في العاصمـة أو المـدن الكبـيرة، و أقربهـا منـا عـلى مسـافة شاسـعة، ربـما الأسـتاذان و الأصدقـاء لا يزالـون في الطريـق، ربـما واجهتهـم بعـض العوائـق، ألـف ربـما و ربـما.

«سـارة»: مهـما يكـن مـن أمـر الخـارج، فلـن يمكننـا التيقـن منـه أو التحكـم فيـه، فعلينـا أن نوجـه أفكارنـا و جهودنـا إلى الداخـل، و لنجعـل نقطـة البدايـة مـن داخـل الكهـف لا مـن خارجـه.

«جميلـة»: دعكـم مـن الانشـغال بالخـارج أو الركـون إلى الداخـل، انفضـوا أيديكـم مـن الأرض و وجهـوا قلوبكـم إلى السـماء.

«سارة»: ها قد بدأنا نعيد تاريخ أسلافنا، هكذا البشر كلما شعروا بالعجز أحالوا الأمر إلى ما وراء الطبيعة، كما فعل أجدادنا في بغداد عندما اقتربت جحافل التتار من عاصمتهم، فشرعوا في قراءة صحيح البخاري ظناً منهم أنها عاصمتهم. ثم أضافت: كان الأولى بهم سل الصفائح لا فتح المصاحف.

«عاصم»: رائعة كعادتك في الخلط و التلبيس، يا عزيزتي: كل ميسر لما خلق له، و كل فئة لها دورها، سل السيوف و الحمل على الأعداء وظيفة الأمراء و الجنود و المتطوعين الأقوياء، أما الضعفاء الذين لا يملكون حيلة و لا يجدون سبيلاً فماذا تريدين منهم أفضل من التضرع و الدعاء. و إن كان السوس قد نخر في بلاط الدولة العباسية و تكالبت عليها عوامل الهدم من الداخل و الخارج، و لم يقم الوزراء و الأمراء بدورهم، فليس هذا مبرراً للاستخفاف بمن قام بدوره، و إن لم يكن هذا الدور كافياً وحده في وقف الانهيار و منع السقوط.

«ماجد»: و على كل حال فقد وعى أجدادنا درس بغداد في عين جالوت، و جمعوا بين الحسنيين، فكان العلماء يدورون على الجنود في جبهات القتال يعلمونهم سورتي التوبة و الأنفال.

«سارة» في ضجر: يعني ما المطلوب الآن؟

«جميلة»: اقترح أن نتوسل إلى الله بصالح الأعمال كما فعل أصحاب الغار.

«عادل»: أوَ تظنين أن ذلك ينجح؟

«عاطف»: و لما لا؟

«عاصم»: و ما المانع من التجربة؟

«ماجد»: ليس لنا أن نختبر السماء، إما أن نقدم على هذا الأمر و نحن موقنون بصوابه و إما أن نحجم فلا نخوض فيما لا نحسن.

«عاطف»: الدعاء ليس اختبارا للسماء، إنما هو توجه و رجاء.

«عادل»: لا أظن أن الأمور تسير على هذا النحو، و لا أعتقد أن ما حدث مع أصحاب الغار بالأمس يتكرر معنا اليوم، فلسنا في زمان المعجزات.

«عاصم»: نحن لا نبحث عن المعجزات الخارقة بل عن السنن الجارية، التي إن توافرت أسبابها لم تتخلف نتائجها.

«ماجد»: هذا هو بيت القصيد، كيف لنا أن نقرر أن حالنا كحالهم و أن ما لدينا من الأسباب هو عين ما كان لديهم، بل أظن أنهم لم يكن لديهم من الأسباب شيئاً.

«عاطف»: و ماذا لدينا نحن منها؟

«عادل»: صدقت.

«ماجد»: بل لدينا بعضها داخل الكهف – و أشار إلى صندوق الأغذية– و بعضها خارجه – و أشار يقصد أصدقاءهم– لكن في النهاية نحن بحاجة ماسة إلى السماء و من أسباب الوصول إليها الدعاء.

«سارة»: و هل لديكم أيضاً الأعمال الصالحة التي ستتوسلون بها؟

عبست الوجوه، و أطرقت الرؤوس، و خيم الوجوم على الحضور، ثم همس «عاطف» قائلاً: أما تلك فلا.

«جميلة»: لعلكم تفكرون في عظائم الأمور و معالي الدرجات، يا إخواني الله كريم، و الكريم يقبل الكبير و الصغير، و يكافئ على العظيم و الحقير، فلا تحقرن من المعروف شيئاً.

«سارة»: أنا لن أشترك في هذه اللعبة.

«جميلة»: أنت و شأنكِ.

«عاطف» بشيء من السخرية: كما ترين يا عزيزتي، نحن هنا نتمتع بأعلى قدر من الحرية، فالحرية في الكهف مطلقة، فلن يرغمك أحد على المشاركة.

نظرت «سارة» إليهما و لم تعقب، فساد الصمت من جديد و استمر و امتد حتى قطعه «عاصم» بقوله: لقد مررت على ما مر بي من السنين فما وجدت حتى هذا الشيء الصغير اليسير من المعروف و العمل الصالح، إلا إنني كنت في زيارة لقريب لي في المستشفى التعليمي الشهير في مدينتنا، فتفاجأت و أنا في طريقي للمغادرة بسيدة عجوز ملقاة بجوار الدرج المؤدي للمستشفى، فأسرعت إليها و أنا أشحذ عضلاتي و أستنفرها لحملها، فلما رفعتها من الأرض هالني خفة وزنها حتى ظننت أنني إنما أحمل شبحاً أو خيالاً، نظرت إلى وجهها نظرة خاطفة فوجدته نحيلاً ذابلاً و كانت لا تستطيع الكلام لكنني قرأت في عينيها نظرة امتنان، فهرعت بها إلى داخل المستشفى لأستغيث بأطبائها، لكن ما أن تقدمت خطوات قليلة حتى لقيت قريباً لها آتياً من داخل

المشفى يسوق أمامه كرسياً متحركاً، ففهمت أنه تركها عند الدرج ليحضر ما ينقلها عليه، فلما أبصرني أحملها بين ذراعي تهلل وجه و أقبل علي يشكرني و يلتقطها من بين ذراعي ليضعها على الكرسي و يمضي، سلمتها له و اتبعتهما بصري و أنا أفكر هل انتهى دوري عند هذا الحد أم أن علي أن ألحق بهما، فلم وصلا إلى غرفة الكشف و أقبل الأطباء عليهما، غلب على ظني أنه لا حاجة في وجودي معهما، فانصرفت و أنا أشعر بنعمة الله علي أن أذن لي في حمل تلك العجوز النحيفة المريضة الطيبة للحظات قليلة.

التفتت الوجوه إلى مدخل الكهف، و تعلقت الأبصار بالصخرة، و انحبست الأنفاس لترى هل ستتزحزح قيد أنملة؟ هل سيرون شعاعاً من الضوء أو بصيصاً من الأمل؟ إلا أن شيئاً من هذين لم يحدث، و بقي الحال على ما كان.

رغم أن «سارة» كانت متأكدة أن شيئاً ما لم يحدث، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الالتفات لمدخل الكهف و النظر إلى الصخرة، مما جعلها تشك في يقينها للمرة الثانية، لكن لما مرت دقائق و لم يتغير من الواقع شيء عاد إليها يقينها، فاستجمعت عنادها و قالت: يبدو أن السماء لم تقبل قربانك يا «عاصم».

أعرض «عاصم» عن جوابها، فلم يكن يريد جدالها، فأناب عنه «ماجد» و أجاب: لا يمكن لأحد أن يدعي العلم بما قبلت السماء و بما لم تقبل إلا إذا كان على صلة بها، فهل جاءكِ الوحي منها؟

«سارة»: لا. لكن الكتاب يعرف من عنوانه.

«عــادل»: ليــس دائــماً، هنــاك مــا لا يعــرف و لا يــدرك إلا مــع النهايــة.

«جميلة»: إذن فلنكمل و لنأمل في الفرج.

تنحنــح «عاطــف» ثــم قــال: كنــا في أحــدى المــدن الســاحلية الصغــيرة التــي اعتدنــا الاصطيــاف فيهــا، و كنــت أتنــاول العشــاء في الشرفــة عندمــا ســمعنا صــوت بــكاء طفــل صغــير، و بعــد الصــوت بلحظــات رأينــا صبيــاً لا يتجــاوز الخمســة أعــوام يســير عــلى غــير هــدى و لــه نشــيج و شــهيق، ناديـنــاه فلــم يســتجب بــل حــاول أن يبتعــد، أغلــب الظــن أنــه أخــذه الخــوف منا رغــم حاجتــه إلينــا، أدركنا أنــه ضــل الطريــق و تــاه عــن أهلــه، فأرســلت أخــي الأصغــر في أثــره خشــية أن يصــاب بــأذى أو يقــع في يــد شريــر، لحــق بــه أخــي و هــدأ مــن روعــه و وعــده بالمســاعدة حتــى اطمــأن لــه و عــاد معــه، لحســن الحــظ كان الصبــي ذكيــاً و كان يحفــظ رقــم الشــارع الــذي يقطــن فيــه أهلــه، فوعدتــه أني ســأعيده إليهــم، فلــما هممــت بالقيــام، قالــت لي شــقيقتي: أكمــل عشــاءك أولاً ثــم انــزل معــه، لــن يســتغرق ذلــك دقائــق. وقــع منــي قولهــا موقعــاً حســناً فقــد كنــت جائعــاً، فعــدت إلى الجلــوس، لكــن نظــرة الحــسرة و العتــاب و اللهفــة عــلى الانطــلاق في عينــي الولــد أذهلتنــي عــن الطعــام و جعلتنــي انطلــق معــه مــن فوري، وصلنــا إلى الشــارع و بدأنــا في تفقــد المنــازل، و لم تمــض دقائــق حتــى لمحتــه الأم الملهوفــة مــن الشرفــة في الطابــق الأول و كانــت المنــازل مصممــة في تلــك المدينــة بحيــث أن الــدرج ينتهــي إلى الشرفــة مباشرة فدعتــه فــترك يــدي و انطلــق يصعــد إليهــا و وثبــت هــي تنــزل إليهــا فالتقيــا عــلى الــدرج فالتقطتــه و ضمتــه إلى صدرهــا و هــي تصعــد

بـه كـرة أخـرى، ثـم انتبهـت إلي فشـكرتني، فـأشرت للصبـي بيـدي مودعـاً، و رجعـت قريـر العـين بـما أنعـم الله عـلي وعليـه.

تكـرر مشـهد الالتفـات للمدخـل و التطلـع إلى الصخـرة بنفـس الكيفيـة و نفـس النتيجـة، ثـم عـاد السـكون إلى الحضـور حتـى بـدأ «ماجـد» في سرد قصتـه، فقـال: سـافر أبي للعمـل في إحـدى الـدول العربيـة، و التحقـت بإحـدى المـدراس الثانويـة فيهـا، و كان مـدرس الموسـيقى لـه العديـد مـن الأنشـطة الفنيـة و الثقافيـة خـارج المدرسـة فدعـا الطـلاب لحضـور حفـل في أحـد الأنديـة الثقافيـة سـيقوم فيـه بإنشـاد قصيـدة مشـهورة مـن قصائـد شـعر المدرسـة الرومانسـية قـام بتلحينهـا، فاتفقـت مـع زميلـين لي عـلى الذهـاب، و بعدمـا انتهـى الحفـل و في طريـق عودتنـا، طلـب منـا أحـد الزميلـين الانتظـار ريثـما يشـتري شـيئاً مـا، و اشـترط علينـا أن نحافـظ عـلى الـسر متـى اطلعنـا عليـه، ظننتـه يمـزح و لم أشـك في شيء، و لكـن بعـد دقائـق عـاد و معه زجاجـة جعـة، فاضطـرب زميـلي الآخـر و بـدا عليـه القلـق، فأخـذ الأول يسـخر منـه و مـن ضعفـه و جبنـه، تعجبـت مـن اطلاعـه لي عـلى سره و العلاقـة بيننـا لم تتوثـق بعـد و أنـا مجـرد زميـل جديـد مـن بلـد بعيـد، و مـع ذلـك لم يكـن في نيتـي هتـك سـتره و فضـح سره، و لكنـي شـعرت أن هـذا الفعـل يتحـدى مبادئـي، و أننـي إن بقيـت مكتـوف اليديـن فقـدت شـيئاً مـن احترامـي لنفسـي و مـن احترامـي للقيـم التـي أعتنقهـا، فلاطفتـه حتـى يسـمح لي برؤيتهـا عـن قـرب و أوهمتـه أننـي قـد أصنـع صنيعـه، فتحمـس لذلـك و ناولنيهـا، فأرقتهـا كاملـة و هـو ينظـر و لكـن لم يقـدم عـلى منعـي ربـما لأنـه لم يـرد أن يلفـت الأنظـار إلينـا و نحـن في الطريـق العـام، ثـم افترقنـا، و حـين انصرفـت لم أكـن أشـعر بالانتصـار عليـه بـل بالانتصـار عـلى نفسـي

لأنني لم أفرط في ما اعتنقت و لم أجبن عن المواجهة، فحمدت من أعانني على ذلك و وفقني إليه.

تكرر الالتفات إلى الصخرة و النظر، لكن بحماس أقل و أمل ضعيف، ثم أخذ الصمت يسود من جديد، حتى أخذ «عادل» دوره و شرع يحكي حكايته قائلاً: كنا في زيارة للمدينة المنورة، و ذهبت لصلاة الجمعة في الحرم النبوي الشريف، و كان المسجد مزدحماً كالعادة، و كلما مر الوقت زاد الازدحام، فلما أقيمت الصلاة و انتظمت الصفوف، لمحت رجلاً يسير بين الصفوف و هو يلتفت في جميع الاتجاهات باحثاً عن فرجة بين المصلين ليقف فيها و يؤدي الفريضة، لكن هيهات فلم يكن هناك موضع لقدم، و لم يحاول المصلون أن يفسحوا له مكاناً بينهم، نظرت معه أبحث له عن فرجة، فما وجدت غير صفوف لا نهاية لها من البشر، فأدركت أنه مهما مشى بين الصفوف فلن يجد موضعاً، و ستفوته الفريضة، و عند ركوع المصلين خلف الإمام لن يجد حتى موضعاً يقف فيه، عند هذه اللحظة من التفكير كان يمشي أمام الصف الذي أصلي فيه، و كان يبعد عني أمتاراً قليلة، فانتظرت حتى مر من أمامي فجذبته من ذراعه و أقمته في الصف بجانبي رغم الزحام، فشعر المصلون حوالينا بما نعانيه فأخذوا يفسحون لنا بقدر ما يسمح المكان، حتى تمكنا جميعاً من الصلاة، و كانت من أجمل الصلوات التي صليتها رغم ضغط الزحام، و شعرت بالراحة و الامتنان.

هذه المرة لم تلتفت الوجوه و لم تتطلع الأبصار، فقد أدركوا أن لو حدث ما يأملون فسيشعرون و يعرفون.

عندما أنهت «حورية» حصتها من عد الأنفاس نهض «عادل» ليحل محلها، و عادت هي لتلحق بالحلقة التي يجلس فيها رفاقها، فقصوا عليها ما فاتها، فقالت: إذن فقد أفرغ الزملاء ما في جعبتهم و بقينا نحن صاحبات نون النسوة، و «سارة» ممتنعة عن المشاركة، فادلي بدلوك يا «جميلة».

كانت «جميلة» هي صاحبة الاقتراح لكنها الآن تشعر بالفارق الكبير بين طرح الأفكار و تنفيذها، فاستغرقت برهة من الوقت لتستجمع شجاعتها بشيء من الجهد، و حسمت أمرها بعد شيء من التردد، ثم قالت: انهيت يوماً حافلاً من أيام الدراسة بالجامعة، و توجهت إلى موقف الحافلات للعودة إلى منزلي، و عندما صعدت إلى الحافلة وجدت مقعدين متجاورين خاليين، فتوجهت نحوهما و جلست على أحدهما سعيدة بأنني سأنعم بالهدوء و الراحة و الاسترخاء دون أن يكون بجانبي من يقتنص من مساحة حريتي أو يقترب من فناء خصوصيتي، على الأقل لبضع دقائق تفصلنا عن المحطة القادمة، و عندما مرت تلك الدقائق و أوشكت الحافلة على التوقف للمرة الثانية، نظرت من النافذة على من ينتظر الركوب، فلمحت فتاتين كانتا تتبادلان حواراً ماتعاً، استنتجت ذلك مما قرأته على وجهيهما من علامات المودة الممزوجة بالحماسة، و عندما صعدتا إلى الحافلة لم يكن هناك سوى مقعدين خاليين، أحدهما الذي بجانبي و الثاني بعد صفين من الصف الذي أجلس فيه، فتوقفتا عن الحوار و جلست إحداهما بجانبي بينما تقدمت صديقتها نحو المقعد الآخر، شعرت أن سعادتي منقوصة و أنني افتقد عطر الأنس و المودة الذي كان يفوح من حوارهما الذي رأيت جانباً منه لكن لم أسمع منه

شـيئاً، فتخليـت عـن مـكاني و أشرت للصديقـة لتجلـس بجانـب صديقتهـا، فكافأتنـي الأولى بابتسـامة تـشرق بالرضـا، و الثانيـة بنظـرة مفعمـة بالشـكر، و جلسـت مـكان الثانيـة أنعـم باجتـماع الشـمل و تواصـل الـود و عـودة الأنـس.

«سارة» بتعجب: أهذا كل شيء!

«جميلة» ببساطتها المعهودة: أجل.

«سـارة»: يعنـي أيـن المشـكلة؟ كانتـا سـتكملان الحـوار بعـد النـزول مـن الحافلـة، يعنـي مـا صنعـتِ شـيئاً، أنـتِ حتـى لم تقفـي ليجلـس غـيرك.

تدخلـت «حوريـة» قائلـة: دقائـق بـل لحظـات مـن الصداقـة الصادقـة و المـودة الخالصـة أراهـا ثمينـة غاليـة، و أذكـر ممـا قـرأت في تاريـخ أجدادنـا أن صديقـين في سـالف الزمـان فرقهـما المـوت، فغـادر أحدهمـا الحيـاة و عـاش الآخـر حينـاً مـن الدهـر، و في إحـدى المجالـس بعـد سنوات أخـذ ندمـاؤه يتمنـون مـا تشـتاق إليـه قلوبهـم و تطمـح إليـه نفوسـهم، فلـما جـاء دوره، قـال و هـو يـكاد يبكـي: أتمنـى سـاعة مـع فـلان، يقصـد الصديـق الـذي رحـل قبلـه.

«عاصم»: صدقتِ.

«عاطـف»: الآن فهمـت لمـاذا كان جـدي يوصنـي و ينصحنـي إذا ذهبـت إلى جمـع مـن المجامـع أو حفـل مـن المحافـل بعـدم التفريـق بـين اثنـين متآلفـين و لا حتـى بمجـرد المـرور بينهـما.

«جميلـة»: نعـم فـإن هـذا قـد يثـير الاسـتياء و يشـعرهما بعـدم الارتيـاح.

«سارة»: ربما تكونوا محقين. و لنستمع الآن إلى الحلقة الأخيرة من «حورية» ما دام في العمر بقية.

«جميلة»: نعم احكي يا «حورية».. احكي يا «شهرزاد».

أطرقت «حورية» لحظات، ثم التفت إلى رفاقها و قالت: أهداني أبي طائراً بديعاً في يوم ميلادي العاشر، فأعجبني و أخذ جماله بزمام قلبي، فأحببته و عندما أحببته لم يعد لي مطلب سوى سعادته، و لا مقصد سوى صداقته، و أردته أن يشاركني جدي و لعبي، و لكني أدركت رغم صغر سني أنه لن يتجاوب معي ما دام أسيراً، و لن يرفرف في سماء قلبي، و لن يعشش في جنة روحي إلا إذا حررته، فأطلقته، و عندما أطلقته فقدته، لكن قبل أن أفقده علمني درساً بليغاً و حكمة عميقة، علمني أن آفاق الحرية أوسع كثيراُ مما نتخيل، و أن السماء أعلى كثيراً مما نعتقد، و أن ما تظن فيه نجاتك قد يكون فيه حتفك.

«عاصم»: ما هذه الألغاز؟

«سارة»: مرحى. يبدو أن هناك معترض غيري هذه المرة.

«عاطف»: أين العمل الصالح في تلك الواقعة؟

«ماجد»: ربما هو في التعلم من مخلوق ضعيف.

«جميلة»: بل أحسب أنه في الرغبة في إسعاد هذا الطائر المسكين حتى و إن لم تتحقق.

«عاصم»: أليس من الأفضل أن تجيب «حورية» على هذا السؤال؟

«حورية»: صدقوني يا رفاق إن قلت لكم إن الحياة في طلب الحرية و قصد تحرير الآخرين من أجل الأعمال الصالحة في نظري.

«سارة»: و مع ما توسلتم به من أجل و أقل الأعمال، و رغم التضرع و الدعاء في الصباح و المساء، لم ينصت لكم الكهف و لم تستجب لكم السماء.

«عاصم»: تتحدثين و كأننا وحدنا العالقون، و أنكِ قد تجاوزتِ الأزمة بهمتك العالية، أخبرينا بما أفادك تمردكِ؟ و كيف كانت مشاغباتكِ سبباً في نجاتكِ؟

«سارة»: على الأقل منعتني من اللهث وراء السراب.

«ماجد»: عجيب أمركِ جداً! أي سراب هذا الذي تتحدثين عنه؟ نحن لا نفعل شيئاً للمرة الأولى و ننتظر النتيجة، و إنما نفعل شيئاً مجرباً منذ الأزل، و أما على المستوى الشخصي فلا أحصي كم من مرة لجأت إلى السماء في الأزمات فانكشفت.

«سارة»: أتعني أن قصة أصحاب الغار معهودة مألوفة مكرورة في كل زمان و مكان! إن كان حقاً ذاك فلما لم تستجب السماء هذه المرة؟

«عاصم»: ربما لأن حالنا لا ينطبق على حالهم.

«عاطف»: ربما لأننا لم نكن صادقين، أو لأن هناك نقصاً في إخلاصنا، أو لعلةٍ تقدح في قبول أعمالنا.

«جميلة»: ربما لم نلح و نتضرع بالقدر الكافي، أو لعلنا لم نصل بعد إلى حال الاضطرار.

«حورية»: و من أخبركم أنها لم تستجب؟

«سارة»: إن كانت قد استجابت فلما لم تتحرك الصخرة أيتها القديسة؟

«حورية»: لأن الإجابة تكون على النحو الذي تريد لا على النحو الذي نريد، و في الوقت الذي تشاء لا في الوقت الذي نشاء، و ليس الأمر بتلك السذاجة، أن كل من يسجن أو يحبس أو يحصر يرفع يديه و يتفوه بكلمتين فينفك الحصار و ينكسر القيد و ينفتح باب السجن على مصراعيه، أخبرتك أن السماء أعلى بكثير مما تظنين أيتها البرنسيسة.

«سارة»: و ماذا سنفعل الآن على كل حال؟

«ماجد»: سندبر أمرنا من جديد، و نفكر من جديد.

«عاطف»: و نحلم من جديد، و نحاول من جديد.

«جميلة»: و نراجع أنفسنا من جديد، و ندعو و نتضرع من جديد.

«عاصم»: ما زال في جعبتنا قدراً لا بأس به من المثابرة و المصابرة.

حل المساء وانفض اجتماع الرفاق، و تفرقوا في أرجاء الكهف مثنى و فرادى، يتفكرون أو يتسامرون، في انتظار ما يكون، و وجدت «حورية» الفرصة سانحة لتكمل القراءة في مذكرات جدها، فجلست بجانب المصباح و أخرجت الأوراق لترى ما كان من شأن الجد و الغلام.

*** ***

بينـما كانـت «ليـلى» في طريـق عودتهـا بعـد انجـاز مهمتهـا في تفقـد موقـع الكهـف و مـا حولـه، التقطـت أذناهـا صـوت هديـر سـيارة تقـترب، و مـا هـي إلا لحظـات حتـى ظهـرت المقطورة تسـير في مسـار متعـرج عـلى طريـق غـير معبـدة، همـت أن تعـترض مسـارها و تلـوح لقائدهـا طلبـا للمسـاعدة لـو لا أن لاحظـت أنـه يحـاول السـير بسرعـة و كأنـما يفـر مـن مطـارد، و تذكـرت شـكوكهم في تـورط أسـتاذيهما فيما أصابهـم فاسـتنتجت أنـه عـلى الأرجـح يفـر مـن زميليهـا، فبـدلاً مـن الإشـارة بيديهـا نكصـت عـلى عقبيهـا و اختبـأت خلـف شـجرة حتـى مـرت السـيارة ثـم شرعـت في مراقبتهـا و محاولـة مطاردتهـا.

كان «لبيـب» يحـاول الإسراع بالمقطـورة لكـن نظـراً لكـبر حجمهـا مـن ناحيـة و وعـورة الطريـق و ضيقهـا مـن ناحيـة أخـرى و رغبتـه في عـدم الابتعـاد عـن الكهـف لتتمكـن الأجهـزة التـي أعدهـا مـن التقـاط و تسـجيل مـا يـدور داخلـه مـن ناحيـة ثالثـة، كل ذلـك أجـبره عـلى خفـض سرعتـه و جعلـه يتوقـف ليغـير مـن اتجاهـه أكثـر مـن مرة حتـى لا يقـع في حفـرة و لا يصطـدم بشـجرة، و كان هـذا مـن حسـن طالـع «ليـلى» التـي اشـتعلت حماسـتها لمطـاردة فريسـتها، فأسـقطت حقيبتهـا كـي لا تعـوق حركتهـا و أخـذت تقفـز بـين الصخـور و الأشـجار في خـط مـواز للمقطـورة و عـلى مسـافة لا تسـمح لقائدهـا بـأن يـري مـن يتعقبـه في المـرآة، كانـت تقفـز في سرعـة و رشـاقة فأضحـت كغـزال يطـارد فيـلاً مـن الأفيـال، و اسـتمرت المطـاردة لدقائـق شـعرت أنهـا طويلـة خاصـة مـع تصاعـد دقـات قلبهـا التـي أصبحـت تنافـس صـوت محـرك المقطـورة في سـمعها، بلـغ الإجهـاد و الإصرار منهـا المـدى، فكانـت كلـما زاد تعبهـا زاد تصميمهـا، إنـما للصـبر حـدود يتوقـف عندهـا، و بالفعـل توقفـت و وضعـت كفيهـا

على ركبتيها و أخذت تلتهم الهواء و هي تتابع السيارة بنظرها لترى هل سيتحقق أملها و تقف المقطورة في مرمى بصرها أم ستتبخر من أمامها، أخذت السيارة تبتعد شيئا فشيئا حتى كادت أن تغيب عن عينيها ثم هدأت سرعتها و انحرفت إلى الجهة اليمنى لتقف خلف أحدى الهضاب بحيث لم يعد يظهر منها سوى أنوارها الخلفية التي أضاءت باللون الأحمر برهة ثم أطفأ قائدها المحرك فساد الصمت في الخارج، أما داخل صاحبتنا فقد استمر هدير قلبها.

سكنت حتى ارتاحت و هدأت، و انتظرت حتى غلب على ظنها أن المقطورة لن تتحرك من مكانها، على الأقل في الساعات القادمة، ثم عادت أدراجها تقتفي أثارها حتى وصلت إلى الشجرة التي أسقطت عندها حقيبتها، فالتقطتها و انطلقت لتلحق برفيقيها، و ما أن رأتهما و شاهداها حتى أسرعت إليها «حنان» و بادرتها قائلة بنبرة تجمع بين الفرحة و المعاتبة: لما تأخرتِ؟ قلقنا عليك.

«ليلى»: أنا بخير. كيف سارت الأمور معكما؟

«حنان»: عدنا بخفي حنين. وجدنا المقطورة ثم فرت كرة أخرى.

«ليلى» وهي تصعد إلى سيارة «ماجد» مع زميلتها حيث كان «ماهر» جالساً خلف عجلة القيادة: أما أنا فقد عدت بالجمل و ما حمل.

عقد «ماهر» حاجبيه و هو ينظر إليها من خلال المرآة الأمامية وقال باهتمام: هل صادفتِ المقطورة؟

قصت «ليلى» عليهما ما جرى، و هما يستمعان بشغف، فلما انتهت صفق «ماهر» بيديه جذلاً و قال: لم يذهب تعبنا سدى، لكن سنحتاج لوضع خطة جديدة للهجوم على الأستاذين المبجلين و الاستيلاء على المقطورة، فهي سفينة النجاة لنا و لأصدقائنا.

«ليلى»: كيف يمكن لفتاتين و شاب مصاب التغلب على رجلين اتخذا المقطورة حصناً و معهما وسيلة انتقال؟

«ماهر»: سنتحصن بظلام الليل و نتسلح بعنصر المفاجأة.

«حنان»: لا بد من خطة محكمة و دراسة كافة الاحتمالات.

«ماهر»: هذا ما سنقوم به من الآن و حتى منتصف الليل.

«ليلى»: و هل سيحتمل أصحابنا ليلة ثانية في الكهف.

«ماهر»: لابد من الحيطة و الحذر و التضحية، و لَتأخرنا لإعداد العدة أفضل من تعجلنا و ضياع الفرصة.

«حنان»: أصبت، ثم التفتت مخاطبة «ليلى»: لم تخبرينا عن مهمتك الأصلية في تفقد الكهف، هل وجدت شيئاً ذا أهمية؟

«ليلى» و هي تفتح حقيبتها و تفرغ محتوياتها: نعم. وجدت بعض الأطعمة الصالحة، و وجدت خريطة لمنطقة غابة الجبل يبدو أنها إحدى الخرائط التي كانت معنا و فقدها أحدنا، ثم أضافت بنبرة حازمة: و الأهم من هذا و ذاك أنني وجدت ما لم أتمكن من حمله معي لكنه جداً مثير للاهتمام.

اتسعت الأحداق و ارتفعت الحواجب و قال الزميلان في صوت واحد: أي شيء هذا؟

«ليلى»: ذراع حديدية أشبه بالرافعة متصلة بحبل متين ينتهي بحجر ثقيل.

ضاقت الأحداق بعد الاتساع، و انعقدت الحواجب بعد الارتفاع، و انطلقت من الأفواه بدلاً من الكلمات علامات التعجب و الاستفهام مصحوبة بتمتمات و همهمات.

******

اقتربت «سارة» من «حورية» و قالت في تعجب: أيمكنكِ القراءة في تلك الظروف؟

«حورية»: ربما هو أفضل ما يمكنني الآن، على الأقل لأصرف تفكيري عما نحن فيه.

«سارة»: أليس من الأفضل التفكير في مخرج مما نحن فيه؟

«حورية»: من يدري لعلي أجد المخرج عند جدي.

«سارة»: لا أظن. صحيح أن مذاكرات جدك أثارت اهتمامي لكني لا أجد التركيز الكافي لقرأتها في أجواء الكهف الشاعرية.

«حورية» باسمة: إذن أترككِ مع كهفكِ و اتركيني مع جدي.

«سارة»: نعم مؤقتاً، و لكني قد أغير رأيي فيما بعد و استعير منكِ بعضاً مما قرأتِ من الأوراق.

«حورية»: لا بأس.

انطلقت «سارة» مبتعدة، فنادتها «حورية»: إلى أين؟ يمكنكِ البقاء بجانبي، فوجودك لن يزعجني أثناء القراءة.

«سارة» هامسة: لا استطيع فلدي موعد رومانسي مع الكهف.

ابتسمت «حورية» و فتحت ما في يديها من الأوراق المطوية، و عادت إلى الإصغاء لحكاية جدها، فوجدته يقول:

(... كنت أظن أنه على الأبناء اقتفاء آثار الآباء و الأجداد، و ها أنا اليوم أقتفي أثر الأبناء و الأحفاد، ترى إلى أين سيقودني هذا الغلام؟، جمعت الرسائل التي أرسلها لوالدته و عكفت على دراستها، و حصلت من السيدة «رحيمة» على ما لديها من المعلومات عن أصدقائه، و عن موصلي الرسائل، و عن كل ما يمكن أن يساعدني في رسم خريطة البحث، و تحديد نقطة بداية للإبحار، و تتبعت كل ما توفر لدي من الخيوط، و انتقلت من صديق لصديق، و من قرية لقرية، حتى رسمت للغلام و رحلته الصورة الآتية:

بدأت رحلة الغلام من بيت حكيم القرية، فعندما انتهى من قراءة ما في المكتبة و قرر الرحيل، ذهب لوداع الحكيم، و في آخر لقاء جمعهما دار هذا الحوار بينهما:

«الغلام»: هل قرأت جميع ما جمعت من الكتب يا سيدي؟

«الحكيم»: بل قرأت أكثر منها، و ما تجده بالمكتبة هو فقط ما تمكنت من امتلاكه منها.

«الغلام»: و ما صنعتَ بما قرأتَ؟

لم يبدُ على وجه الرجل علامات الاستنكار أو التعجب من جراءة الغلام، و أجاب بقوله: صنعتُ ما رأيتَ؟

«الغلام»: ماذا تقصد؟

«الحكيم»: جمعت ما أمكنني و وضعته في حجرة ملحقة ببيتي، و سمحت لمن يرغب في القراءة بالاطلاع عليها و الإفادة منها.

«الغلام»: يعني ما صنعت شيئاً.

«الحكيم»: ها أنت قد قرأتَ ما قرأتُ، فماذا أنت صانع؟

«الغلام»: سأعمل و أتحرك و أصلح و أغير.

«الحكيم»: و طبعاً لن تكتفي بتغيير القرية بل ستغير وجه البسيطة، أليس كذلك؟

«الغلام»: بلى.

«الحكيم»: و ماذا تنتظر؟ هيا انطلق.

«الغلام»: سأفعل. أنا فقط جئت لأشكرك و أودعك، و لأعرف لماذا عزفت أنتَ عن الحركة بتلك الكنوز التي تحبسها في بيتك؟

«الحكيم»: تلك الكنوز التي تتحدث عنها، هل تدري كم نسبتها من كنوز المعرفة الموجودة في عالمنا؟

«الغلام» مأخوذٌ من السؤال: لست أدري.

«الحكيم»: قطرة من المحيط. فهل يمكنك بقطرة من المحيط أن تسقي مشارق الأرض و مغاربها، و أن تروي من عليها كلهم جميعاً؟

«الغلام»: لو انتظرت جمع المحيط لفنيت قبل أن أبدأ، و لهرمت قبل أن أنطق، و لهلكت قبل أن أخطُ خطوة واحدة.

«الحكيم»: و لماذا تريد أن تنطق و أن تخطُ؟

«الغلام»: و لماذا تريد أنت أن تنتظر المستحيل، ما من بشر يمكنه جمع المحيط، و لو فكر جميع الناس بطريقتك لظللنا نسير في أماكننا إلى أن نموت.

«الحكيم»: لا بأس. خض تجربتك و بعد عودتك نكمل حديثنا، و كل ما أطلبه منك في رحلتك أن تذكرني بين الحين و الحين، متى ستعود؟

«الغلام»: لست أدري.

انطلق الغلام، و أخذ في الانتقال من قرية إلى قرية، و سلك في رحلته طريقة الخدمة، فكان يخدم الناس فأحبوه، يساعد هذا و يعاون ذاك، و يقضي حاجة ثالث، فحقق نجاحاً نوعاً ما فبدأ الناس يستمعون له و يأخذون منه، لكن ما كان لهذا النوع من النجاح ليستمر طويلاً و لا ليرضيه كثيراً، فقد وجد أن الحال لم يتغير كثيراً، و وجد أن طبائع الناس عجيبة غريبة، فلديهم القدرة على الأخذ بالشيء و ضده، و الإنصات له و لنقيضه، و ما يتعلمونه بالأمس ينسونه اليوم، و ما يؤمنون به اليوم يكفرون به غداً إذا جاءت الريح بما لا تشتهي السفن، و من كانوا يمدحونه نهاراً جهاراً يذمونه ليلاً إسراراً، و كان كلما انقطعت به السبل في قرية أو أغلقت الأبواب في وجهه في أخرى، كان ينتقل إلى قرية أكبر أو بلدة أوسع، يعني بدلاً من العودة إلى الأيسر كان

يـصر عـلى الأعـسر، فقـد كان يظـن أن المـدن الكـبرى الأكثـر تقدمـاً ستكون أكثـر تفهـماً لـضرورة التغيـير و أهميـة الوصـول إلى الحقيقـة المطلوبـة و الحريـة المأمولـة لبنـي البـشر لأنهـا صعـدت درجـات كثـيرة في سـلم الحضـارة، لكـن مـع الوقـت بـدأ يلاحـظ أنـه كلـما بعـدت المدينـة التـي يقصدهـا، كلـما بعـدت المسـافة بـين الحلـم الـذي يريـده و الواقـع الـذي يعيشـه، و كلـما كانـت أكثـر تقدمـا، كلـما كانـت أكثـر نفـوراً، فقـرر في النهايـة أن يتوجـه إلى المدينـة التـي تمثـل مركـز العـالم مـن وجهـة نظـره، حيـث توجـد القـوة اللازمـة و القـدرة الكافيـة للتغيـير، فهنـا قلـب الكـرة الأرضيـة فـإذا تغـير هـذا القلـب لتغـيرت الحيـاة عـلى وجـه البسـيطة بـلا شـك.

وصـل فعـلاً إلى هـذا القلـب بعـد عامـين و نصـف مـن فراقـه لقريتـه، و منـه أرسـل رسـالته الأخـيرة لوالدته السـيدة «رحيمـة»، كان رغـم كل العثـرات التـي عانـت منهـا أقدامـه متفائـلاً مفعـماً بالأمـل، راجيـاً أن يجـد بغيتـه و أن يحقـق حلمـه، فـإن لم يجدهـا هنـا في أكـبر المـدن و أوسـعها، و إن لم يحقـق حلمـه هنـا في أرقـى البـلاد و أعظمهـا، فأيـن إذاً؟ لا بـد أن هـذه هـي محطتـه الأخـيرة.

بعدمـا حـط الرحـال في قلـب العـالم، لم يلبـث إلا قليـلاً ليـدرك كـم كان هـذا القلـب قاسـياً عاتيـاً، لا يعـرف معروفـاً و لا ينكـر منكـراً، لم يرحـم غربتـه و لم يؤنـس وحشـته، كان بالأمـس يبيـت مسـتنكراً طبائـع البـشر في القـرى و المـدن الصغـيرة و أصبـح اليـوم يترحـم عليهـا، فالنـاس في القـرى التـي مـر عليهـا كانـوا يتـوددون للغريـب أمـا هنـا فكلهـم غربـاء، لا يأبهـون إلا بـما يحقـق لهـم نفعـاً، و النـاس في القـرى أملهـم أن يعيشـوا في سـعادة بينـما هنـا أملهـم السـيطرة عـلى

السعادة، بل امتلاك السعادة، بل احتكار السعادة، و قل مثل ذلك عن القوة و الطبيعة و العلم و الرفاهية و هلم جرا.

و لأن الغريب أعمى و لو كان مبصراً لم يدرك ما سبق من الوهلة الأولى، و إنما استغرق بعض الوقت و إن لم يكن طويلاً، ثم اصطدم الحلم بالواقع، و اعترك المسطور في كتب حكيم القرية مع المنظور على الأرض هناك، البداية كانت لا بأس بها، فالأرض أرض الله و الخلق خلق الله، و لا تخلو الأرض من الخير و لا يخلو الخلق من البر، و في قلب العالم يمكن لمن شاء أن يقول ما يشاء كيفما شاء و وقتما شاء و لكن إلى حين، و السؤال هو متى يحين هذا الحين؟

الجواب هو أن هناك صنفين من البشر يعيشون في قلب العالم، صنف يختارون بين الأمور و هم الأكثر، و صنف يصنعون الأمور التي تقدم للصنف الأول ليختار من بينها و هم الأقل، و إذا دققت النظر عرفت أن هذه الأمور المصنعة متشابهة بل تكاد تكون متماثلة، و لكنها تقدم في صورة براقة جاذبة محفزة، تماما مثل مسابقات المجلات المصورة للأطفال حين يطلبون الوصول إلى الاختلافات السبعة بين الرسمين، فيشحذ المتسابقون أذهانهم و أبصارهم لإثبات وجود بضعة تفاصيل مختلفة و يغفلون عن مئات التفاصيل المتطابقة، بل و ينسون أن الرسام الذي رسم الصورة الأولى - و هي بلا شك معبرة عن ذوقه و رؤيته - هو نفسه الذي رسم الصورة الثانية و تعمد تغيير عدة تفاصيل لا تزيد عن أصابع اليدين، و هكذا يعيش الأكثر حياتهم بمنتهى الحرية في الاختيارات الزائفة، و هكذا نكون قد وصلنا لجواب

السؤال، فعندما تسعى للخروج من الاختيار الزائف إلى الاختيار الحقيقي يحين هذا الحين.

و عندئذٍ يثبتوك أو يخرجوك أو يقتلوك، و لا مانع عندهم بعد موتك أن يقدسوك، و يصنعون منك الأساطير، و يصورون لك التماثيل، فأنت يمكنك أن تكون قديساً ميتاً عندهم لكن لا يمكنك أن تكون قديساً حياً بينهم، و يمكنك أن تكون فكرة عظيمة في كتاب يحقق أعلى المبيعات، أو مشهداً في فيلم يحوز أعظم الجوائز و يحقق أعلى الإيرادات، أو لحناً في سيمفونية من السيمفونيات الخالدات، لكن إياك إياك أن تكون حقيقة من الحقائق.

خرج كعادته لنقل كنوز المعرفة التي اطلع عليها في مكتبة الحكيم، و كان في طريقه يعاون هذا و يلاطف هذا و يحاور هذا و يحنو على هذا و يبتسم في وجه هذا، لكن هذه المرة شعر أن شيئاً ما ليس على ما يرام، شعر كأن سحابة من الكراهية فوق رأسه، و موجة من الغضب خلف ظهره، في الفترة السابقة كان يسمع بعض عبارات السخرية و يتعرض لبعض محاولات الاستفزاز، لكنه كان يعرض عن الأولى و يتجنب الاستجابة للثانية، هذه المرة لم تغن المراوغة عن المواجهة، فالسحابة قد ازدادت كثافة و الموجة قد ازدادت ارتفاعاً، حاول المقاومة فقد كان فتياً أبياً لكن الكثرة تغلب الشجاعة، فتوالت اللكمات و تتابعت الركلات، و مع كل لكمة و ركلة كانت تصله رسالة و إساءة، رسالة يسمعها في عقله و إساءة يحسها في قلبه، مع الركلة الأولى شعر بالإساءة إلى أمه، و مع الركلة الثانية شعر بالإساءة إلى جده، و مع الركلة الثالثة شعر بالإساءة إلى قريته، و مع اللكمات التي طالت وجهه

نفـذت الرسـائل التاليـة إلى عقلـه و لكنـه كان مشوشـاً و جزعـاً فلـم يدركهـا:

إن أردت أن تعيـش في قلـب العـالم فعليـك أن تكـون تابعـاً لا متبوعـاً.

إن أردت أن تنجـح في قلـب العـالم فعليـك أن تقبـل بالتاريـخ المـزور.

إن أردت أن تسـتمر في قلـب العـالم فعليـك أن تـرضى بالاختيـار الزائـف.

انتهـت المعركـة و وجـد نفسـه صريعـاً مضرجـاً بالدمـاء مكسـور الضلـوع و الوجـدان، يمـر المـارة بجانبـه و لا يلتفـت إليـه أحـد و لا تمتـد إليـه يـد، فسـوء الظـن هنـا هـو القاعـدة، فربـما كان مـن متعاطـي المخـدرات، و ربـما كان مجرمـاً تـورط في شـجار بـين العصابـات، و ربـما كان مخادعـاً سـيقوم بالاحتيـال عـلى مـن يقـدم لـه المسـاعدات، أو عـلى أحسـن تقديـر هـو شـخص يحتـاج للعـون فعـلاً لكـن مـن سـيقدمه لـه سـيورط نفسـه في المشـكلات، هـذا مـا يـدور عـادة في أذهـان النـاس في المـدن الكـبرى، فيمنعـون المـاعون و يحجمـون عـن الخـير و لا يقدمـون، و هكـذا أمسـى مضطـراً أن يتحامـل عـلى نفسـه حتـى النفـس الأخـير، فلـو بقـي عـلى حالـه لهلـك لا محالـة، مـد يـده ليلتقـط قبعتـه و وضعهـا فـوق رأسـه بحيـث تخفـي شـيئاً مـن وجهـه فـلا ينفـر منـه النـاس و لا يفـرون، و قـام بصعوبـة بالغـة و أشـار إلى إحـدى سـيارات الأجـرة و طلـب مـن السـائق أن يقلـه إلى أقـرب مشـفى، و عندمـا وضـع قدمـه داخلـه كان قـد اسـتنفذ كل طاقتـه و صـبره و جهـده فسـقط مغشـياً عليـه.

أفـاق في اليـوم التـالي، و أخـذ يتعـافى ببـطء خـلال بضعـة أسـابيع، و كلـما اسـتعاد صحتـه كان يفقـد همتـه، و كلـما تحسـنت جـروح بدنـه سـاءت جـراح نفسـه، لم يعـد يريـد العيش و لا النجـاح و لا الاسـتمرار في قلـب العـالم، و لكنـه مـع ذلـك لم يسـتطع أن يقـرر العـودة إلى ديـاره، ففـي البقـاء لـن يتحقـق حلمـه و في العـودة لـن يـزول فشـله، فأصبـح عالقـاً بـين فشـلين، فشـل الاسـتمرار و فشـل العـودة إلى الديـار.

كثـيرون يقعـون في تلـك المصيـدة، يختـارون طريقـاً يسـلكونها ثـم يدركـون بعدمـا يقطعـون شـوطاً أو عـدة أشـواط أن تلـك الطريقـة لا جـدوى منهـا، فبعضهـم يؤثـرون السـير عـلى التوقـف أو الرجـوع، لأن السـير إلى الأمـام و إن كان سرابـاً أهـون عـلى النفس مـن العـودة إلى البدايـة أو الرجـوع إلى الـوراء، و بعضهـم يتوقفـون فـلا يتقدمـون و لا يرجعـون، و كان صاحبنـا مـن النـوع الثـاني.

هـذه هـي خلاصـة تجربـة صاحبنـا الشـاب في قلـب العـالم، و لكنـه وقتهـا لم يـدرك أبعادهـا، لم ينتبـه أنـه كان ينبـه النـاس إلى ضرورة تـرك الخيـار الزائـف إلى الاختيـار الحقيقـي، كان يظـن فقـط أنـه ينقـل كنوزاً جميلـةً ظلـت مدفونـةً حينـاً مـن الدهـر، فلـم يفهـم مـا سر العـداء؟ و لمـا انقلـب الـود إلى جفـاء؟ و لمـا التربـص بـه و الكيـد لـه في الخفـاء؟

هـذه الخلاصـة التـي قصصتهـا في كلمتـين اسـتغرقت مـن عمـري قرابـة العامـين منـذ خرجـت مـن القريـة بحثـاً عـن الفتـى، و انتقلـت مـن صديـق لصديـق و مـن وسـيط لوسـيط و مـن قريـة لقريـة و مـن مدينـة لأخـرى حتـى وصلـت أنـا أيضـاً إلى قلـب العـالم و وجـدت الغـلام بعـد لأي و هكـذا أنجـزت نصـف المهمـة التـي كلفتنـي بهـا

السيدة «رحيمة»، و بقي أن أصل إلى قلب الفتى و أبلغه الرسالة حتى أتم النصف الآخر منها.

كان الغلام يجيد عدة أشغال و حرف يدوية تعلمها في قريته تجمع بين البساطة و القناعة و الذوق العلوي، لكنه لم يجد لها سوقاً ، فالإقبال هنا على التعقيد و الطمع و الذوق السفلي، فأخذ يمتهن بعض المهن الخالية من الفن و لا تحتاج إلا إلى مهارات يتقنها كل من يمشي على رجلين، فكانت مهنته حين التقيته تعبئة الوقود للسيارات في إحدى محطات النفط.

وقفت أرقبه عن بعد في الدقائق الأخيرة من مناوبته في العمل، كان يقوم بتعبئة الوقود لإحدى سيارات الأجرة، و عندما انتهى من التعبئة توجهت إليه و ناديته باسمه، توقعت أن يندهش شيئاً ما ثم يقبل علي ليرى ما شأني و ماذا أريد منه، أصبت في الجزء الأول من توقعي و أخطأت في الجزء الأخير منه، فبدلاً من أن يتوجه إلي قفز مباشرة في السيارة التي انتهى لتوه من تعبئتها بالوقود و سمعته يقول للسائق: انطلق..انطلق.

كانت لا تزال تفصلني عنه عدة أمتار، أسرعت الخطى نحوه و أنا ألوح وأصيح: توقف..انتظر. لكن هيهات، وقفت برهة داخل دائرة الحنق، و قلت لنفسي بصوت مسموع: هذا عبث صِبية.

تريثت بضعة أيام قبل تكرار المحاولة فقد توقعت أن يكون مستعداً لي في اليومين القادمين، فكرت في خطة مغايرة لإجباره على محاورتي، لكنني تراجعت لأنني أردت أن ألقنه درساً فكررت خطتي الأولى بحذافيرها، و كرر هو ردة فعله أيضا بحذافيرها،

و بـذا وقـع في الفـخ، فبعـد لحظـات مـن أمـره للسـائق بالانطـلاق، توقفـت السـيارة أمامـي مبـاشرة ففتحـت البـاب الخلفـي و جلسـت بجانـب الفتـى و هـو مذهـول، حـاول مغـادرة السـيارة و لكـن السـائق ضغـط زر الإغـلاق المركـزي فمنعـه، نظـر إلي و إلى السـائق نظـرة ذات مغـزى، فابتسـمت و قلـت لـه بلغـة قريتـه: فقـط أردت أن أعلمـك أنـه لا يلـدغ المؤمـن مـن جحـر مرتـين.

التقـت عيوننـا كـرة أخـرى بنظـرات تجمع بـين الترقـب و التحدي، و في ذات اللحظـة انطلـق سـؤالان، سـؤال مـن فيه و سـؤال من في:

- لماذا تطاردني؟

- لماذا تفر مني؟

سـكت كل منـا في انتظـار إجابـة الأخـر، ثـم قرنـا الجـواب في ذات اللحظـة كـما سـبق و فعلنـا في السـؤال:

- أنا لا أطلب مطاردتك و لكن أطلب محاورتك.

- أنا لا أفرمنك و لكن أفر من المشاكل.

ميـزت كلامـه بصعوبـة شـديدة، فـأن تتكلـم و تنصـت في نفـس الوقـت مـن أشـباه المسـتحيلات، أردت أن أكـسر تلـك الدائـرة فأخرجـت صورتـه التـي أخذتهـا مـن السـيدة «رحيمـة» و ناولتهـا إيـاه، فاختطفهـا مني و ظـل ينقـل بـصره بينهـا و بينـي، ثـم قـال: معـك صـورتي، و تتحـدث بلغـة قريتـي، لكـن ملامحـك و هيئتـك لا ينتميـان إليهـا، فـما قصتـك أيهـا المسـن؟

- قصتي هي قصتك أيها الشاب.

- و هل تعرف قصتي؟

- نعم.

- لا.

- بلى.

- لا.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك تظن أنك تعرفها لكنك لا تعرفها.

منـذ قرابـة العامـين و لا يشـغلني شـاغل سـوى قصتـه ثم يـأتي هذا الصبـي ليخـبرني بأننـي لا أعـرف شـيئا! كـدت أن أنفجـر في وجهـه لكنـي آثـرت التحلي بالصـبر فقلـت: فقصهـا عـلي إذن.

- لا.

- و لمَ لا؟

- و لمَ تريـد أن تتدخـل في حيـاتي؟ تعـرف قصتـي ثـم تصـدع رأسي بنصائحـك و تتيـه عـلي بخبراتـك، ثـم تزعـم أنـك لا تطـاردني! مـا شـأنك بي أيهـا الشـيخ؟

- مـاذا تريـد أيهـا الشـاب؟ أن تسـد أذنيـك عـن كل مـن حولـك و لا تسـمع إلا نفسـك؟ رفضـك السـمع علامـة ضعفـك، مـاذا عليـك لـو سـمعت ثـم نظـرت فـإن وجـدت خـيراً حملتـه فـوق رأسـك و إن وجـدت شراً ألقيتـه خلـف ظهـرك، و مـع ذلـك أنـا لا أنـوي أن أسـمعك شـيئاً لم تطلبـه، فـما وراء ذلـك مـن طائـل.

هـز رأسـه موافقـاً و بـدا عليـه الاقتنـاع ثـم قـال: لا بـأس يمكننـا أن نتحـاور كـما تريـد، مـا رأيـك أن نجلـس في مـكان مناسـب بـدلا مـن المحادثـة وسـط علامـات المـرور.

- أنت أعلم مني بهذه البلدة، فهل لديك اقتراح؟

- أجل. يوجد مقهى هادئ خلف تلك البناية.

أمـرت السـائق بالتوقـف و أعطيتـه أجرتـه، و ترجلـت من السـيارة مـن الجانـب المقابـل للرصيـف، بينـما ترجـل هـو مـن الجانـب المقابـل للشـارع، و مـا أن وطئـت قدمـاه الأرض حتـى أطلـق سـاقيه للريـح و عـبر الشـارع و هـو يقـول: فقـط أردت أن أعلمـك ألا تبيـع فـراء الـدب قبـل صيـده.

هــذا المأفــون اضطــرني للركــض بعــد ســن الســتين، عــبرت الشـارع خلفـه و سـمعت صـوت كابـح سـيارة و سـباب ينطلـق مـن فـم صاحبهـا لكنني لم ألتفـت، حاولـت عبـور الشـارع المقابـل لكـن منعتنـي سرعـة السـيارات القادمـة، أدركـت أننـي سـأفقده للمـرة الثانيـة فقـررت اسـتخدام ورقتـي الأخـيرة، فأخرجـت الصنـدوق الخشـبي مـن الحقيبـة التـي كنـت أعلقهـا عـلى كتفـي و رفعتـه بكلتـي يـدي فـوق رأسي و أنـا أصيـح بأعـلى صـوتي: مهـلاً يـا فتـى، لا تنـصرف حتـى تـرى هـذا.

التفتـت الفتـى بدافـع الفضـول فلمـح الصنـدوق معلقـاً بـين رأسي و السـماء فتوقـف مـن فـوره و عـاد أدراجـه و بـصره مثبـت عـلى الصنـدوق لا يتحـول عنـه حتـى وقـف أمامـي مبـاشرة عـلى الرصيـف بـين الشـارعين، رفـع يديـه و التقطـه مني و ضمـه إلى صـدره ثـم قـال

بنبرة فيها شفقة: هذا أخي، نشأت معه و أحببته، أحببت ما فيه من الجمال و الذوق و الدقة و الأصالة، كنت ألعب معه و أتحدث إليه و أتمنى أن يحدثني، سألت أمي: لماذا لا يكلمني؟ فقالت: لا يمكنه أن يكلمك و هو مغلق، لكنه سيفعل حتما عندما يفتح. سألتها: و متى سيفتح ؟ فأجابتني: يوماً ما، لا بد أن يفتح يوماً ما و سيكلمك لا محالة فاطمئن.

شعرتُ بعاطفة جياشة نحوه، و تذكرت معاناته في رحلاته رغم حداثة سنه فرحمته، نظرت إليه نظرة حنان، و نظر هو إلي لأول مرة نظرة اطمئنان فالتقت عيوننا برهة من الزمان ثم تعانقنا.

ظللنا فترة متعانقين، ربما دقيقة، ربما دقيقتين، لست أدري فيما كان يفكر وقتها الفتى، لكني كنت أفكر كيف سأخرجه من المصيدة؟ مصيدة قلب العالم.

*** ***

انتصف ليل الليلة الثانية من ليالي الكهف، و انطلق «ماهر» و زميلتاه إلى موضع المقطورة الذي حددته «ليلى»، فاتخذوا موقعاً يتيح لهم مراقبتها، كانت خطتهم تهدف إلى تحقيق أمرين: التغلب على الأستاذين، و الاستيلاء على المقطورة لاستخدامها لنجدة الأصدقاء العالقين في الكهف، و كانت تعتمد على أن يغادر أحد الأستاذين المقطورة لسبب ما ربما ليذهب إلى غرفة القيادة أو لأي سبب آخر، و عندها تقوم «ليلى» بإلقاء الرمال في عينيه، و يقوم «ماجد» بتقييده بالحبال، في حين تقوم «حنان» بتثبيت قضيب من الحديد خلف باب المقطورة لمنع من بقي بداخلها من إغاثة من خرج منها، فلما طال انتظارهم و لم يخرج أحد من المقطورة،

قال «ماهر»: سأذهب لمحاولة استطلاع ما يدور داخل المقطورة، ابقيا هنا.

«ليلى»: المسافة التي تفصلنا عن المقطورة مازالت كبيرة، لن نتمكن من الوصول في الوقت المناسب إذا خرج أحدهم الآن، و سيكون عليك مواجهته وحدك و أنت مصاب، الأفضل أن نذهب سوياً.

«حنان»: دعونا ننتقل إلى أقرب نقطة ممكنة من المقطورة، ثم تقوم أنت بالاستطلاع.

«ماهر»: لا بأس.

اقترب الثلاثة حتى لم يعد يفصلهم عن هدفهم سوى الهضبة التي استقرت خلفها المقطورة، فبقيت الفتاتان في الجهة الثانية من الهضبة، و دار «ماهر» حولها ليصل إلى المقطورة مباشرة في محاولة للنظر داخلها من إحدى النوافذ ليستطلع الموقف داخلها، فشرع يدور حول المقطورة متفقداً نوافذها، كانت جميع النوافذ مغلقة بإحكام و عليها ستائر من الداخل تمنع النظر، فلم يجد سوى أن يلصق أذنه بإحدى النوافذ في محاولة للتنصت على ما يدور بالداخل، و عندها سمع صوت الدكتور «لبيب» و هو يقول: أليس من الأفضل أن تسأل عما تريد معرفته بدلاً من التجسس؟

لم يأت الصوت من داخل المقطورة بل من خارجها، فالتفت «ماهر» بسرعة، و نظر إلى الدكتور نظرة من ينوي الهجوم، فهم «لبيب» مغزى النظرة، فأشار بيده مهدئاً، و قال: لا داعي، يمكننا أن نتفاهم، و لا تنس أنك مصاب و لن تفلح محاولتك.

قال «ماهر» بغضب: إصابتي لن تمنعني من الفتك بك و إن كان ذلك أخر شيء أفعله في حياتي.

«لبيب» بهدوئه المستفز المعتاد: مهلاً، لا تندفع وراء انفعالك و فكر قليلاً، ثم أشار إلى قدم «ماهر» المصابة و أضاف: أنا من وضع الضمادات و الأدوية في متناول يدك، و لو كنت أريد إيذاءك لما فعلت ذلك، فأنت مدين لي على كل حال.

«ماهر»: لماذا فعلت كل ذلك؟ ماذا تريد منا بالضبط؟ و ما هي خطتك القذرة؟

«لبيب»: تعال نتكلم بالداخل، و يمكنك استدعاء «حنان» و «ليلى» أيضاً، أعلم أنهما خلف الهضبة المقابلة للجانب الأخر من المقطورة.

أدرك «ماهر» أن الخطة قد فشلت، و أن المعركة انتهت قبل أن تبدأ، و عليه الانتقال لمائدة المفاوضات، فنادى زميلتيه بالفعل و توجهوا جميعاً مع الدكتور «لبيب» إلى داخل المقطورة، أشار لهم «لبيب» بالصعود، فتقدم «ماهر» و خلفه «ليلى» و لحقت بهما «حنان» مباشرة، و عندما حان دور «لبيب» فبدلاً من الانضمام إليهم قام بإحكام غلق الباب عليهم، التفت ثلاثتهم إلى الخلف وصاح «ماهر»: خدعنا الوغد.

بعد لحظات جاءهم صوت «لبيب» عبر مكبر الصوت من غرفة القيادة و هو يقول: لا تقلقوا، أنا ما زلت عند كلمتي، سأشرح لكم الأمر كما وعدتكم، و لكنكم حالياً في حاجة لقسط من الراحة حتى نتفاهم في هدوء،

فلست أضمن ردود أفعالكم إذا تحاورنا الآن مع انفعالكم.

قالت «ليلى» بشيء من المرح و هي تشم الهواء بأنفها: يبدو أن طَّسْتَ الراحة له رائحة طعهما حلو.

اغتاظ «ماهر» من مزاحها في هذا الوقت لكنه وجه كلامه للبيب قائلاً: و من قال لك أننا نريد الراحة؟

«لبيب»: غاز أكسيد النيتروز المخلوط بالأكسجين سيقدمها لك بطريقة إجبارية.

«ماهر» هاتفاً و قد انتقل له الشعور بالمرح: إجبارية إجبارية و يقول لك رحلة عن الحرية.

«حنان» ضاحكة: بصراحة بصراحة بصراحة، ما لقيت في هذه الرحلة راحة.

بعد فترة أفاق الشباب ليجدوا أنفسهم مقيدين إلى المقاعد، «حنان» و «ليلى» في جهة، و في الجهة المقابلة «ماهر» و «هانئ»، فكانت المفاجأة مذهلة.

كان «ماهر» أول من تغلب على ذهوله، فقال موجهاً حديثه إلى «هانئ»: و أنت أيضاً يا دكتور.

أطرق «هانئ» بخجل ثم قال: أؤكد لكم أنني بذلت كل ما بوسعي لمنعه، لكنه باغتني فتغلب علي.

«حنان»: معذرة يا دكتور «هانئ»، أسأنا الظن فيك، و اعتقدنا أنك متورط معه فيما أصابنا.

«ليلى»: نحن الآن أربعة ضد واحد، و هذا بلا شك أفضل من ثلاثة ضد اثنين، لكن كيف سنتصرف؟

«ماهر»: أردنا أن نحرر أصدقاءنا من مصيدة الكهف فوقعنا في مصيدة المقطورة.

«هانئ»: هذا هو بيت القصيد، كيف سنخرج من المصيدة؟

*** ***

أعلنت ساعة الأنفاس شروق شمس اليوم الثالث من أيام الكهف، و قام «عادل» بتوزيع الوجبة الأخيرة مما تبقى من الماء و العصائر، و تحلق الأصدقاء واجمين، و قد أدركوا أنهم بدأوا مرحلة الخطر الشديد.

«عاطف»: بالأمس بدأنا عصر الجوع، و اليوم سنبدأ عصر الظمأ.

«عاصم» و هو يشير إلى المصباح: و غداً سيبدأ عصر الظلام.

«سارة»: لا يجب أن نظل مكتوفي الأيدي حتى تحين هذه اللحظة.

«عادل»: نعم فاليوم هو فرصتنا الأخيرة للخروج من هذا المأزق.

«جميلة» بتوتر: و ماذا في أيدينا أن نصنع؟

«حورية»: نبحث عن منفذ أو مخرج.

«عاطف»: أو لم نفعل؟

«ماجـد»: بـلى، و لكـن كان نظرنـا متوجهـاً إلى الخـارج، فلـما لا نجـرب البحـث في الداخـل؟

«عاصم»: و ماذا تتوقع أن تجد داخل الكهف، ها هو أمامك.

«عـادل»: لاحظـوا أننـا لم نتفقـد جميـع جوانـب الكهـف و زوايـاه، فنحـن منـذ ولجنـا نجلـس في حـدود هـذا البسـاط، و في المسـاحة التـي يصـل إليهـا ضـوء المصبـاح.

«حوريـة»: أجـل. ربـما لـو توجهنـا نحـو الباطـن، باطـن الكهـف، قـد نجـد حـلاً أو عونـاً.

«سـارة»: ربـما نسـتطيع أيضـاً أن نجـد مـا يحسـم لنـا هـل هـذا المـأزق الـذي نحـن فيـه مـن صنـع البـشر أم مـن صنـع القـدر؟

«عاطف»: ماذا تعنين؟

«عاصـم»: تعنـي أنـه لـو كان هنـاك مـن دبـر لنـا هـذه الورطـة، فمـن المحتمـل أنـه قـد جـاء إلى هـذا الكهـف قبلنـا، و قـام بإعـداد مـا يسـاعده عـلى إنفـاذ خطتـه، و قـد نجـد نحـن أثـراً يـدل عليـه و نتمكـن مـن إفسـاد خطتـه عليـه.

«ماجد»: إذن فلنفتش الكهف شبراً شبراً.

«عـادل»: المهـم أن نبـذل قصـارى جهدنـا حتـى لا نبيـت ليلـة ثالثـة في مصيـدة الكهـف.

*** ***

الفصل الثالث

الغابة

- سنبدأ المناقشة بعدما تشاهدون تلك المقاطع المسجلة من داخل الكهف.

قالها «لبيب» بأسلوبه المعتاد في محاضراته الجامعية عبر السماعات المتصلة بمكبر الصوت الموجود في غرفة القيادة ليصل صوته لمن بالمقطورة ، و فور انتهاء عبارته بدأت الشاشة المثبتة داخل المقطورة في عرض أهم الأحداث و الحوارات التي دارت بين أصحاب الكهف خلال اليومين السابقين، أي منذ الدخول إلى الكهف و حتى فجر اليوم، التفت الجميع باهتمام بالغ وظلت عيونهم مثبتة على الشاشة طوال فترة العرض، فقد كان الشباب متلهفين للاطمئنان على أصدقائهم و معرفة ما مر بهم، و حتى «هانئ» رغم مشاهدته لعدة أجزاء منها من قبل فقد كان يتابع بشغف لربط الأحداث ببعضها و الإحاطة بما استجد منها و محاولة اكتشاف ثغرة تمكنهم من الخروج من الأزمة.

بعد انتهاء العرض مباشرة انتقل «لبيب» إلى داخل المقطورة، و جلس على كرسي في الجزء الخلفي منها، بحيث يكون «هانئ» و «ماهر» على يمينه، و «ليلى» و «حنان» على يساره، و الشاشة أمامه مباشرة، و بدأ الحديث دون مقدمات قائلاً: أحسب أنه أصبح واضحاً لديكم أن المشاكل و الأضرار التي وقعت لم تكن مقصودة، و لم تكن من ضمن الخطة، لم يكن من المفترض أن يكون هناك نقصاً في الطعام و الشراب، لم يكن من المفترض أن تكونوا خارج الكهف و أن يتعرض «ماهر» للإصابة، كل ما في الأمر أنني أعددت لكم مسرحاً فائقاً للتعلم.

«ليلى»: لا أستطيع أن أنكر أن المغامرة كانت شائقة، و أن الحوارات التي دارت في الكهف كانت رائعة.

نظر «لبيب» إلى «هانئ» نظرة انتصار، و قال: ألم أقل لك أن الشباب أكثر تفتحاً و تفهماً منك.

«حنان» موجهة الحديث لـ «ليلى»: ماذا تقولين؟ هل يسعدك أنه أعد لنا مسرحاً للعرائس، و جعل منا دمى يراقبها و الحبال تحركها؟

«ماهر»: الحقيقة أنني لا أستطيع أن أخفي رغبتي في وجودي داخل الكهف و خوض تلك التجربة مع أصحابنا.

«هانئ» بانزعاج: أفق يا «ماهر» و لا تجعل الانبهار و الرغبة في المغامرة يجذباك إلى النزق، و تذكر أنك لو تأخرت في القفز لحظات للقيت حتفك تحت الصخرة.

«لبيب»: كف عن القيام بدور حامل لواء الأخلاق، و حامي حمى الفضيلة، إنما لذة الحياة في المغامرة، و لا توجد خبرة بلا ثمن ، و لا معرفة بلا تضحية، لاحظوا أن أحداً لم يصب إصابة خطيرة، و أن الجميع حتى الآن بخير.

«حنان»: حولتنا إلى فئران تجارب، و تُعرض فريقاً منا للهلاك بالموت البطيء، و تقول إن الجميع بخير! لست أدري أحماقة هذه أم وقاحة!

رمقها «لبيب» بنظرة نارية و لم يفلح هذه المرة في الحفاظ على أسلوبه الهادئ المستفز، فقال بعصبية: على كل حال أنتِ لا تمثلين إلا نفسك، بينما «ليلى» و «ماهر» يوافقان على التجربة، يعني الشباب في صفي بنسبة الثلثين إلى الثلث.

«ماهــر»: رغبتــي في خــوض التجربــة لا تعنــي أنــك عــلى حــق، و هــذا التصويــت الزائــف الــذي أجريتــه لا قيمــة لــه، فمتــى كان لــلأسرى حــق التصويــت؟ إن كنــت متأكــداً مــن صــواب موقفــك فلــما أفقدتنــا الوعــي؟ و لمــا تكبلنــا في المقاعــد؟

نظـر «هانـئ» إلى «لبيـب» بـشيء مـن السـخرية، و قـال: يبـدو فعلاً أن الشـباب أكثـر تفتحـاً و تفهـماً منـك.

لم يعقـب «لبيـب» عـلى كلام «هانـئ»، و التفـت إلى «ماهـر» قائـلاً: أعتـذر لكـم بالفعـل، لكنهـا كانـت الطريقـة الوحيـدة لكـي أشرح لكـم الموقـف و أوضـح لكـم الملابسـات، و أمنعكـم مـن التـصرف باندفـاع يفسـد الأمـر برمتـه.

«ماهــر»: و هــا أنــت قــد شرحــت و أوضحــت، فلــما لا تحــل وثاقنــا؟

«لبيب»: سأفعل لكن في الوقت المناسب.

«هانـئ»: لـن يفعـل يـا شـباب، إنـما يتلاعـب بكـم لكسـب الوقت لإتمـام تجربته الفاشـلة.

أصابـت كلمـة «هانـئ» هدفها، فقـد كان «لبيـب» يـدرك أن التجربة لم تـؤت ثمارهـا، و أنهـا لا تصلـح أن تبنـى عليهـا نظريـة علميـة، و لكنـه كان يريـد الاسـتمرار فيهـا حتـى الرمـق الأخـير فقـال بعنـاد لا يخلـو مـن اضطـراب: لا تتعجـل الحكـم، لم تفشـل التجربـة بعـد.

«هانــئ»: بــل فشــلت، و انحرفــت عــن مســارها، و عليــك أن تتحــلى بالشــجاعة العلميــة و تعلــن انتهــاء التجربــة قبــل أن تحــدث الكارثـة، فأنـت لا يمكنـك التحكـم الآن في عنـاصر الموقـف خاصـة

بعد أن أوشك الزاد على النفاد، و لا تستطيع التكهن بتصرفاتهم في الساعات القليلة القادمة، فإياك و المقامرة بحياة الأولاد.

«لبيب»: الشباب أقوياء و مثابرون، و يمكنهم الاحتمال ليوم أو يومين آخرين.

«ليلى» و كأنما تحررت من السحر: صحيح العناد يورث الكفر.

«حنان»: أي يوم أو يومين تتحدث عنهما؟ آخر ما شاهدناه كان يدور في الساعاتً الأخيرة من ليلة أمس، دعنا نرى أولاً ما حدث في الساعات الأولى من هذا اليوم، و أرجو ألا يكون قد وقع المحذور.

انتبه «لبيب» أن النقاش قد شغله عن مراقبة ما يدور في الكهف، فقام مسرعاً إلى الشاشة لتعرض ما سجلته الكاميرا في اليوم الثالث، و للمرة الثانية التفت الجميع بجميع حواسهم و انتقلوا عبر الشاشة إلى داخل الكهف.

*** ***

تفرق الرفاق في أرجاء الكهف، يحملون بعض المصابيح اليدوية بالإضافة إلى المصباحين الكبيرين من النوع المخزن للطاقة، يبحثون عما لا يعلمون، و يفتشون عن أمل مجهول، الأرضية و الجدران و النتوءات الصخرية، شبراً بشبر، و ذراعاً بذراع، و زاوية بزاوية، و تأكد لهم بالفعل أن الكهف أوسع مما يظنون، و أعمق مما يحسبون، و بعد ساعة من الزمان مرت عليهم كعام، انطلقت صيحة من حنجرة «جميلة»، تردد صداها

في أرجـاء المـكان و التقطتهـا جميـع الأذان: هلـمَّ يـا رفـاق، إليَّ إليَّ يـا صحــاب.

أسرعـوا إليهـا و أحاطـوا بهـا كزهـرة تغلـق أوراقهـا، ثـم سـلطوا الأضـواء عـلى البقعـة التـي أشـارت إليهـا، و وقفـوا مشـدوهين برهـة لا يحركـون سـاكناً، فـما شـاهدوه كان مذهـلاً، فعنـد هـذه النقطـة يصبـح جـدار الكهـف لـه مسـتويان أحدهمـا أعمـق مـن الآخـر، و المسـافة بينهـما مـترٌ، إذا نظـرت مـن أيـة زاويـة حسـبت أنهـا مجـرد تعرجـات أو نتـوءات في الجـدران، خاصـة مـع وجـود الظـلام، لكـن إذا وقفـت أمامهـا مبـاشرة و اسـتخدمت الإضـاءة، تبـين لـك ممـر بـين المسـتويين يتسـع لمـرور شـخص واحـد.

انطلقـت صيحـات الفرحـة و قفـزات السـعادة، و تبادلـوا العنـاق و عبـارات التهنئـة، ثـم مـاذا؟ كالعـادة ذهبـت السـكرة و جـاءت الفكـرة، و كان أول المتحدثـين «عـادل»، فقـال: مـاذا يعنـي هـذا؟

«عاطف»: ربما يكون منفذاً للسلامة.

«عاصم»: و قد يكون طريقاً للندامة.

«ماجد»: لعله ممر مسدود في النهاية.

«سارة»: و ربما تكون المتاهة.

«حورية»: إذا ظللنا في أماكننا فلن نصل إلى إجابة.

«عادل»: صدقت، لا بد من سبر غور هذا الممر.

«ماجد»: أنا سأتطوع.

قالها و عبر إلى داخل الممر مباشرة، معه المصباح اليدوي، و رفاقه يساعدونه بالمصباحين الكبيرين عند مدخل الممر، مشى عدة أمتار ثم اختفى عن الأنظار، فناداه «عاطف»: لا تبتعد كثيراً، هل وجدت شيئاً؟

جاءهم صوت ماجد من بعيد: لا شيء حتى الآن، لكن يبدو أنه شديد العمق، يضيق أحياناً و يتسع أحياناً أخرى.

«عاصم» صائحاً: يكفي هذا، ارجع و لنفكر في وسيلة أخرى.

شعر «ماجد» أن الصوت يأتي من بعيد جداً، و أدرك أنه لو استمر عدة أمتار أخرى سيفقد التواصل مع رفاقه، فشعر بالرهبة و هم بالعودة، لكن قبل أن يدور للخلف وجه ضوء المصباح لأبعد مسافة ممكن لينظر النظرة الأخيرة قبل المغادرة، فلاحظ شيئاً جعله يستمر و يتقدم، و في تلك الأثناء علت أصوات أصحابه بالنداء لكنه لم يعد يسمعهم فلم يجبهم، فازداد قلقهم، و اشتد ندمهم أن تركوه يدخل وحده دون أية إجراءات احترازية.

«عاطف» في جزع: هل فقدناه؟

«جميلة» و قد كادت تبكي: ما كان ينبغي أن نسمح له بالمحاولة.

«عاصم»: و ما كان يدرينا أنه سيتهور، المفترض أنه كان سيتفقد الممر لبضعة أمتار ثم يرجع.

«عادل»: سأذهب للبحث عنه.

«سارة» بحزم: لا نريد أن نفقد واحداً أخراً منا.

«عادل»: لا يمكننا أن نتركه.

«حورية»: أجل. و لكن دعونا نأخذ الاحتياطات الممكنة، يوجد معنا حبال، يمكننا الاستعانة بها.

لف «عادل» الحبل حول قبضته اليمنى، و أمسك المصباح اليدوي بيده اليسرى، و تقدم نحو الممر، و قال: إن احتجت للمساعدة سأجذب الحبل مرتين.

قبل أن يدلف إلى الممر، سمعوا صوت «ماجد» يصيح من الداخل: أنا قادم، معذرة يا رفاق، أعلم أنني أثرت قلقكم.

و بعد لحظات كان بين ظهرانيهم، فتنفسوا الصعداء و حمدوا الله، ثم سألوه عن الخبر، فقال: وصلت إلى أبعد مسافة يمكن أن تصلني فيها أصواتكم ثم هممت بالرجوع، لكني لاحظت أن الممر يتفرع إلى فرعين بعد عشرة أمتار تقريباً من نقطة فقدان الصوت، فتقدمت و ألقيت نظرة فاحصة، فوجدت أن كلا الفرعين يمتد بعمق إلى الداخل، و كأنهما لا نهاية لهما، فتقدمت بضعة أمتار في الفرع الأول فإذا به يتفرع أيضاً في النهاية إلى فرعين، و كررت المحاولة مع الفرع الثاني فوصلت إلى نفس النتيجة إلا أنه يتفرع إلى ثلاثة أفرع، يعني أصبح لدينا خمسة طرق فرعية حتى الآن، يبدو أنها متاهة بالفعل.

«عادل»: إذاً ما يتناقله الناس حول حوادث الاختفاء في هذه المنطقة حقيقة و ليس إشاعات.

«عاطف»: معنى هذا أننا عدنا إلى نقطة الصفر مرة أخرى، و ليس في مقدورنا سوى الانتظار: النجاة أو الوفاة.

عـاد الأصدقـاء إلى وسـط الكهـف، وسـط شـعور بالإحبـاط و الحـيرة، و القلـق الشـديد مـن السـاعات القادمـة، اسـتلقى «ماجـد» عـلى ظهـره، عاقـداً كفيـه تحـت رأسـه، شـاخصاً إلى السـقف ببـصره، يفكـر في لا شيء، و قـد أحـاط الصمـت بالمـكان، و أصبـح الحديـث ثقيـلاً عـلى اللسـان، حتـى قطـع «عـادل» هـذا الصمـت و قـاوم ثقـل الـكلام عـلى صـدره، فقـال ناصحـاً لرفاقـه: حاولـوا الاقتصـاد في الإضـاءة قـدر الإمـكان.

أغلـق «عاطـف» ضـوء المصبـاح بعصبيـة و قـال: دعونـا نتعـود مـن الآن عـلى الظـلام.

«عـادل»: أنـا لم أقصـد هـذا ، فقـط أردت خفـض الإضـاءة لتسـتمر معنـا أطـول فـترة ممكنـة.

«عاطف» بيأس: لم يعد هناك فارق، فالظلام قادم لا محالة.

«عاصـم» بغيـظ: و إذا كان قـادم بنفسـه فلـما تتعجلـه؟ افتـح المصبـاح و لا تـأتِ بالبـلاء قبـل وقوعـه.

صـاح «ماجـد» فجـأة: لا. انتظـر لا تفتـح المصبـاح، أظـن أننـي لمحـت ومضـة مـن الضـوء في سـقف الكهـف.

رفـع الجميـع رؤوسـهم، و ظلـوا يحملقـون بأبصارهـم، ثـم قالـت «حوريـة»: نعـم يبـدو بالفعـل أن هنـاك شيء مـا يومـض ومضـات خافتـة متقطعـة.

قالـت «سـارة» بمـزاح لا يخلـو مـن المـرارة: ربـما نـسي أحدكـم هاتفـه المحمـول عـلى الشـاحن.

«جميلة» بجدية: هل يمكن أن يكون هناك أحد الأجهزة الكهربية هنا؟

صاح «عادل»: نحن فتشنا كل شبر في الجدران و الأرضية لكن لم ننتبه إلى السقف، أضيئوا كل ما معكم من المصابيح حتى اليدوية منها، و دعونا نلقي نظرة على السقف.

أضاء «عاطف» المصباح الذي بجانبه قائلاً: اغلق المصباح، افتح المصباح، اغلق المصباح، افتح المصباح، استقروا على رأي.

أضاء الجميع ما لديهم من المصابيح تباعاً، و أخذوا يقربوها من السقف و يتفحصون الجهة التي انبعثت منها الومضة، و فجأة صرخت «جميلة»: ها هي. إنها كاميرا.

نظر «ماجد» إلى العدسة و قال: أيها الوغد. أنت معنا من البداية إذن.

«عادل»: أي شيطان هذا الذي يراقب هلاكنا و لا يتدخل لإنقاذنا.

«عاصم»: لا بد أن ينتهي هذا الأمر.

قالها و التقط حجراً من الأرض و قذفه نحو الكاميرا لكنه لم يصبها، انتقلت العدوى للشباب و سرت فيهم سريان النار في الهشيم، فأخذوا يلتقطون كل ما تقع عليه أيديهم من الحجارة و علب العصير الفارغة بل و حتى الأحذية، و يصوبنها إلى الكاميرا و كأنما يرجمون صاحبها، و لكنها كانت مثبتة في مكان يصعب الوصل إليه ، و مخفية بمهارة فائقة بين النتوءات الصخرية فلم تفلح محاولاتهم، و هنا تقدم «عاطف» بغتةً و حمل «ماجد» فوق كتفيه و هو يقول: لا بد من التصويب عن قرب.

التقـط «عاصـم» حجـراً مـن الأرض و قذفـه إلى «ماجـد» الـذي التقطـه بيـده اليـسرى ثـم قذفـه إلى اليمنـى ليحكـم التصويـب، ثـم سـدد رميـةً وضـع فيهـا كل حنقـه و حنكتـه، فانطلقـت القذيفـة نحوهـا هدفهـا و فجرتـه.

*** ***

أغمـض «لبيـب» عينيـه كأنـه يتفـادى الحجـر الـذي أصـاب الكاميرا، و توقفـت الشاشـة عـن البـث، و تبـادل «هانـئ» و الشباب النظـرات ثـم قـال: أمـا زلـت تكابـر في انتهـاء التجربـة؟ أحسـب أنهـا فرصتـك الأخـيرة للتراجـع.

نكـس «لبيـب» رأسـه لحظـات تذكـر فيهـا تفاعلـه مـع طلابـه في محاضراتـه ثـم قـال بحـسرة: نعـم. لقـد انتهـت التجربـة، و علينـا إنقـاذ الشـباب قبـل أن يضيعـوا.

نظـر الشـباب إلى «لبيـب» ثـم إلى القيـود التـي تكبـل أيديهـم و أرجلهـم، ففهـم مغـزى نظراتهـم و قـام يحـل وثاقهـم، بـدأ بالفتاتـين ثـم «ماهـر» و أخـيراً «هانـئ» الـذي قـال فـور تحـرره: هـل كنـت تعلـم بأمـر المتاهـة.

«لبيـب»: لا. و هـذا أشـد مـا يقلقنـي، فقـد يدفعهـم اليـأس إلى محاولـة اجتيازهـا.

«ماهر»: هل لديك وسيلة لإزاحة الصخرة؟

«لبيـب»: أفضـل وسـيلة هـي الحفـار المفـترض أن يصـل مـع رجـالي بعـد غـد.

صرخت «ليلى» و «حنان» في صوت واحد: بعد غد!

«هانـئ»: في وجـود المتاهـة و عـدم وجـود المـاء فالكارثـة محققـة، لا بـد مـن إيجـاد وسـيلة أخـرى.

«ماهـر»: نجتمـع كلنـا عـلى زحزحتهـا و لـو شـبراً واحـداً نمدهـم مـن خلالـه بالضـوء و الأمـل و المـاء.

«لبيـب»: لـو اجتمـع عليهـا عـشرة رجـال أشـداء لمـا أفلحـت محاولتهـم.

«ليلى»: لا مفر من طلب النجدة من أقرب قرية.

«لبيـب»: أقـرب قريـة تبعـد أكثـر مـن مائـة ميـل، و لـن تجـدوا فيهـا حفـاراً بالمواصفـات المطلوبـة، و إذا أخبرتـم أهلهـا البسـطاء عـن مقصدكـم فلـن يأتـوا معكم، فسـمعة هذا المكان لديهم غاية في السـوء.

«حنان»: و الحل؟

«ماهـر»: الحـل أن نذهـب إلى أقـرب مـكان يمكننـا منـه الاتصـال بالشرطـة.

رمقـه «لبيـب» بغضـب، و قـال بحـزم: لـن نفعـل. سـنخرج مـن الأزمـة دون اللجـوء للشرطـة، سـأذهب إلى أقـرب مـكان فيـه تغطيـة مـن شـبكات الهواتـف المحمولـة، و أتصـل بالرجـال لجلـب الحفـار الآن، نحـن مـا زلنـا في السـاعات الأولى مـن النهـار، و إذا تحركـوا فـور اتصـالي بهـم فسـيصلون في الثلـث الأول مـن الليـل.

«ماهـر»: لم تعـد أنـت صاحـب القـرار، و لـن نسـمح أن يسـتمر أصحابنـا في هـذا الخطـر حتـى الثلـث الأول مـن الليـل، يمكننـا

الحصـول عـلى مفتـاح المقطـورة عنـوة، و اسـتخدامها في الوصـول إلى الشرطـة رغـماً عنـك.

«لبيب» و لم يبد عليه الاكتراث بالتهديد: لا. لا يمكنكم.

«ماهر» بتحدي: ماذا يمنعنا؟

اقـترب «لبيـب» مـن «ماهـر» و وقـف في مواجهتـه مبـاشرة، و فتـح سـترته و أشـار إلي المسـدس المعلق في الحـزام، و قال كلمـة واحدة: هذا.

اشـتد الفـزع بالفتاتـين، و تدخـل «هانـئ» مسرعـاً لتهدئـة الموقـف، فقــال: لا داع يــا دكتــور، نحــن نريــد حــل الأزمــة لا أن نزيدهــا تعقيـداً، دعنـا نحـاول زحزحـة الصخـرة باسـتخدام المقطـورة أولاً، ثــم افعــل مــا بــدا لــك بعــد ذلــك.

«لبيب»: لا بأس، و إن كنت أظن أن هذه المحاولة لن تنجح.

«هانئ»: لديك وصلة حديدية أليس كذلك؟

«لبيب»: بلى لدي وصلة طويلة تنتهي بخطافين في الطرفين.

«ماهـر»: الطريـق إلى الكهـف ضيقـة و لا يمكـن للمقطـورة أن تمـر خلا لها .

«هانئ»: سنصل إلى أقرب نقطة ممكنة و نجري المحاولة.

ثبـت «لبيـب» الخطـاف في الحلقـة المخصصـة لـه في العمـود الأفقـي الخلفــي للمقطــورة، بينــما تعــاون «هانــئ» و «ماهــر» عــلى إحاطــة الصخــرة بحبــل متــين ثــم أدخــل «هانــئ» الحبــل داخــل الخطــاف الثـاني، و أعطـى «ماهـر» إشـارة البـدء ليتحـرك «لبيـب» بالمقطـورة، في حـين أحـاط الأربعـة الأخـرون بالصخـرة يحاولـون دفعهـا في نفـس

اتجاه حركة المقطورة، تحركت المقطورة ببطء، و وصلت الوصلة لأقصى امتداد لها، و بدأت تجذب الحبل المحيط بالصخرة، و في نفس الوقت بدأ الرفاق في الدفع بأقصى طاقتهم، و لكن الصخرة لم تتزحزح قيد أنملة، فزاد «لبيب» من الضغط على دواسة الوقود ليزيد من قوة الجذب، فلم تتحرك الصخرة أيضاً إلا أن الحبل انقطع.

كرروا المحاولة للمرة الثانية لكن هذه المرة قاموا بتثبيت الخطاف الثاني في نتوء بارز من الصخرة، فانتهت المحاولة بكسر النتوء، و في المرة الثالثة تمكنوا من تثبيت الخطاف بطريقة أكثر إحكاماً في نتوء أكثر عمقاً، و بدأت المقطورة في إصدار أصوات أشبه بالصراخ، و بدا لهم أن الصخرة على وشك أن تتزحزح، فازدادت حماستهم، و علت صيحاتهم، و ارتسمت على وجوههم أشد علامات العزم و التصميم، لكن قبل أن تتحرك الصخرة انكسرت الحلقة المثبتة في العمود الخلفي للمقطورة، و اندفعت المقطورة للأمام بسرعة بالغة و قد فقد «لبيب» السيطرة عليها لعدة ثوانٍ، ثم استعاد التحكم فيها بصعوبة بالغة و تمكن من إيقافها في اللحظة الأخيرة قبل اصطدامها.

جلس الرفاق يلتقطون الأنفاس بين شهيق الأسى و زفير الاحباط، و قد تمكنت علامات خيبة الأمل من قسمات الوجوه، و «لبيب» يشير لهم مودعاً، و هو يقول: لا مجال لمحاولة أخرى، سأذهب لتنفيذ ما اتفقنا عليه، تأكدوا أنني لن أخذلكم، أنا من أدخلتكم في هذه الورطة، و أنا من سيخرجكم منها.

لم يـرد عليـه واحـد منهـم، و جلسـوا في صمـت يراقبـون المقطـورة و هـي تبتعـد.

*** ***

«عاصـم»: الأمـر يسـتحق محاولـة ثانيـة، فهـذه المتاهـة أصبحـت الأمـل الوحيـد لنـا.

«جميلة»: ماذا تقصد؟

«عاصـم»: نحـاول اكتشـاف الفـروع الخمسـة بحـذر ربـما أحدهـا يـؤدي إلى الخـروج مـن الكهـف.

«ماجـد»: يمكننـا أن نذهـب نحـن الأربعـة، و نتفقـد فرعـاً فرعـاً مـن فـروع المتاهـة الخمـس فعنـد أول تفـرع يقـف أحدنـا و يمـضي الثلاثـة، و عنـد التفـرع الثـاني يقـف أحدنـا و يمـضي الاثنـان، و عنـد التفـرع الثالـث يتوقـف واحـد و يستمر الآخـر، و هكـذا نفعـل مـع كل طريـق مـن الطـرق الفرعيـة الخمسـة لنـرى إلى أيـن ستنتهي بنـا.

«عـادل»: و يكـون التواصـل بيننـا بالأصـوات و الحبـال في حـدود المسـافات التي تسـمح بهـا علو الأولى و طـول الثانية، فكـرة لا بأس بها.

«سارة»: و ماذا عنا نحن الثلاثة؟

«عاصـم»: مــاذا عنكــن؟ ســتنتظرن هنــا بالطبــع، أم تــردن المشــاركة؟

«جميلـة»: أنـا لا قـدرة لي عـلى المشـاركة في هـذه المخاطـرة، و أفضـل الانتظـار هنـا عسـى أن يـأتي الفـرج مـن طريـق غـير المتاهـة.

«حورية»: أما أنا فأريد المشاركة.

«سارة» و هي تقلب النظر بين «حورية» و «جميلة»: أنا مترددة.

«جميلة» بتوسل: أرجوكِ، لا تتركيني وحدي.

«سارة»: حسناً. سأكون في ذيل القافلة بحيث أقف على مسافة يمكنني فيها التواصل و الحديث معك و أنت عند مدخل الممر، و في نفس الوقت التواصل مع «حورية» و هي تقف عند أول تفرع، و ليكمل الرجال الطريق.

هز الرفاق الرؤوس بالموافقة، و أخذوا في تجهيز الحبال و المصابيح، ثم شرعوا في تنفيذ الخطة، و بعدما وصلوا إلى أبعد نقطة ممكنة في كل فرع من الطرق الخمسة، عادوا أدراجهم إلى الكهف بوجبة دسمة من خفي حنين مضاف إليها الاحباط و التعب و الظمأ.

كانت المحاولات الصاخبة لزحزحة الصخرة تتم أثناء وجود الأصدقاء في المتاهة لاستكشافها، و حتى «جميلة» التي انتظرتهم على بابها كانت بعيدة عن الصخرة، فلم تلتقط أذناها صراخ المقطورة، و صياح زملائها.

تحلق الأصدقاء كعادتهم في وسط الكهف ينظرون في أمرهم، فقالت جميلة: معنى هذا أن جميع الطرق تتفرع تفرعات لا نهاية لها؟

«ماجد»: لا نستطيع الجزم بهذا فنحن لم نصل إلى نهايتها، و لكن المسافات التي قطعناها داخلها توحي بذلك.

«عادل»: ما عدا الطريق الأوسط من الفرع الثاني، لم يتفرع حتى اللحظة التي غادرته فيها، و لكنه أيضاً لم يبد له نهاية.

«عاصم»: ربما كان سيتفرع بعد مسافة طويلة نوعاً ما بعكس الطرق الأخرى.

«حورية»: و ربما كان مستقيماً حتى النهاية.

«سارة»: في هذه المسألة لا أحد عنده فصل الخطاب.

«جميلة» و قد أثارت عبارة «حورية» قلقها: و لنفرض أنه مستقيم حتى النهاية، فماذا يعني هذا بالنسبة لكِ؟

«حورية»: يعني أنه يستحق التجربة.

انتفض «عاطف» بعاطفته المعهودة و قال: ماذا تقصدين؟ إياكِ أن تفكري.

«حورية»: من حقي أن أفكر و من حقي أن أتخذ القرار.

«عاصم»: المسألة خطيرة يا «حورية»، و نحن نخشى عليكِ الهلاك.

«حورية» بهدوء: أقدر حسن نواياكم جميعاً، لكن هذا لا يعطيكم الحق في الحجر على حريتي في الاختيار.

«عادل»: بل يعطينا، إذا وجدنا إنساناً مقدماً على الانتحار بإرادته فهل نتركه احتراماً لحريته؟

«سارة»: و ما يدريكم؟ لعل الانتحار هو في الانتظار.

«ماجد»: جميع الاحتمالات قائمة، لكننا نرجح أن اختبار المتاهة أشد خطورة من الانتظار في الكهف.

«حورية»: طالما الأمر قابل للاحتمالات و الترجيحات، فمن حق كل واحد منا أن يرجح ما يشاء منها، لا تنسوا أننا لم نشارك في هذه الرحلة و لم نصل إلى هنا إلا من أجل الاقتراب من كنه الحرية، أفحين تحين ساعة الجد نلقي بها خلف ظهورنا.

«جميلة» بقلق بالغ: هل ستفعلينها حقاً؟

«حورية»: لم أقرر بعد و لكني احتفظ لنفسي بهذا الحق، و ما زالت الفكرة قيد الدراسة.

مال «عاطف» على «عاصم» هامساً: وقتها سأمنع هذه المجنونة بالقوة لأريح ضميري.

فأجابه «عاصم» هامساً أيضاً: و هل حين تراها تلفظ أنفاسها الأخيرة هنا في الكهف ستشعر بالراحة، عقولنا تخبرنا أن المتاهة هي الاحتمال الأضعف في النجاة، لكننا جميعاً نعلم أن الاحتمال الأضعف ينجح أحياناً.

توجهت «حرية» إلى الزاوية القريبة من المصباح كعادتها كلما أرادت القراءة، و أخرجت المذكرات و قبل أن تبدأ لحقت بها «سارة» مسرعة و قالت: أنتِ إنسانة غريبة جداً، كيف يمكنكِ القراءة الآن، أنتِ غير طبيعية قطعاً.

«حورية»: لم يتبق سوى جزء يسير من مذكرات جدي، و قلبي يحدثني أنني قد أجد فيها ما يساعدني على اتخاذ القرار.

«سارة»: لم يعد لدي أدنى قدرة على الجدال، أنتِ و شأنك.

*** ***

مـرت حـوالي السـاعتان عـلى رحيـل «لبيـب» بالمقطـورة، و أوشـك النهـار عـلى الانتصـاف، فجلـس «هانـئ» و «ماهـر» و «ليـلى» و «حنـان» في ظـل شـجرة بالقـرب مـن الصخـرة التـي تسـد مدخـل الكهـف، ثـم قـال «ماهـر» موجهـاً حديثـه لــ «هانـئ»: كيـف تركتـه يمـضي بتلـك البسـاطة؟

«هانئ»: ألم تر أنه كان مسلحاً؟

«ماهـر»: و إن يكـن، كان يمكننـا التحايـل بأيـة وسـيلة، ربـما هرب و تركنـا لمصيرنـا، كيـف تضمـن عودته؟

«هانئ»: سيعود لا شك عندي في ذلك.

«ليلى»: من أين لك تلك الثقة؟ ما الذي سيدفعه للعودة؟

«هانـئ»: غـروره العلمـي، فهـو مـا زال يـرى نفسـه عالمـاً لا مجرماً، و لـو كان يريـد هلاكنـا لمـا أطلـق سراحنا.

«حنـان»: العجيـب أنـه مـع كل تلـك الجلبـة التـي أحدثناهـا، لم تأتنـا أيـة إشـارة مـن داخـل الكهـف تفيـد أن أصدقاءنـا قـد شـعروا بمحاولاتنـا!

«ماهر»: ربما لم يسمعوا.

«ليلى»: و ربما سمعوا لكن ليس لديهم وسيلة لإشعارنا.

«هانئ»: أرجو فقط أن يكونوا لا يزالون بخير.

«حنان»: و ماذا في أيدينا أن نصنع الآن؟

«ماهر»: لا شيء سوى الانتظار.

«ليلى»: لما لا نحاول الوصول إلى النجدة سيراً على الأقدام؟

«هانـئ»: هـذا قـد يتطلـب قطـع مسـافة طويلـة جـداً، و الوقـت الـذي سـنقضيه في قطـع هـذه المسـافة سـيراً عـلى الأقـدام أطـول بكثـير مـن الوقـت المتوقـع لوصـول الحفـار.

«ماهر»: هذا إن وجدنا بعد تلك المسافة من يمكنه مساعدتنا.

«حنان»: يبدو أنه ليس في أيدينا شيء بالفعل.

*** ***

سرعـان مـا اندمجـت «حوريـة» مـع البقيـة الباقيـة مـن مذكـرات جدهـا، و مـا كانـت تقـرأه منهـا لم تكـن تـراه ببصرهـا و إنـما تسـمعه بجنانهـا و تشـاهده بوجدانهـا، فأخـذت تراقـب الكلـمات الصـادرة مـن حنجـرة جدهـا و هـي تتحـول إلى صـور ناطقـة أمامهـا:

(... تعـددت اللقـاءات و توطـدت الصـلات بينـي و بـين الفتـى، فقصصـت عليـه و أنصـت لـه، و جمعتنـا هوايـة المـشي عـدة مـرات، و في احـدى هـذه المـرات جلسـنا عـلى أريكـة في إحـدى المنتزهـات العامـة التـي تطـل عـلى المحيـط في قلـب العـالم، و وضـع الفتـى حقيبتـه بيننـا و أسـند إليهـا ذراعـه، ثـم سـألني الفتـى:

- و لذلك قلتَ إن قصتك هي قصتي؟

- نعم.

- و لكنها ليست كذلك.

- نعم.

- معنى هذا أنك تراها هي هي و في نفس الوقت تراها ليست هي؟

- نعم. فكما لا تتطابق بصمتان لا تتطابق قصتان، فكل واحد على ظهر البسيطة من بني جنسنا نسيج وحده، لم يتكرر في من مات قبله، و لن يتكرر مع من ولد بعده.

- و تعتقد أن كل واحد من هؤلاء له قصة تستحق أن تكتب!

- هذا السؤال إن كان استنكارياً فهو يعكس شعوراً يستوجب طلب المغفرة.

- أي شعور هذا؟

- الشعور بأن الكثير من بني البشر لا نفع لهم، و لا لزوم لوجودهم، و لا طائل من معرفة قصصهم، و أن الحياة كانت ستصبح أجمل بدونهم.

- هذه حقيقة رأيتها بعيني.

- أنت رأيت لقطات و مشاهد من سلوكهم و تصرفاتهم في أجزاء من حياتهم، هذه النظرة الجزئية القاصرة لا يمكن أن تعكس الحقيقة الكاملة.

- هب أنني رأيت الحقيقة الكاملة ألن أجد جماً غفيراً منهم لا جدوى من وجودهم سوى الضرر و التعاسة لمن حولهم؟

- ربـما. و لكـن تذكـر أن حتـى هـؤلاء الأشـقياء وقفـوا بـين يـدي الـذات العلية، و خاطبتهم يـوم «ألسـت؟» و أجابـوا الجـواب الصحيـح، فـكل هـؤلاء حـضروا هـذا المشـهد و أصبحـوا مـن أصحـاب الميثـاق الأول، أتريـد أنـت محوهـم مـن الحيـاة بالممحـاة؟

سـكت الفتـى برهـة، ثـم بـدا لـه أن يعـود إلى النقطـة الأولى، فقـال: و كيـف انتهـت قصتـك؟ و مـا الـذي وصلـت إليـه في رحلتـك؟ هـل أدركـت الحرية؟

- لم تنتـه قصتـي طالمـا لم تنتـه حيـاتي، أمـا عـن الحريـة فلـم أجـد لهـا مـدركاً، كل مـا أسـتطيع أن أقولـه لـك إنهـا موجـودة و حقيقيـة و لكنـي لا أسـتطيع أن أراهـا بعينـي و لا أن ألمسـها بيـدي، و لا يمكننـي إدراك ماهيتهـا و لا الإحاطـة بكنههـا.

- هذا ليس بجواب، هذا عجز عن الجواب.

- العَجْـزُ عَـنْ دَرَكِ الإِدْرَاكِ إدْرَاكُ   وَالبَحْـثُ عَـنْ سرِّ ذات الـسرِّ إشْرَاكُ

وفي سَرائـرِ هِمَّـات الـورى هِمَـمٌ   عـن دركهـا عجزت جنٌّ وأملاك

- و هكـذا أضفـت حضرتـك ركنـاً سـابعاً لأركان الإيـمان، الإيـمان بالحريـة، نؤمـن بهـا لكـن لا نحيـط بهـا.

- حضرتـك، أنـا لم أضـف شـيئاً، فمبحـث الحريـة وثيـق الصلـة بالقضـاء و القـدر، و القـدر ركـن مـن أركان الإيـمان، شـأنه شـأن بقيـة الأركان، مـن ذا الـذي يسـتطيع أن يدعـي أنـه قـد أحـاط بهـا علـما؟ و كـما يشـعر الإنسـان بالعجـز أمـام الـذات المقدسـة العليـة، و أمـام شـخص الرسـول الكريـم، و أمـام آيـات الذكر الحكيـم، و أمـام إدراك

الملائكة المقربين، و أمام فهم الحياة الآخرة، فعليه أن يشعر بالعجز أمام تصاريف الأقدار، و حظه من الاختيار. ثم أشرتُ إلى المحيط و أضفتُ: ها هو المحيط أمام ناظريك، هب أنك أحرزت منه دلواً، أو حتى جمعت منه بحراً، هل يعني هذا أنك سبرت أغواره و كشفت أسراره؟

- كلامك عن المحيط يذكرني بحكيم القرية، يبدو أن جيلكم كله يفكر بنفس الطريقة.

- و كيف تفكر أنت؟

- أفكر بلا حدود، و أشعر بلا حدود، لا أنوي العيش في دوامة العجز، أدرك أن حريتي في التصرف مقيدة لأن هناك قوة أكبر مني لم تأذن لي في التصرف، و لو أذنت لأصبحت حريتي في التصرف مطلقة و لاستطعت تغيير قلب العالم كما أردت، لكنني أدرك أيضاً أن حريتي في التفكير و الشعور مطلقة من البداية، قد وهبت لي منذ خلقت إنساناً.

- كيف تكون حريتك في التفكير مطلقة و هي مقيدة بنسبة الذكاء التي ورثتها، و العلوم التي درستها، و الخبرات التي نلتها؟ كيف يكون العقل مطلقاً و منه اشتق الاعتقال و المعتقل؟

- و هكذا ترى المشاعر أيضاَ؟

- كما يمكن خداع العقل يمكن خداع المشاعر، و كما يزيغ العقل تزيغ المشاعر، و لو مدحت لك شخصاً و أنشدت لك الأشعار في جميل خصاله ستحبه، و لو ذممته لك و نظمت لك القصائد في قبيح فعاله ستبغضه، و أعدك أنني في الحالين لن أكون كذاباً.

- أرجـوك لا تفـرض عـلي نتائجـك، أخبرتـك أن قصتـي ليسـت قصتـك، و أن رحلتـي ليسـت رحلتـك.

- صدقـت يـا صـادق، أنـا بـدأت رحلتـي في خريـف العمـر و أنت بدأتهـا في ربيعـه، و فـررت أنـا إلى قريتـك و فـررت أنت منهـا، و قصتي أوشـكت عـلى نهايتها بينما قصتـك لا تـزال في بدايتها، أدرك هـذا جيداً. أطرقـتُ لحظـات ثـم رفعـتُ رأسي و سـألتُه: هـل فتحـت الصنـدوق؟

- أجـل. و طالعـت الوصايـا، لكنـي لم أعـرف أيـن السـفينة التـي عـلي أن أركبهـا، و لم أحـدد الأصنـام التـي يجـب أن أكسرهـا، و لم أجـد العصـا التـي لا بـد أن ألقيهـا.

- ستعرف يوماً و ستجد حتماً.

- و هل عرفت أنت و وجدت؟

- ألم تخبرني أن قصتك غير قصتي؟

- بلى.

- و أنـا بـدوري أخـبرك أن سـفينتك غـير سـفينتي، و أصنامـك غـير أصنامـي، و عصـاك ليسـت عصـاي.

- نعم، كل واحد من بني جنسنا نسيج وحده.

- أجل.

- و بما تنصحني؟

- العودة إلى القرية.

- هل هذا ما طلبته منك أمي؟

- لا.

- إذن لا.

- و إلى متى ستظل منقطعاً عنها، و لا تراسلها؟ أتظن أنها تحتمل تلك القسوة؟

- أنا لم أنقطع عنها سوى ستة أشهر من بعد الحادثة، و كان ذلك رغماً عني، و قد عاودت مراسلتها منذ ذلك الحين و حتى الآن، فأنا ليس لدي أعز منها.

- فلما لا تعود إليها؟

- عودتي معناها نهاية رحلتي، معناها فشلي في مهمتي.

- و ما معنى بقائك في تلك المصيدة؟ و حتام ستظل أسيراً لقلب العالم؟

- حتى أفهم سر نفاق هذا القلب و قسوته.

- أيهما أولى: أن تفهم سر القلب القاسي أم العودة إلى القلب الحنون؟

- القضية ليست أن تعود إليه و إنما أن تحمله معك، و ليست أن تعيش فيه و إنما أن تعيش به.

- و متى تظن أنك ستفهم هذا السر؟

مد الفتى يده إلى الحقيبة، و وضعها على ركبتيه، و فتحها ليخرج منها صندوقين، أحدهما الصندوق الذي أرسلته والدته السيدة «رحيمة»، و الآخر مماثل له تماماً إلا أنه حديث الصنع،

و فتح الصندوق الأول و أخرج منه القطع الجلدية التي تحتوي الوصايا الثلاث، و أخرج من الآخر ثلاث قطع جلدية أيضاً إلا أنها خالية من الكتابة، ثم أعاد الصندوقين إلى الحقيبة مرة أخرى و أغلقها، و استخدمها كطاولة وضع عليها من الجهة اليمنى الوصايا الثلاث، و من الجهة اليسرى وضع القطع الجلدية الخالية، ثم قال: كما أرسلت لي أمي تلك الوصايا الثلاث، أرسل لي قلب العالم ثلاث رسائل أيضاً شعرت بها في عقلي مع أعنف ثلاث لكمات تلقيتها في الحادثة الأخيرة منذ عامين تقريباً لكني لم استطع أن أتبينها وقتئذ، و لم أتمكن من فك طلاسمها، و منذ ذلك الوقت و أنا أحاول حلها و كشف سرها، و عندما أنجح في حل تلك الشفرة سأتحرر من أسر قلب العالم.

- الصندوق الأول أعرفه تمام المعرفة، أما الثاني فمن أين لك به؟

- صنعته بنفسي، ألم أخبرك عن مدى شغفي بهذا الصندوق، و ما له من ذكريات عندي.

- يبدو أنك ورثت تذوق الجمال و صناعته من جدك.

- أشكرك.

- و كيف كانت محاولاتك لفهم رسائل القلب القاسي، قلب العالم الحالي؟

- كنت أستحضر الأحداث التي مرت بي قبل الواقعة ثم أستعيد المشهد و أحاول أن أنصت و أفهم.

- و هل كنت تشعر بألم الركلات و اللكمات وقتها؟

- نعم.

- لا يمكن الفهم وقت الألم، لا بد أن تتحرر من الألم أولاً.

- و كيف يمكن ذلك؟

- أنت كنت تستعيد المشهد من الداخل، تشاهده من خلف ضلوعك المحطمة، و تشعر أنك داخل هذا الجسد و الركلات و الكلمات تأتيك من الخارج. أليس كذلك؟

- بلى.

- أريدك الآن أن تستعيد المشهد من الخارج، أخرج من خلف أضلاعك المحطمة، و شاهد هذا الجسد من الخارج و كأنه ليس جسدك أنت، و انظر إلى وجوه المهاجمين إلى عيونهم إلى أفواههم، ستقرأ فيها الرسائل التي أرادوا إيصالها.

أغمض الفتي عينيه، و أراح رأسه إلى الخلف، و بعد عدة دقائق لاحظت دمعتين تفلتان من قبضتي جفنيه، ثم فتح عينيه و التقط قلمه من جيب قميصه، و بدأ يسجل ما وصل إليه على القطع الجلدية المرصوصة على الجهة اليسرى من الحقيبة، ثم قال و هو يجفف دمعه: كنت كلما استعدت هذا المشهد أشعر بالألم لكن دون بكاء، و هذه هي المرة الأولى التي استعيده فأبكي لكن دون ألم.

التقطت الحقيبة منه و وضعتها على ركبتي، و أخذت أطالع القطع الجلدية و ما كتب فيها، فوجدت الوصايا التي أحفظها عن ظهر قلب على الجهة اليمنى:

(لكي تجد الحرية يجب أن تركب سفينة النجاة)

(لكي تعيش حراً يجب أن تحطم جميع الأصنام)

(لكي تظل حراً يجب أن تلقي عصاك)

و على الجهة اليسرى وجدت ما سجله الفتى منذ لحظات:

إن أردت أن تعيـش في قلـب العـالم فعليـك أن تكـون تابعـاً لا متبوعـاً.

إن أردت أن تنجـح في قلـب العـالم فعليـك أن تقبـل بالتاريـخ المـزور.

إن أردت أن تسـتمر في قلـب العـالم فعليـك أن تـرضى بالاختيـار الزائـف.

قلـت: أحسـب أن الشـفرة قـد حلـت، و أن الصـورة أمامـك قـد اكتملـت، فـماذا أنـت صانـع؟

- سأنطلق.

- إلى أين؟

- إلى المحطة التالية في رحلتي.

- أمـا زلـت تريـد أن تصلـح العـالم و تحـرره؟ أمـا زلـت تـرى أن مكتبـة الحكيـم فيهـا الكفايـة؟

- إذا أردت أن تعيـش سـعيداً فيجـب أن تسـعد مـن حولـك، و كذلـك إذا أردت أن تحيـا حـراً فعليـك أن تحـرر مـن حولـك.

- الإشكالية يا صديقي أن الأولى عكس الثانية.

- كيف ذلك؟

- لا يسعد الإنسان حقيقة إلا بعد أن يسعد من حوله، بينما لا يمكنه أن يحرر من حوله إلا إذا تحرر هو أولاً، يعني الحالة الأولى تتوافق مع قاعدة ساقي القوم آخرهم، بينما الثانية تتلاءم أكثر مع قاعدة ابدأ بنفسك فانهها عن غيها، فإن انتهت حقاً فأنت حكيم. ففي أي السبيلين ستمضي: سبيل السعادة أم سبيل الحرية؟

- أنا ما زلت في رحلتي مع الحرية، و لن أنتقل منها لغيرها حتى أصل فيها إلى نتيجة مرضية، أعلم أنني تعثرت كثيراً و توقفت طويلاً، لكنني سأبدأ من جديد، و سأصطحب معي نصيحة حكيم قريتي، و وصايا أسرتي، و أحسب أنني حين أجدها و أدل عليها من حولي سأكون سعيداً أيضاً.

- فما هي محطتك التالية إذاً؟

- محطتي التالية هي الوصية الأولى التي جئتني بها، سأبحث عن سفينة النجاة.

- و أين تتوقع أن تجدها.

- من ضمن ما قرأت في مكتبة الحكيم كتاب قديم جداً و عجيب جداً، يتحدث عن منطقة كانت مأهولة ثم أصبحت مهجورة، كانت مقصداً للرحالة و السالكين الذين يبحثون عن أرض تجتمع فيها التناقضات، و تنفك فيها المعضلات، ظاهرها غير باطنها، من يصلها يشعر أنه انتقل من بعد إلى بعد، و من أرض إلى أرض، و من زمان إلى زمان، و من حياة إلى حياة، كأنها جسر بين عالمين، أو برزخ بين حياتين، لكن الخطورة تكمن في أن

الغالبية يصلون إلى ظاهرها و لا يصلون إلي باطنها، و من يصلون منهم غالباً لا يعودون منها، و من يعودون منها لا يتكلمون عنها، و قد ارتبط اسم تلك المنطقة ببعض حوادث الاختفاء، قيل إن ذلك من الأساطير، و قيل بل إشاعات، لكن في النهاية توقف السالكون عن قصدها، و لم يكشف حتى الآن عن سرها، لا أعرف اسمها، و لم أجد رسمها، لكن إن عثرت عليها فأحسب أني سأجد فيها سفينة نجاتي.

مع كل جملة نطقها الفتى كان ضربات قلبي تتصاعد و أنفاسي تتلاحق، فلما انتهى من كلامه قلت له:

- هذه المنطقة تقع في بلادنا، و نطلق عليها غابة الجبل، الآباء و الأجداد يذكرون عنها أشياء من قبيل ما ذكرت، و الأبناء و الأحفاد لا يكادون يعرفون عنها شيئاً مما قصصت، و مما يذكره الأجداد عنها أن فيها عدة متاهات تصل ظاهرها بباطنها، لكن عبور بحر الظلمات أيسر من عبور إحدى هذه المتاهات، أفتطمع أن تتخذ من متاهة الهلاك سفينة للنجاة؟

- أجل. فالكتاب الذي ذكرته لك يحتوي على خريطة لإحدى هذه المتاهات.

- و كيف ستحصل على هذا الكتاب الآن؟

- لا أحتاج إلى الكتاب، تكفيني الخريطة.

قال العبارة السابقة، ثم فتح الحقيبة مرة أخرى، و أخرج من أحد جيوبها ورقة مطوية، نشرها بين أيدينا و هو يقول بحماس و عيناه تشعان بريقاً: نقلتها خطاً بخط، و نقطة بنقطة.

- هـذه مخاطـرة كبـيرة، و العواقـب فيهـا قـد تكـون وخيمـة، مـا يدريـك صـدق الكتـاب و الخريطـة، و مـا يدرينـي دقـة نقلـك لهـا؟

- الأمر يستحق المخاطرة، و المسألة تستحق التجربة.

فكـرت في نهيـه و محاولـة منعـه، لكني تذكـرت أن السـيدة «رحيمة» لم تفعـل ذلـك في رحلتـه الأولى، و تذكـرت قولهـا:(رغبتـه في السـفر أضحـت كالشـجرة المحرمـة التـي يعجـز عـن الصـبر عنهـا البـشر)، فقلـت: هـل تـأذن لي بمرافقتـك؟

أجـاب ببسـاطة ممتزجـة بالمـودة: يسـعدني ذلـك، و قـد أحتـاج عونـك، فهـي بلـدك عـلى كل حـال، و أهـل مكـة أدرى بشـعابها.

- مـا عـدا هـذا الشـعب يـا ولـدي، مـا عنـدي فيـه تجربـة، و لا عهـد لي بـه مـن قبـل.

ابتسـم الفتـى ابتسـامة مشرقـة، ثـم أعـاد الخريطـة إلى الحقيبـة، و أخـرج منهـا الصندوقـين مـرة أخـرى، و وضـع في الأول القطـع الجلديـة السـت التـي تشـتمل عـلى وصايـا القريـة و رسـائل قلـب العـالم، و أعـاده إلى الحقيبـة، ثـم التقـط الصنـدوق الثـاني و قدمـه إلي قائـلاً: لاحظـت مـدى إعجابـك بـه، أرجـو أن تقبلـه منـي هديـة.

بادلـت ابتسـامته المشرقـة بابتسـامة واسـعة، و لمعـت عينـاي و تهلل وجهـي مـن فـرط السـعادة، و التقطـت منـه الصنـدوق، و أنـا أتذكـر أول مـرة رأيتـه فيـه في بيـت السـيدة «رحيمـة»، ثـم و هـي تخـرج منـه الوصايـا عـلى شـاطئ بحـيرة القريـة و تسـلمه لي، ثـم عندمـا رفعتـه فـوق رأسي و أنـا أصيـح عـلى الفتـى حتـى لا يهـرب منـي للمـرة الثانيـة، ثـم قلـت: هديـة فريـدة مـن شـخص فريـد، و هبـة

غاليـة مـن صديـق غـال، و ذكـرى جميلـة لأحـداث و أيـام جميلـة.

تهيـأ الفتـى للانـصراف و هـو يقـول: مـا زالـت لـدي بعـض الأمـور التـي يجـب أن انتهـي منهـا في قلـب العـالم قبـل المغـادرة، عندمـا أتجهـز للسـفر سـأتصل بـك.

- سأكون في انتظار اتصالك.

انـصرف الفتـى، و بقيـت جالسـاً أمـام المحيـط فـترة مـن الزمـن متأمـلاً المـاضي و مترقبـاً الآتي، ثـم أخـذت أكتـب رسـالة إلى السـيدة «رحيمـة» أنبئهـا فيهـا أننـي قـد وفيـت بوعـدي و أتممـت مهمتـي و أوصلـت الأمانـة إلى ولدهـا، و أطمئنهـا بأننـي سـأرفقه في رحلتـه الثانيـة، ثـم شرعـت في كتابـة الصفحـات الأخـيرة مـن تلـك الورقات و وضعتهـا في التحفـة الفنيـة التـي أهداهـا لي الفتـى، ثـم توجهـت إلى أقـرب مكتـب للبريـد لأرسـل هـذه الهديـة لابنـي الوحيـد، و كان آخـر مـا كتبتـه مـا يـلي مـن السـطور:

ولدي الحبيب.. حفيدتي الغالية:

هـذه الورقـات خلاصـة رحلـة امتـدت لخمـس سـنوات، أبحـرت فيهـا و أنـا أحملكـما في عقـلي و قلبـي، حاولـت فيهـا الرسـو عـلى شـاطئ الحريـة لكننـي لم أجـد لهـا شـاطئاً، فالحريـة ليسـت قريـة و لا بلـدة و لا مدينـة، ليسـت بقعـة مـن المـكان كـما أنهـا ليسـت فـترة مـن الزمـان، كـما أخـبرت الفتـي لا يمكنـك أن تراهـا بعينيـك أو تلمسـها بيديـك لكنـك تقـترب منهـا و تشـعر بهـا خاصـة في البدايـات المشرقـة التـي يكـون الدافـع لهـا الخـير المطلـق و في النهايـات المفرحـة التـي تقـترب فيهـا مـن الحقيقـة المطلقـة، هـي محصلـة قـد تصـل إلى الصفـر

و قد تستمر إلى ما لا نهاية، و تضيق أحياناً حتى تصل إلى العدم و تتسع أحيانا حتى تقترب من المطلق، يستحيل في ظني تفسيرها و إدراك كنهها بقوانين كوننا و قدرات عقولنا، فهي تحتاج إلى جوهر آخر من وراء العقل، و إلى عالم آخر من وراء الكون.

أحسب أن رحلتي قد انتهت، و أن مهمتي قد أنجزت، و أن أجراس العودة قد قرعت، و لكن بقيت لي مهمة واحدة، أن أساعد الفتى على الوصول لغابة الجبل، هو يظن أنه سيجد هناك حلاً للغز، أنا لا أظن ذلك و لكني لا أستطيع أن أتركه، سأنهي مهمتي الأخيرة ثم نلتقي.

عندما تصلك هذه الهدية ستكون حوريتك الجميلة قد بلغت ربيعها الخامس عشر من عمرها المبارك، أرجو أن تشاركها تلك الهدية، ثم تعيد الكرة عند تمامها العقد الثاني من حياتها السعيدة، إن كنت معكما وقتها سأعيد قرأتها معها، و إن لم أكن ففيكما الكفاية و اذكراني بالخير.

محبكما

الجد نادر

*** ***

قبيل العصر وصل صوت هدير سيارة إلى أسماع الرفاق خارج الكهف، و بعد لحظات ظهرت المقطورة على مرمى البصر، فقال «هانئ»: ألم أقل لكم. ها هو قد عاد.

فهبوا مسرعين و اجتازوا الممر الذي يفصل ساحة الجبل عن المقطورة ليعرفوا ما جد من الأخبار، فترجل «لبيب» من

المقطـورة ملوحـاً بيـده و هـو يقـول: اطمئنـوا كل شيء سـيكون عـلى مـا يـرام.

«ماهر»: ماذا فعلت.

«لبيـب»: الحفـار في الطريـق، و أتوقـع أن يصـل بعد سـت سـاعات من الآن.

«هانئ»: ستكون أطول ست ساعات في حياتنا و حياتهم.

«ليلى»: المهم أن يصل قبل فوات الأوان.

«لبيب»: قلت سيصل.

«حنان»: لماذا تأخرت؟

«لبيـب»: اشـتريت المزيد مـن الماء و الغـذاء، و المسـتحضرات الطبية و المصابيـح الكهربيـة، و كل ما يمكن أن نحتاج إليه بعد تحرير الشـباب.

*** ***

طـوت «حوريـة» أوراقهـا و الأسـئلة تـدور في رأسـها، مـا هـذه الأحاجـي يـا جـداه؟ هـل أنـت هنـا في «غابـة الجبـل»؟ لمـاذا لم تعـد طـوال تلـك السـنين؟ هـل فقـدت الخريطـة؟ هـل اختفيـت أنـت أيضـا مـع مـن اختفـى؟ لمـاذا لم يخـبرني أبي؟

يبـدو أنـه لا بـد ممـا ليـس منـه بـد، قالـت هـذه العبـارة ثـم قامـت و توجهـت نحـو فتحـة الممـر، لمحهـا «عاطـف» مـن الجهـة الأخـرى للكهـف و فهـم قصدهـا، فنهـض ليحـول بينهـا و بـين مرادهـا، أدركـت مـا نـوى فأسرعـت الخطـى و كذلـك فعـل، زادت مـن سرعتهـا فـزاد مـن سرعتـه، ركضـت فركـض بـدوره، سـابقته

فسابقها ثم سبقها، فوصل إلى مدخل المتاهة قبلها ثم استدار و عقد ساعديه أمام صدره حائلاً بينها و بين خيارها، و تجمع الرفاق من أرجاء الكهف ليلحقوا بهما.

«حورية» بغضب: لا وصاية لك علي، و ليس من حقك منعي.

«عاطف» بانفعال: إنما أفعل ذلك حرصاً على مصلحتك.

«حورية»: و ما يدريك أين تقع المصلحة في هذا الموقف؟ أتظن نفسك أرجح عقلاً و أكثر ذكاء مني؟

«عاطف»: أنا لم أقل هذا يا «حورية».

«حورية»: فما هي المزية التي لك حتى تمنعني من خياري و تجبرني على خيارك؟

«عاطف»: لقد أخبرتك. إنه الحرص ليس إلا.

«حورية»: بل أنا أخبرك، إنه ليس الحرص إنها القوة، فهب أنني الأقوى و أنني أرى المصلحة في اجتياز المتاهة، أيعطني ذلك الحق في جرك من قفاك لعبورها رغم أنفك؟

«عادل»: رويدك يا «حورية»، لا يحق لك هذا، و لا يليق بك.

«حورية»: اعتذر عن الإساءة، لم أقصد الإهانة، فقط أردت أن أضرب مثلاً يوضح ما عنيت.

«عاصم»: دعها يا «عاطف»، قد أديت ما عليك من النصح لها، و كل واحد له عقل في رأسه يعرف به طريق خلاصه.

«ماجد»: رغم فجاجة المثال الذي ذكرته، إلا أنها محقة، فلو

كنا نمثل مجتمعاً أو دولة لكان الفصل في هذا النزاع للقوانين و النظم و الحكومة و البرلمان، و كانت ستجري قاعدة الانتقاص من حرية الفرد لصالح المجتمع، و قاعدة التنازل عن قدر من حرية الفرد في سبيل الاستفادة من منافع الدولة، و لكن هذا الوغد الذي نصب لنا هذا الشرك، تعمد ألا تكون هناك سلطة، و أن نكون مجرد أفراد متساوون، و بالتالي ليس أمامنا إلا إقرار حق الاختيار المطلق أو استخدام القوة.

أفسح «عاطف» الطريق أمام «حورية» و هو يقول: بل حق الاختيار، فما جئنا هنا إلا من أجل الحرية.

«حورية»: شكراً لكم جميعاً، و أرجو أن تسامحوني.

و عندما خطت «حورية» نحو المتاهة، تعلقت بها «سارة» و «جميلة»، فقالت الأولي: أرجوك أن تعيد التفكير.

«حورية»: قد فعلت مراراً.

«جميلة»: أرجوك لا تتركينا.

«حورية»: لو علمت نفعاً لكم في بقائي معكم لما تركتكم.

«سارة»: سأرافقك حتى تتفرع بنا المتاهة.

«جميلة»: ليتني استطيع التغلب على رهبتي من دخول المتاهة.

«حورية» و هي تعانقها: لا عليك، لن تصنع هذه المسافة القليلة فارقاً كبيراً.

تقدم «عادل» و مد يده بمصباح كهربي إلى «حورية» و هو يقول: احتفظي به، من المؤكد أنك ستحتاجين إليه.

«حورية»: معي واحد بالفعل.

«عادل»: من الأفضل أن يكون معك اثنان.

التقطت «حورية» منه المصباح، و قالت: شكراً لك.

«عادل»: في أمان الله.

«عاصم»: أرجو لك النجاة و التوفيق.

«عاطف»: لا تترددي في العودة إن أحسست بالخطر، تصحبك السلامة.

«حورية»: شكراً لكم جميعاً، أرجو أن تصلكم النجدة سريعاً.

عبرت «حورية» و «سارة» من مدخل المتاهة الذي بدا كفك وحش عملاق يلتهم فريسته، و سارتا حتى وصلتا إلى نقطة التفرع الأولى، فقالت «حورية» لصديقتها: حسبك هنا.

«سارة»: بل سأكمل معك حتى التفرع الثاني.

و عند التفرع الثاني، تعانقتا ببكاء صامت حتى انتقلت دموع كل منهما إلى كتف الأخرى، ثم افترقتا، فسلكت «سارة» طريق العودة إلى الكهف، و تقدمت «حورية» نحو الفرع الأوسط الذي أخبرها رفاقها أنه لم يتفرع حتى أقصى موضع تمكنوا من الوصول إليه داخله، و أخذت تعد خطواتها لتتمكن من تقدير المسافة التي ستقطعها، و لتزيل عن نفسها بعض الشعور بالرهبة، و هي تقول لنفسها: ها نحن ننتقل من عد الأنفاس لتقدير الساعات إلى عد الخطوات لتخمين المسافات.

طالت بها الطريق، و كانت تميل بها أحياناً ذات اليمين و ذات الشمال و لكن لا تتفرع، و استمرت في السير حتى أحصت عدة آلاف من الخطوات ثم يئست من العد، و كلما طالت بها الطريق زاد رجاءها و عظم خوفها، و كانت الاحتمالات الثلاثة تتناوب أمام عينها، إما أن تكون الطريق مسدودة في النهاية، و عندها ستواجه صعوبة العودة بعد قطع هذه المسافة الشاسعة، و إما أنها ستتفرع ثانية، و عندها ستواجه صعوبة الاختيار و معضلة الترجيح بين الفرعين الجديدين بغير مرجح، و إما أنها ستحقق أملها في نيل المطلوب و درك المقصود، و عندها أيضا ستواجه صعوبة العودة إلى الديار بعد اجتياز الاختبار.

بدأت تشعر بالإرهاق الشديد، و بدأ يتمكن منها الظمأ، و اضمحلت عزيمتها فتثاقلت خطواتها، و لاح الاحتمال الرابع أمام مخيلتها، احتمال أن تكون المتاهة لا نهاية لها و أن تقضي فيها نحبها، فأخذت تنظر حولها بعينين زائغتين مخافة أن تجد هيكلاً عظمياً لمن سبقها يؤكد لها أنها وصلت قبرها، استمرت الوساوس في صحبتها، و لم تتنازل المخاوف عن رفقتها، و تضاءلت الأماني عندها حتى أصبح منتهى أملها أن تموت في الضوء على ظهر الأرض لا أن تموت في الظلام في بطن الجبل.

توقفت لتقرر هل تجلس لتنتظر الموت دون بذل المزيد من الجهد و التعب أم تستمر في السير حتى أخر رمق؟

جلست بالفعل و شعرت بشيء من الراحة بعد طول المشي، لكنها سرعان ما اكتشفت أن انتظار قدوم المنايا أقسى من الذهاب إليها، فقامت و أطلقت شعاع المصباح لأبعد مسافة

ممكنـة، فلاحظـت أن الطريـق تتسـع بالتدريـج عنـد هـذه النقطـة، فتجـدد الأمـل في روحهـا، فبثـت العزيمـة في نفسـها، و القـوة في بدنها، فواصلـت سـيرها حتـى تأكـد لها مـا لاحظتـه عينهـا، و كلـما تقدمـت كلـما اتسـعت الطريـق أمامهـا، حتـى انتهـت إلى سـاحة فسـيحة، فوقفـت في وسـطها، و أضـاءت المصبـاح الإضـافي الـذي أعطـاه لها «عـادل»، و عـلى ضـوء المصباحـين تفقـدت الجـدران المحيطـة بهـا مـن اليمـين إلى الشـمال، فوجـدت في أقـصى اليمـين طريقـاً فرعيـة جديـدة، و كلـما سـار الضـوء عـلى الجـدار كلـما رأت طريقـاً أخـرى، حتـى أحصـت منهـا سـبعاً، فجثـت عـلى ركبتيهـا و دفنـت وجههـا في كفيهـا، و بكـت بحرقـة عـلى الحـال التـي وصلـت إليهـا، كانـت تتوقـع طريقـين، و كانـت تحمـل هـم الاختيـار بينهـما، و هـا هـي تجد نفسـها مطالبـة بالاختيـار بـين سـبعة خيـارات لا اثنـين، و شـعرت أنـه كلـما اتسـعت حريتهـا في الاختيـار ضاقـت فرصتهـا في الصـواب، فـما فائـدة الاختيـار بغـير علـم، و مـا قيمـة الحريـة بـلا عرفـان، فرفعـت وجههـا نحـو السـماء و قالـت: أرجـوك. . لا أريدهـا. . لا أريـد الحرية، أريـد الهدايـة.

*** ***

تحلـق الرفـاق أمـام الممـر المـؤدي إلى الـوادي الواقـع أمـام الكهـف قبيـل الموعـد المتوقـع لوصـول السيارة التـي تحمـل الحفـار، و أضـاءوا جميـع مـا معهـم مـن المصابيـح ليسـهلوا عـلى السـائق التعـرف عـلى موقعهـم عـن بعـد، فبـدت البقعـة التـي يجلسـون فيهـا كقطعـة مـن النهـار المـشرق وسـط الليـل المظلـم، و جلسـوا يترقبـون مـرور الدقائـق الأخـيرة مـن السـاعات السـت لتحـين سـاعة الصفـر، مـرت

الدقائــق ثقيلــة بطيئــة و دقــت ســاعة الصفــر و لم تظهــر الســيارة و لم يصــل الحفــار، أرهفــوا الســمع و أطلقــوا البــصر لعلهــم يســمعون الموســيقى الصاخبــة الصــادرة عــن محــرك الســيارة أو يشــاهدون الأضــواء الراقصــة المنبعثــة مــن مصابيحهــا، لكــن لا الأولى شــنفت أذانهـم و لا الثانيـة خطفـت أبصارهـم، و اسـتمرت الدقائـق في المـرور البطـيء المسـعر للقلـق المدمـر للأمـل، و أربعـة أزواج من العيـون تنقل البـصر بـين الجهـة المترقـب وصـول الحفـار منهـا بتربـص و شـغف و بـين النظـر للدكتـور «لبيـب» بغيـظ و غضـب، ثـم مـال «ماهـر» نحـو «هانـئ» و همـس في أذنـه: (لـو لم تصـل النجـدة فلـن يكفنـي قتلـه).

ألقـى «ماهـر» عبارتـه و لم ينتظـر جـواب صاحبـه، و إنـما توجـه نحـو صخـرة مرتفعـة إلى حـد مـا و تسـلقها رغـم إصابتـه لتتيـح لـه مسـاحة أوسـع و مسـافة أبعـد مـن الرؤيـة، و في نفـس الوقـت تسـلقت «ليـلى» إحـدى الشـجيرات عـلى الجهـة المقابلـة لنفـس الهـدف، و بعـد حـوالي نصـف سـاعة، صاحـت بمزيـج مـن الفـرح و الجـزع: أرى أضـواء سـيارة مـن بعيـد، لكنـي لا أدري هـل هـي متجهـة إلينـا أم لا؟

«حنـان»: يجـب أن نجبرهـا عـلى التوجـه إلينـا. قالـت عبارتهـا و التقطـت أحـد المصابيـح القويـة و أخـذت تطفئـه و تشـعله عـدة مـرات في الاتجـاه الـذي أشـارت إليـه صديقتهـا.

«ليـلى»: أشـعر أنـه يقـترب، لكنـي لا أدري هـل التقـط إشـارتك أم أنـه طريقـه بطبيعـة الحـال.

«لبيـب»: لا بـد أنهـا سـيارة الحفـار، مـن سـيأتي لهـذا المـكان في هـذا الوقـت غيرهـم.

صاحت «ليلى» بفزع: إن كان كذلك فلما يبتعد الآن!

في هـذه اللحظـة كان «لبيـب» يمـر أسـفل الصخـرة التـي يجلـس «ماهـر» فوقهـا، فلـم يفلـت الأخـير الفرصـة وقفـز نحـوه كالصاعقـة فطرحـه أرضـاً و اشـتبكا في الـصراع، حـاول «لبيـب» أن يدفعـه مـن فـوق صـدره، لكـن «ماهـر» كان يعـرف تمامـاً مـا يريـد، فلكمـه بيـده اليمنـى في نفـس اللحظـة التـي سـلب فيهـا سـلاحه بيـده اليـسرى، اشـتد فـزع «هانـئ» و توجـه نحوهمـا مسرعـاً لمنـع وقـوع جريمـة محتملـة، و لكـن قبـل أن يصـل إليهـما، سـمع صـوت انطـلاق رصاصـة أحدثـت دويـاً مدويـاً، فصـاح بأعـلى صوتـه: لا.

صـاح «ماهـر»: حنانـك يـا دكتـور «هانـئ». أنـا أطلقـت رصاصـة في الهـواء للفـت انتبـاه السـيارة إلينـا فهـي أملنـا الأخـير.

و في نفـس الوقـت صاحـت «ليـلى»: السـيارة توقفـت بالفعـل، و هـا هـي تغـير اتجاههـا نحونـا.

«حنان» بفرح: لقد نجحنا.

«ليـلى»: لكنهـا مـا زالـت بعيـدة و أخشـى أن تحيـد عنـا مـرة أخـرى.

قـام «لبيـب» و هـو ينفـض الغبـار عنـه و قفـز في المقطـورة و أدار محركهـا و أشـعل مصابيحهـا الأماميـة، و بـدأ يسـتخدم آلـة التنبيـه لجـذب السـيارة نحـو موقعهـم.

«ليلى»: لقـد انحرفـت السـيارة عـن مجـال رؤيتـي، لكنـي أحسـب أنـه يمكـن متابعتهـا مـن فـوق الصخـرة المقابلـة.

أعاد «ماهر» تسلق الصخرة، و لحق به «هانئ»، فقال الأول: أجل. يمكن رؤيتها من هنا. فأضاف الثاني: و يبدو أنها متوجهة إلينا بالفعل.

استمر هذا المشهد لبضع دقائق، كلما تقدمت السيارة كلما اشتعل حماسهم و علا صياحهم، و كلما أبطئت أو توقفت كلما اشتد جزعهم و علا صراخهم، حتى وصلت أخيراً و ترجل قائدها و مساعده، فأسرع الجميع إلى استقبالهم.

تقدم السائق نحو الدكتور «لبيب» و صافحه قائلاً: معذرة للتأخير، الطريق ليلاً في غاية الصعوبة، لقد كدنا أن نضل لولا أننا سمعنا صوت مدوياً يأتي من جهتكم، و لاحظنا بعدها بعض الأضواء، ففهمنا الإشارة، و توجهنا نحوكم.

«لبيب»: ليس لدينا مزيداً من الوقت لإضاعته، هل أنتم جاهزون؟

«السائق»: نعم.

و بدأ الرجل على الفور و معه مساعده في إنزال الحفار على عربة صغيرة تعمل بالكهرباء، و قاما بتوصيل الأسلاك بالمولد الكهربي الموجود في السيارة الناقلة، و اجتازوا الممر المؤدي إلى الكهف و خلفهم المجموعة كلها، و في يد كل منهم مصباح، و في اليد الأخرى حقيبة صغيرة ممتلئة بالماء و بعض الأطعمة.

أشار لهما «لبيب» على الموضع الذي يريدهما أن يبدأ منه الحفر، فقاما بتثبيت الحفار عنده، و أتخذ كل منهما الموضع المناسب، ثم قام السائق بسحب اليد المخصصة لبدء التشغيل.

و بدا صوت الحفار المزعج الصاخب كأعذب لحن سمعته أذانهم.

*** ***

كان الجهد قد بلغ بأصحاب الكهف كل مبلغ، و مع ذلك تفرق كل منهم في ركن من أركانه ينظر في حاله، فعادت «جميلة» إلى التضرع و الدعاء، و عادت «سارة» إلى التضجر و الاضطراب، و غرق «عاطف» في المخاوف، و دخل «عاصم» في الوساوس، و فقد «عادل» القدرة على التفكير، و أسقط «ماجد» محاولات التدبير.

و بينما هم على تلك الأحوال، تسللت الاهتزازات لأبدانهم، و الذبذبات لأسماعهم، فقاموا جميعاً من فورهم، و أقبل بعضهم على بعض من كافة أرجاء الكهف، فالتقوا في وسطه على ضوء المصباح الضعيف الذي بقي معهم، ثم توجهوا إلى بابه، حيث تقبع الصخرة العملاقة، و كلما اقتربوا منها زاد شعورهم بالاهتزازات و سمعاهم للذبذبات، فانطلقت حناجرهم:

- أنها النجدة.

- لقد نجونا.

- إنه الحفار.

- لقد فعلها أصدقاؤنا.

- مرحى مرحى.

- الحرية الحرية.

- الحمد لله.

ثم بدأت موجة من الصيحات و القفزات و الضحكات و التصفيق تنتشر بينهم رغم الجوع و العطش و التعب، و تزداد حدتها كلما اقترب الحفار من أنجاز مهمته.

و عندما استسلمت الصخرة، و انكشفت حصونها، و سقطت راياتها، التقى الجمعان وسط الغبار الكثيف و الأتربة، و قد سلطت عليها الأضواء الكاشفة الساطعة فبدت ذرات الغبار بأحجامها و ألوانها المتباينة و كأنها مزيج من اللؤلؤ المنثور و اليواقيت و الأحجار الكريمة.

و وسط هذا المشهد الذي ظاهره يزكم الأنوف و باطنه يسعد النفوس، تصافحت الأيدي و تعانقت الأعناق، و التقت الوجوه و تشابكت القلوب، و تداولوا الزجاجات و الكؤوس، فلما انقشع النقع، و سكن الجمع، اختفى ما كان ظاهراً، و ظهر ما كان خافياً، فانطلق سؤالان من جهتين متقابلتين، أحدهما على لسان «هانئ» و الأخر من حنجرة «ماهر»:

فقال الأول: أين «حورية»؟

و قال الثاني: أين «لبيب»؟

أطرق أصحاب الكهف وجوههم، ثم قال «ماجد» بمزيج من الحزن و الحذر: لقد اختارت اختبار المتاهة.

و تلفت أصحاب المقطورة حولهم ثم قالت «ليلى» بمزيج من الدهشة و الغيظ: لقد اختفى هو و صاحبيه، يبدو أنه قد هرب.

قال «هانئ» بحزم مشوب بالجزع: أين مدخل المتاهة.

أشار «عادل» إلى المدخل، فأنزل «عاطف» يده قبل أن تكتمل إشارته، و قال: أرجوك يا دكتور «هانئ»، لا تجعلنا نفقد صديقين، و نخسر خسارتين فادحتين.

اغرورقت عينا «هانئ» بالدموع، لكن لم يبد أثر ذلك على صوته و هو يقول: لا يمكنني العودة دونها، إما أن أذهب معها، و إما أن آتي بها.

فأشارت له «سارة» نحو المدخل، فالتقط حقيبتين من حقائب الماء و الطعام، و حمل معه مصباحين من المصابيح القوية الكاشفة، و انطلق دون أن يلتفت.

*** ***

خرج الرفاق من الكهف و كأنما عادوا إلى الحياة بعد الموت، فشعروا بمدى لطف الهواء و جمال السماء، و توجهوا نحو الموضع الذي تركوا فيه السيارات عند مجيئهم، و أثناء مشيهم كانوا يسمعون ألحاناً عذبة لا يعلمون مصدرها، تبدو و كأنها تأتي من ثنايا الصخر و أغصان الشجر، فلما وصلوا وجدوا مفاجأة في انتظارهم، فقد كانوا يتوقعون أن يجدوا سيارة «ماجد» فقط، و لكنهم وجدوا المقطورة أيضاً، فقالت «حنان»: يبدو أنه لم يهرب.

«ماهر»: هل بلغ به الجنون هذا الحد؟

«عاطف»: هل من المعقول أن ينتظرنا و هو يدرك ما قد نفعله به.

«ماجد»: نحن بالفعل في حاجة بالغة للمقطورة، فالسيارة الجيب لن تكفينا جميعاً.

«عاصم»: لعله يريد التفاوض معنا.

«عادل»: أياً كان ما يريده سنعلمه بعد لحظات.

حثوا الخطى نحو المقطورة، فلما وصلوا عندها لم يجدوا أحداً داخل موضع القيادة، فصعدوا داخلها فلم يجدوا أحداً أيضاً، نزل «ماجد» من المقطورة، و صعد إلى موضع قيادتها فوجد المفتاح في موضعه، فصاح بفرح: أبشروا يا رفاق، حصلنا على وسيلة مواصلات جاهزة للانطلاق.

نطق عبارته السابقة و هو يدير المفتاح ليتأكد من ذلك، و بالفعل بدأ المحرك في الدوران، و فور تشغيل المحرك، اشتغلت الشاشة أيضاً داخل المقطورة، و ظهر عليها الدكتور «لبيب» و هو يوجه رسالته الأخيرة لهم، قائلاً:

لقد أبليتم بلاء حسناً يا شباب، و أداؤكم داخل الكهف كان رائعاً، رغم أنني لم أتمكن من تفسير قرارات و خيارات كل منكم ربما لأنني لم أعرف ما دار في خبايا نفوسكم، يبدو أن الحرية ليست أكبر خدعة في تاريخ البشرية كما ظننت و لكنها أكبر لغز فيه.

أعتقد أنه من الواضح الآن لديكم أنني لم أتخل عنكم، و هذه المقطورة دليل إضافي على حرصي عليكم، ما واجهتموه من المشاق لم يكن بسبب التجربة، أنا أردت أن أعلمكم و أراد القدر أن يختبركم، لو اكتملت التجربة لكان جدير بكم أن تشعروا بالرضا عما أنجزتم في مجال النفس و أن تشعروا بالفخر لما قدمتم لساحة العلم، لقد أنهيت التجربة و لا يعني ذلك الاعتراف بالفشل، فهي التجربة الأولى من نوعها، و في المرة القادمة سأكون أكثر حرصاً،

فالمـدة الزمنيـة يجـب أن تطـول، و عـلى أن أجـد طريقـة لتسـجيل مـا دار داخلكـم كـما تكمنـت مـن تسـجيل مـا دار بينكـم، و لا بـد بالطبـع مـن وضـع كامـيرا احتياطيـة في التجربـة الثانيـة، فكونـوا مسـتعدين.

ثم ابتسم ابتسامته المستفزة المعهودة و أضاف:

تذكر يا «ماهر» أنني عالجت قدمك و أنك لكمت وجهي.

هذا هو الفارق بين العالم و المتعلم.

انتهـى التسـجيل و انطفـأت الشاشـة، و تناثـرت النظـرات بـين الأصدقـاء، و تباينـت التعبـيرات عـلى وجوههـم، ثـم توالـت التعليقـات:

«ماهر»: المجرم يريد أن يجعل من نفسه قديساً.

«عاطف»: و يريد أن يعيد التجربة كرة أخرى.

«ليلى»: هو ليس مجرما، بل هو مجنون.

«حنـان»: في كلا الحالـين سـنبلغ عنـه الشرطـة، إمـا أن يدخلـوه السـجن و إمـا أن يودعـوه مستشـفى الأمـراض العقليـة.

«جميلة»: لقد فقدنا بسببه «هانئ» و «حورية».

«سارة»: لقد ظن نفسه إلهاً.

«عاصم»: لكن كلامه يستحق شيئاً من التأمل.

«عـادل»: التجربـة كانـت بشـعة في قسـوتها، لكـن لا يمكننـي إنـكار فائدتهـا.

تـوزع الأصدقاء بـين المقطورة و السيارة الجيب، فاسـتقلت الفتيات المقطـورة التـي تطـوع «عاطـف» و «عاصـم» بالتنـاوب عـلى قيادتهـا، بينـما توجـه «عـادل» و «ماهـر» لمرافقـة «ماجـد»، و انطلقـت القافلـة.

«عادل» مخاطباً «ماجد»: هل استمعت لرسالة «لبيب»؟

«ماجد»: نعم. فهناك شاشة صغيرة أيضاً في مقدمة المقطورة.

«عادل»: و ما شعورك نحو ما قال.

«ماجد»: أريد أن أشكره و أقتله.

و أخـذت القافلـة تشـق ظـلام الليـل بأنوارهـا و هـي تبتعـد عـن غابـة الجبـل رويـدا رويـدا.

*** ***

اسـتجمعت «حوريـة» مـا تبقـى لهـا مـن قـوة و قامـت تتفقـد الممـرات السـبعة لتحـاول الاختيـار فيـما بينهـا، فوقفـت أمـام مداخلهـا و أخـذت تسـلط ضـوء المصباحـين- مصباحهـا و المصبـاح الـذي أعطـاه لهـا زميلهـا- عـلى جـدران الممـرات و أرضهـا و سـقفها، فلاحظـت أن أرضيـة الممـر الثالـث تبـدو و كأنهـا مبللـة، فجثـت عـلى ركبتيهـا مـرة أخـرى و لمسـتها بيديهـا فتأكـدت ممـا لاحظـت، و قـررت أن تسـلك هـذا الطريـق، عـلى أمـل أنـه حيثـما وجـد المـاء وجـدت الحيـاة، فالتقطـت صخـرة مـن الأرض و رسـمت بهـا سـهما عـلى الجـدار و كتبـت عليـه اسـمها ثـم شرعـت في اجتيـاز الطريـق التـي اختارتهـا، هـذه المـرة لم تكـن الرحلـة طويلـة كسـابقتها، و كان هـذا مـن رحمـة ربهـا بهـا، فبعـد دقائـق وصلـت إلى نهايتهـا، فوجـدت عينـاً مـن مـاء مسـاحتها ليسـت بالكبـيرة و محاطـة بالكهـف مـن جميـع

الجهات و لا توجد فتحات سوى الممر الذي جاءت منه، كاد اليأس أن يحيط بها كما أحاط الكهف بعين الماء، إلا أنها تساءلت بينها و بين نفسها ما مصدر هذا الماء و من أين جاء؟

بعد لحظات من التردد خاضت «حورية» في الماء حتى وصل إلى جذعها، تناولت غرفة منه و تذوقته بحذر فوجدته عذباً، فشربت منه قليلاً رغم عطشها مخافة ما يمكن أن يسببه من الضرر، ثم وضعت حقيبتها على رقبتها كالسلسلة و غاصت في الماء، و على ضوء مصباحها تمكنت من رؤية الفتحة التي ينبع منها الماء، كانت على عمق ثلاثة أمتار تقريبا، أخرجت رأسها من الماء و التقطت نفساً عميقاً ثم حبسته و غاصت هذه المسافة في محاولة لمعرفة إلى أين تؤدي الفتحة التي ينبع منها الماء، وصلت إلى فوهة الفتحة تحت الماء و سلطت عليها الضوء لكنها لم تستطع أن تحدد مدى عمقها و لا المسافة المطلوب سباحتها تحت الماء لاجتيازها، فصعدت إلى سطح الماء مرة أخرى لالتقاط أنفاسها، و التفكر في أمرها، و بعد دقائق حزمت أمرها.

فتحت حقيبتها و أخرجت منها كيساً و نفخته حتى امتلأ ثم قبضت على فوهته بقوة لتمنع تسرب الهواء منه، و قبضت بيدها الأخرى على المصباح، ثم أخذت تملأ رئتيها بالهواء و تخرجه عدة مرات و كأنما تودعه، و في المرة الأخيرة حبسته و لم تخرجه و غاصت في اتجاه الفتحة التي ينبع منها الماء و أخذت في السباحة بأقصى سرعتها و أشد قوتها، و كانت كلما تفتقر إلى الهواء تثبت فوهة الكيس على فمها بإحكام و ترخي قبضتها قليلاً ثم تقوم بالشهيق و تحاول أن تحتفظ به في رئتها قدر المستطاع، لم تتمكن

من تكرار هذا الأمر أكثر من مرتين ثم تركت الكيس يفلت من قبضتها، و أخذت تصارع الماء لتتجنب الغرق، و عندما شعرت بأن قواها تخور و أنها على وشك الهلاك لمحت بصيصاً من الضوء مصدره ليس الصباح الذي تحمله، فمدت يدها إلى أعلى تبحث عن أي شيء تتعلق به قبل أن تغيب عن الوعي، فعلقت يدها بشيء عرفت فيما بعد أنه كان مجدافاً.

في تلك الأثناء كان الجد «نادر» و رفيقه الفتى «صادق» يستقلان قارباً في وسط البحيرة التي تقع في باطن غابة الجبل، كان الفتى واقفاً في مقدمة القارب يقوم بالتجديف بينما الجد جالساً في الجهة المقابلة، كان الفتى يجدف يمنة مرة و يسرة مرة ليحافظ على توزان القارب، و فجأة و قبل أن ينقل المجداف من الجهة اليمنى للجهة اليسرى شعر بمقاومة عنيفة كأن جسم ثقيل تعلق بالمجداف، فاختل توازنه و سقط في الماء، لكنه قبل يسقط لمح يداً بشرية قابضة على المجداف، كان أثناء سقوطه يجذب طرف المجداف إلى الأسفل بينما الطرف الأخر يرتفع إلى الأعلى و معه صاحبة اليد التي بدت و كأنها حورية البحر الأسطورية، و أخيراً سقط الفتى على الجهة اليسرى بينما كانت اليد تسحب المجداف من الجهة اليمنى لتغوص به مرة أخرى، تحرك الجد بسرعة ليلتقط المجداف قبل أن يغوص و جذبه ناحيته بيده اليمنى و استمر في جذبه ليصل إلى اليد التي تعلقت به، و لكنه قبل أن يصل إليها أفلت المجداف منها، فقبض على معصم الفتاة بيده اليسرى مسرعاً ليمنعها من الغرق، و جذبها ناحية القارب حتى ظهرت رأسها من الماء لكنه لم يستطع أن يحملها وحده إلى داخل القارب فاستنجد بالغلام، الذي سبح أسفل القارب إلى الناحية

التي فيها الفتاة و دفعها إلى الأعلى حتى تمكن الجد من جذبها إلى داخل القارب، ثم صعد بدوره إلى القارب و تناول المجداف و أخذ في التجديف بقوة ناحية الشاطئ بينما الجد منهمكاً في محاولة إسعاف الفتاة.

نجحت محاولة الجد و أخرجت الفتاة بعض الماء من فمها و بدأت في السعال، ثم فتحت عينيها و نظرت إلى الجد و أرادت أن تقول شيئاً لكن خارت قواها مرة أخرى و استسلمت للإغماء، فسأله الفتى: هل ستنجو؟

«نادر»: أرجو ذلك، فهي لا زالت تتنفس.

رمقها «صادق» بطرف عينه و هو يقول بشيء من الخوف: هي؟ من هي ؟ و هل هي إنسية أم جنية؟

نظر «نادر» إلى الوجه الذي امتزج فيه الجمال بالبراءة، و قال: ألم تعلمك السيدة «رحيمة» أن تميز بين الملائكة و الشياطين؟ هذا وجه «حورية» من الجنة لا «جنية» من النار.

«صادق»: و هل من عادة حوريات الجنة الغرق في غابة الجبل؟

«نادر»: ها قد وصلنا إلى الشاطئ فلا تكثر الكلام و هات بعض الأغطية من الخيمة.

أحاط الجد جسد الفتاة بالأغطية و نقلها بمساعدة الفتى إلى جوار الخيمة، ثم أشعل النار لتدفئتها و في نفس الوقت أخذ يعد بعض الأطعمة و الشراب الساخن و هو يقول: يبدو عليها الضعف الشديد كأنها لم تذق طعاماً منذ أيام.

بعد فترة وجيزة أفاقت الفتاة بالتدريج، و عندما اكتمل وعيها نظرت إلى جدها و قالت: توقعت إن نجوت من المتاهة أن ألتقي بك يا جدي في باطن الغابة.

عقد «نادر» حاجبيه متعجباً، ثم خطر في ذهنه أن الفتاة تهذي من شدة الإرهاق، فابتسم ملاطفاً و قال: يشرفني يا ابنتي أن تكون لي حفيدة مثلك.

اعتدلت «حورية» في جلستها، و قالت مؤكدة: أنا «حورية» يا جدي. ألم تعرفني؟

كاد عقل «نادر» أن يطير مغادراً رأسه، و هو يقول: أنا بالفعل لدي حفيدة بهذا الاسم، و لكنها تبلغ من العمر خمسة عشر ربيعاً، و أنتِ يا ابنتي تبدين قد تجاوزت العشرين من عمرك.

انتقلت الدهشة إلى «حورية» و أسقط في يدها فلم تدر ما تقول، ثم تذكرت حقيبتها فصاحت فجأة: أين حقيبتي؟

«نادر» و هو يناولها الحقيبة: ها هي لا تقلقي، نزعتها من رقبتك لأتمكن من إسعافك.

التقطت «حورية» الحقيبة بلهفة و فتحتها و أخرجت منها مذكرات جدها التي وضعتها داخل كيس من البلاستيك حتى لا يصل إليها الماء، و نشرتها أمام جدها و هي تقول: أليست هذه مذكراتك؟

نظر «نادر» إلى المذكرات في ذهول و هو يقول: بلى. كيف حصلتِ عليها؟

و هنا تدخل «صادق» في الحوار لأول مرة بعدما تغلب على دهشته هو الأخر و قال: تقول لك إنها حفيدتك، فتقول لها: كيف حصلتِ عليها؟

«حورية»: و أنت «صادق» ابن السيدة «رحيمة» أليس كذلك؟

«صادق» و قد عاودته فكرة أنها قد لا تكون من البشر: لا أريد أن أتدخل في أموركما العائلية، أرجو أن تخرجيني من الموضوع.

«حورية»: منذ متى و أنتما في غابة الجبل؟

«نادر» و هو لا يزال غارقاً في ذهوله: منذ خمسة أيام؟

«حورية» في فزع: بل منذ خمسة أعوام.

«نادر» و «صادق» في آنٍ واحد: ماذا تقولين!

التقطت «حورية» الحقيبة مرة أخرى و أخرجت منها بطاقتها الجامعية، و وضعتها أمام جدها و هي تقول: انظر إلى الاسم يا جدي؟ انظر إلى تاريخ السنة الدراسية؟

أمسك «نادر» المذاكرات بيد، و البطاقة باليد الأخرى، و أخذ ينقل النظر من التاريخ الذي سجله بخطه على المذاكرات و التاريخ المدون على بطاقة «حورية» الجامعية، ثم هز رأسه كأنما يحاول أن يطرد الفكرة التي تفسر المسألة، لكنه لم ينجح في طردها لأنه لم يجد تفسيراً غيرها، ثم نظر إلى الاسم المدون على البطاقة، ثم رفع بصره بنظرة حانية إلى صاحبة هذا الاسم، و قام إليها يضمها إلى صدره و يقبل رأسها و هو يقول: حورية التي تركتها بالأمس و قد أتمت العقد الأول من عمرها، ألقاها اليوم و قد

تجاوزت العقد الثاني! ثم أضاف ببطء كأنه لا يريد لجملته أن تكتمل حتى لا يواجه تبعاتها: يبدو أن اليوم داخل غابة الجبل بعام خارجها.

«صادق» مكرراً نفس المعنى: يعني اليوم في بطنها بسنة على ظهرها.

«نادر» و قد أخذ يستوعب الأمر و يحاول التعامل معه: يبدو أنك بدلاً من أن تجد سفينة النجاة، وجدت سفينة الزمان.

«حورية»: رغم أن الأمر لا يكاد يصدق، إلا أنه يفسر لماذا لم تعد كما ذكرت في مذكراتك، لكنه لا يفسر لماذا لم يأت أبي للبحث عنك منذ خمس سنين؟ و لماذا لم يبلغ السلطات؟

«نادر»: أنا طلبت منه ذلك. عندما وصلنا إلى المطار و قبل أن نتوجه إلى هنا اتصلت بأبيك هاتفياً، و أخبرته أننا لا نعلم ما قد نواجه في تلك الرحلة، و لكننا نعلم أن المتاهة هي طريقنا الوحيد للعودة، و لو تأخرنا لأي سبب و علمت السلطات باختفائنا فسيقومون بسد جميع المتاهات حتى لا تتكرر حوادث الاختفاء، و بهذا سنكون فقدنا وسيلتنا للعودة إلى الأبد.

«صادق»: لدي خيمة إضافية، سأبدل ملابسي ثم أنصبها لحفيدتك لترتاح فيها بعد رحلتها الشاقة التي لا نعرف عنها شيئاً، بينما هي تعرف كل شيء عن رحلتك و عني، بل و حتى عن أمي السيدة «رحيمة» بفضل مذكرات سعادتك.

«نادر»: دعها تتناول شيئاً من الطعام و الشراب الساخن، و تنال قدراً من الراحة، ثم تحكي لنا قصتها.

قـام «صـادق» لينفـذ مـا قالـه، و شرعـت «حوريـة» في تنـاول مـا أعـده لهـا جدهـا، ثـم قالـت: أنـا بالفعـل أعـرف قصتكـما قبـل وصولكـما إلى هنـا، لكنـي لا أعـرف التطـورات التـي واجهتكـما بعـد ذلـك، كيـف تعاملتـما مـع غابـة الجبـل؟ و مـاذا وجدتمـا فيهـا؟

«نـادر»: المـكان كـما تريـن مكـون مـن تلـك البحـيرة، و خلفهـا- عـلى الشـاطئ المقابـل- توجـد حديقـة رائعـة ممتـدة بعمـق بـين جبلين، و عـلى هـذا الشـاطئ - الـذي نصبنـا عليـه خيامنـا- تقـع المتاهـة التـي قدمنـا منهـا، و الجبـال الشـاهقة تحيـط بالبحـيرة و الحديقـة مـن كل جانـب، فترسـم هـذا المشـهد البديـع، و في نفـس الوقـت تعـزل الغابـة و تخفيهـا تمامـاً عـن العـالم الخارجـي.

«حورية»: و كيف أمضيتم الأيام أو الأعوام الخمسة الماضية؟

«نـادر»: لا شيء سـوى التجـول في الحديقـة، و لكـن هـذا الـلا شيء هـو كل شيء، فهـذه الحديقـة أعجوبـة مـن أعاجيـب الزمـان و المـكان، فـور دخولـك إليهـا يصعـب عليـك مغادرتهـا، فأنـتِ تجديـن فيهـا خـلال لحظـات مـا كنـت تبحثـين عنـه طـوال سـنوات، لا أسـتطيع أن أصـف لـكِ، لا بـد مـن التجربـة الشـخصية.

«حورية»: حتماً سأفعل.

انتهـى «صـادق» مـن نصـب الخيمـة، و انتهـت «حوريـة» مـن طعامهـا، و قامـت لتسـتريح و تصلـح مـن شـأنها، و عـادت بعـد فـترة و قـد اسـتعادت نشـاطها و نضارتهـا، فجلسـت مـع جدهـا و رفيقـه و قصـت عليهـما رحلتهـا، بدايـة مـن محـاضرة الدكتـور لبيـب ثـم الوصـول إلى الكهـف و نهايـة بالمتاهـة و مـا أدراك مـا المتاهـة، أنصتـا

لها بجميع حواسها، ثم قال جدها: لقد عانيت كثيراً يا ابنتي، و لكنك في النهاية نجوت.

«حورية»: أرجو أن تكون النجاة قد حالفت أصدقائي أيضاً.

«صادق» كأنما يحدث نفسه: كل هذا من أجل متاهة الحرية! أتراها تستحق؟

غرق ثلاثتهم في التأمل برهة، ثم قطعت «حورية» الصمت و قالت لجدها: سأتجول قليلاً في الحديقة.

«الجد»: يمكنك السير حول البحيرة و لكن ذلك سيستغرق بعض الوقت، الأفضل عبور البحيرة بالقارب، و يمكننا مرافقتك، أليس كذلك يا «صادق».

«صادق»: بالطبع، و هل هناك ملاح غيري ابتعتماه هنا؟

ترجلت «حورية» و جدها على الشاطئ المقابل، بينما بقي «صادق» في القارب، فأشار الجد إلى الحديقة، و قال: ها هي بغيتك، فانطلقي إليها.

«حورية»: ألن ترافقني.

«الجد»: لا أريد أن أشوش عليك تجربتك، و لا أن أفسد عليك خلوتك. ثم جلس على صخرة ملساء، و أخرج من جيبه قلما و دفتراً صغيراً و قال: سأنتظرك هنا، فلدي ما أريد أن أدونه.

«حورية»: لعله الجزء الثاني من رحلات السندباد.

«الجد» مبتسماً: ربما.

«صـادق»: و أنـا سـأعود إلى وسـط البحـيرة في محاولـة جديـدة للصيـد.

مـا أن وطئـت قدماهـا أرض الحديقـة حتـى بـدأت تشـعر بخـبرة شـعورية لم تمـر بوجدانهـا مـن قبـل، و مـع كل خطـوة داخلهـا كانـت تجـد داخلهـا مزيجـاً مـن الصفـاء الذهنـي الفريـد، و الإشراق الروحـي العجيـب، و بـدأت تعيـش حالـة مـن ذوبـان الجليـد و زوال الحجـب، فـما كان قاسـياً أصبـح لينـاً، و مـا كان كثيفـاً أضحـى لطيفـاً، و مـا كان معتـماً أمسـى زاهـراً، و مـا كان غائبـاً بـات حـاضراً.

كان المـكان شـبيهاً بحديقـة الخالديـن التـي اعتـادت أن ترتادهـا للترويـح أو التأمـل أو المطالعـة، حتـى تماثيـل العلـماء و الأدبـاء و الشـعراء و الحكـماء كانـت شـاخصة هنـا أيضـاً و لكـن مـع الفـارق، ففـي حديقـة الخالديـن كانـت هـذه التماثيـل لا حيـاة فيهـا، يغشـاها الصمـت و يلفهـا السـكون، بينـما هنـا تشـعر و كأن أرواح أصحابهـا تحيـط بـك و بهـا، و بمجـرد الوقـوف أمـام واحـد منهـا يحـدث نـوع مـن التواصـل مـع صاحبهـا، فيتلـو عليـك أبياتـه، و ينثر لـك كلماتـه، و يطلعـك عـلى كتاباتـه، و يـشركك في تأملاتـه، و يصحبـك في رحلاتـه، فتنسـاب داخلـك سـيمفونية مـن الأفـكار و المشـاعر و الخـبرات و المعـارف تضطـرب لهـا في البدايـة ثـم تطـرب لهـا في النهاية.

إذا تجـاوزت العلـماء و الأدبـاء و الشـعراء و الحكـماء و واصلـت الارتقـاء في تلـك الجنـة الغَنَّـاء سـتنعم برؤيـة الكثـير مـن المشـكلات و هـي تنحـل، و العديـد مـن العقـد و هـي تنفـك، و مـا كنـت تظنـه مسـتحيلاً مـن بـاب الترجيـح بغـير مرجـح ستكتشـف أن المرجـح كان حـاضراً و لكنـك حسـبته غائبـاً، و مـا كنـت تعتقـد أنـه مـن قبيـل

اجتماع الضدين ستدرك أنهما لما يكونا ضدين إلا في مخيلتك، و ما كنت تراه تحصيلاً لحاصل سيتبين لك أنه لم يحصل بعد، عند هذه اللحظة ستجتمع المتناقضات أو تختفي، و ستنكشف الأسرار، و ستزول معضلة الجبر و الاختيار، و معضلة العلم السابق و الفعل اللاحق، و سترى الأمور لا بعين الرأس و لا بعين العقل و إنما بعين الروح، كما رأيتها لأول مرة في يوم الشهود.

عندما مرت «حورية» بتلك الرحلة الروحية، بدأت تجد إجابات للتساؤلات، و فهمت ما عناه جدها بقوله لها:(تجدين فيها خلال لحظات ما كنت تبحثين عنه طوال سنوات). بل كانت بمجرد أن يخطر السؤال على بالها تجد جوابه في ذهنها، و عند هذه اللحظة لم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال عن رفاقها، فجاءها الجواب بأنهم على ما يرام و في طريقهم لبر الأمان، فقالت: و «هانئ»؟ أين هو الآن؟

- في البحيرة يستغيث بالرحمن.

كانت على وشك أن تطأ الأرض بقدمها اليسرى لتكمل خطوة جديدة إلى الأمام في الحديقة، فأبقتها معلقة في الهواء، و على الفور دارت على قدمها اليمنى مائة و ثمانين درجة رسمت قوساً مكتملة على تربة الجنة لتغير اتجاهها إلى الخلف و انطلقت كالسهم في اتجاه البحيرة، لمحها جدها من بعيد و لكنه لم يتبين ملامح الفزع على وجهها، فقال: أخبرتها أنها سيصعب عليها مغادرة الحديقة، فإذا بها تغادرها كالقذيفة، تأبى حفيدتي إلا أن تحطم توقعاتي.

عندمـا انتهـى مـن عبارتـه كانـت قـد اقتربـت قليـلاً فقـرأ عـلى وجههـا مـا جعلـه يركـض نحوهـا، لكنهـا أشـارت إلى البحـيرة، و صاحـت بأعـلى صوتهـا: أنقـذاه.

فهـم الجـد الإشـارة و التقـط الرسـالة، فالتفـت بـدوره إلى «صادق» و صـاح و هـو يشـير إلى نفـس المـكان الـذي عثـرا فيـه عـلى «حوريـة» قائـلاً: اقفـز يـا غـلام.

انتبـه «صـادق» لصيـاح الجـد و ركـض الحفيـدة، فقـال: لا شـك عنـدي أنـك و حفيدتـك تريـدان قتـلي. ثـم مـلأ رئتيـه بالهـواء و قفـز برأسـه في المـاء، و أخـذ يغـوص حتـى اختفـى عـن النظـر، و بعـد دقيقـة مـرت ثقيلـة بطيئـة، ظهـر مـن جديـد و معـه الغريـق، تنفسـت «حوريـة» الصعـداء، ثـم عاودهـا الاضطـراب فهـي لا تـدري هـل نجـا الغريـق أم قـضى؟

بـذل «صـادق» جهـداً كبـيراً ليتمكـن مـن رفـع «هانـئ» مـن البحـيرة إلى القـارب، ثـم أنهمـك في محاولـة إسـعافه دون أن يلتفـت إلى «نـادر» و حفيدتـه، فلـما نجحـت المحاولـة نظـر إليهـما و رفـع يـده بعلامـة النـصر، فقفـزت «حوريـة» في الهـواء، و أخـذت تصفـق بكفيهـا و تـدور حـول جدهـا كأنـما تراقصـه، و هـو يشـاركها فرحتهـا جـذلاً مبتسـماً.

أخـذ «صـادق» يجـدف في اتجـاه الخيمـة و أشـار لهـما أن يلحقـا بهـما سـيراً عـلى الأقـدام، و عندمـا التقـوا عـلى الشـاطئ كـرروا مـع «هانئ» مـا فعلـوه مـع «حوريـة»، فلـما أفـاق مـن غيبوبتـه و اسـتعاد حيويتـه سـمع منهـم و حكـى لهـم حكايتـه، ثـم خـاض في الحديقـة تجربتـه و عندمـا عـاد قالـت لـه «حوريـة»: لمـاذا خاطـرت بعـد مـا زال الخطـر؟

«هانئ»: وعدت أباك ألا أرجع دونك.

«حورية»: أنا مدينة لك إذن.

«هانئ»: بل أنا المدين لكِ، فقدت أنقذتِ حياتي مرتين.

«حورية»: كيف؟

«هانئ»: مرة عندما رسمت السهم على ممر النجاة في المتاهة، و مرة عندما أرسلتِ لي من ينقذني من الغرق.

«صادق»: يعني أنت مدين لمن صاح و صرخ و لست مديناً لمن قفز و غطس؟

ضحك الجد ضحكة ذات مغزى و قال: ستفهم غداً يا فتى.

اضطرب «هانئ» و قال: معذرة لم أقصد هذا، فأنا مدين لك أيضاً، بل أنا مدين لكم جميعاً.

«صادق»: لا عليك، يبدو أن السمك في هذه البحيرة مستجاب الدعوة، كلما أردت صيداً تلقيت درساً.

«هانئ» مغيراً دفة الحديث: و الآن ماذا نحن فاعلون؟ هل ستغادرون؟

«حورية»: اليوم هنا بسنة، فالبقاء صعب لكن الرحيل أيضاً صعب فما وجدناه في الحديقة كنز لا يفرط فيه.

«هانئ»: يمكننا العودة مرة أخرى.

«نادر»: أنا ما جئت هنا إلا لمرافقة هذا الفتى الطيب فأحب أن أعرف قراره قبل أن أختار.

«صادق»: لقد غادرت قريتي منذ خمسة أعوام، و الأيام التي قضيناها هنا أضافت إليها خمسة أخرى، يعني حتى الآن غبت عن أمي عقداً من الزمان، أحسب أنه قد آن الأوان.

«حورية»: لو كان معنا أبي لما فكرت في العودة أبداً. الآن أدرك لماذا الكثيرون لا يعودون، لكنني لا أفهم لماذا من يعودون لا يتكلمون؟ و قد خطر لي هذا السؤال في الحديقة و رغم ذلك لم يحضرني الجواب.

«هانئ»: ظاهرة حصول الجواب في الحديقة ليست مطلقة، فقد لاحظت أيضا أن الأسئلة المستقبلية لا إجابة لها هنا، فقد تسألت أثناء تجولي: هل سنعود منها أم سنبقى فيها؟ فلم تجبني.

«نادر»: نعم لأن هذا اختيارك لا اختيارها.

«صادق»: الحديقة و ما فيها تحتاج دراسة عميقة، و عزاؤنا في امتلاكنا لحق العودة، فمعنا الخريطة.

«حورية»: هذه الخريطة ستغير وجه الحياة على ظهر البسيطة، فعندما يعلم العالم الخارجي بأسرار الحديقة سيأتي البشر إليها من كل حدب و صوب.

«هانئ»: يجب أن يظل الإعلان عن هذا الكشف في حدود أضيق الدوائر العلمية الرسمية حتى لا تحدث فوضى عارمة.

«حورية»: و لماذا نحرم الناس من تلك التجربة المعرفية الروحية؟ لماذا الحجر على الحرية؟

«هانـئ»: الحريـة مـرة أخـرى يـا «حوريـة»؟ المسـألة هنـا ليسـت في منـح الحريـة أو سـلبها فنحـن لا نملكهـا أصـلاً، و لكـن هنـاك قواعـد علميـة لا بـد أن تتبـع و اعتبـارات أكاديميـة لا بـد أن تحـترم، لا تنسي أن هـذه وظيفتـي، و لم يكـن صدامـي مـع الدكتـور «لبيـب» إلا لأنـه أراد التحايـل عـلى الأولى و القفـز عـلى الثانيـة.

همـت «حوريـة» بالـرد، لكـن جدهـا تدخـل ليضـع حـداً لهـذا النقـاش، فقـال: دعونـا ننتهـي مـن مناقشـة مـا يخصنـا أولاً، و نحـزم أمرنـا و نقـر قرارنـا، ثـم بعـد ذلـك نناقـش مشـكلة البشريـة و نحلهـا.

«صادق»: أنا اخترت العودة.

«هانـئ»: أجـل عودتنـا أكثـر فائـدة للعـالم الخارجـي مـن بقائنـا هنـا، لا بـد مـن وضـع خطـة محكمـة لدراسـة هـذه الظاهـرة يشـارك فيهـا فريـق مـن العلـماء مـن عـدة تخصصـات و أرجـو أن يكـون لي شرف الانضـمام لهـذا الفريـق.

«حوريـة»: بـل عودتنـا بعدمـا وجدنـا سـتكون أشـبه بخـروج أبينـا آدم مـن الجنـة، و لكـن مـا باليـد حيلـة، فعـلاً العـزاء الوحيـد في الخريطـة.

«نـادر»: حسـناً. طالمـا الريـح تدفـع سـفينتنا في اتجـاه العـودة فدعونـا نتجهـز لهـا حتـى لا يمتـد غيابنـا لعـام أخـر.

انهمـك «نـادر» و «صـادق» في إعـداد العـدة للرحيـل، بينـما جلسـت «حوريـة» عـلى شـاطئ البحـيرة شـاخصة البـصر دامعـة العـين، فلحـق بهـا «هانـئ» يحـاول أن يخفـف عنهـا، و يذكرهـا بأبيهـا، و يعدهـا خـيراً.

بالفعل عندما تذكرت «حورية» أباها، بدأت تتحمس للمغادرة، و نشطت لتساعد جدها في جمع أغراضه، فلما انتهوا من اللمسات الأخيرة لتجهيز رحلة العودة قال الجد: أظن أننا جاهزون الآن، هل أنتم مستعدون؟

فقالوا: أجل.

فقال: إذن هيا بنا.

قام «صادق» و «هانئ» بحمل الأمتعة، و توجه الرهط ناحية المتاهة، فلما وصلوا إلى مدخلها التفتوا إلى البحيرة و الحديقة و ظلوا واقفين برهة يتأملون الغابة و يودعونها و يتذكرون أهم المشاهد في رحلاتهم، و أهم الخبرات و المعارف و الإجابات و الأسرار التي انكشفت لهم و انسكبت في أرواحهم، ثم رفع الجد يده ملوحاً للغابة بالتحية، فشعروا جميعاً أنه يعبر عما بداخلهم، ففعلوا مثلما فعل، ثم أشار الجد إلى «صادق» أن يتقدم ليقوم بدور الدليل في رحلة العودة، فاستدار الفتى و خطى داخل المتاهة و تبعه بقيتهم، و بدا و كأن الغابة تراقبهم و هم يبتعدون رويداً رويداً حتى اختفت أجسامهم داخل المتاهة، و بقيت لوهلة أصواتهم تنقل شيئاً من كلامهم.

«صادق»: أين الخريطة؟

«نادر»: أليست معك يا فتى؟

«صادق»: ألم تأخذها منى عقب وصولنا؟

«نادر»: كف عن المزاح و قم بدورك كدليلنا في الرحلة.

«هانئ»: ترى كم بقينا هنا بتوقيت عالمنا؟

«حورية»: ربما من ثلاثة إلى ستة أشهر.

«هانئ»: مدة ليست بالقليلة.

«حورية»: يا ترى ماذا فعل أصدقاؤنا فيها؟

«نادر»: لو أمضينا شهراً واحداً هنا كنت سأصبح أصغر من أبيك.

«صادق»: أضيئوا المزيد من المصابيح فالظلام شديد.

و بعدما قطعوا نصف المسافة، سلط «صادق» الضوء على الخريطة، و هو يقول: علينا أن نسلك الممر الأيمن ثم، ثم لم يكمل عبارته، فقد توقف فجأة عن الكلام.

«نادر»: لماذا سكت يا فتى؟

«صادق»: هناك ظاهرة عجيبة، بل مستحيلة.

«حورية»: ماذا حدث؟

رفع «صادق» الخريطة أمامهم و سلط عليها الضوء، و هو يقول: انظروا. الجزء الذي قطعناه حتى الآن اختفى!

«هانئ»: أجل. كأن الخريطة تبدأ من النقطة التي نحن فيها الآن.

«حورية»: هذا معناه أننا لن يمكننا العودة للغابة مرة أخرى.

«نادر»: و من يريد العودة؟

«هانئ»: صحيح. فليس هناك سوى بحيرة محاطة بالجبال.

«صادق»: فعلاً. الرحلة لم تحقق هدفها، و لم تكن الغابة بالنسبة لي سفينة النجاة.

«حورية»: و لكن لماذا تمحى الخريطة؟ و كيف يتم هذا تلقائياً؟ لا بد أن نطلب حل هذا اللغز عندما نصل.

«نادر»: و من سيصدقنا إن قلنا أنه كانت معنا خريطة و انمحت؟

«صادق»: يبدو بالفعل أن الأفضل ألا نثير هذا الموضوع على الملأ.

«هانئ»: المهم أن ننجو، و أن نطمئن أن أصدقاءنا على ما يرام، و نعلم ماذا فعلوا مع «لبيب».

«حورية»: لكم أشتاق إلى أبي، و صديقتي «سارة».

*** ***

و استمرت الرحلة و كلما قطعوا شوطاً اختفى من الخريطة، فلما وصلوا إلى نهاية المتاهة كانت الخريطة قد محيت بالكامل، و في نفس اللحظة التي خرجوا فيها من المتاهة، و في قرية «الحرية» على بعد ألاف الأميال، كان حكيم القرية يدخل إلى مكتبته، و يقوم بطقوسه المعتادة في القراءة، فيملأ المصباح بالزيت ثم يوقده، و يضعه على يمينه، ثم يشعل المجمرة و يضعها على يساره لأنه على قناعة تامة أن الروائح الطيبة تجذب الأرواح الطيبة، و أن القراءة في حضور تلك الأرواح تكون أعمق أثراً و أرجى نفعاً،

ثـم يجلس القرفصـاء عـلى قطعـة مـن القطيفـة الليـنـة و يغمـض عينيـه ثـم يمـد يـده إلى المكتبـة و يسـحب منهـا كتابـاً و يفتـح صفحـة منـه ثـم يبـدأ في قـراءة مـا تقـع عليـه عينـاه بصـوت مسـموع.

كان الكتـاب الـذي وقـع في يـده هـذه المـرة يدعـى «غابة الجبـل»، و كانـت الفقـرة التـي قرأهـا بصوتـه الهـادئ المميـز تنـص عـلى مـا يـلي:

(.. و مـن عجائـب هـذا المـكان أنـه لا يمكـن لإنسـان أن يدخلـه أكثـر مـن مـرة واحـدة في الزمـان، و أنـه إذا دخلـه ثـم خـرج منـه نـسي مـا كان، فمـن يصلـون هنـاك عـادة لا يعـودون، و مـن يعـودون لا يتكلمـون لأنهـم لا يتذكـرون، نعـم هـم يتذكـرون المـكان و البحـيرة و الجبـال، و لكـن ينسـون حديقـة الأسرار، يتذكـرون فقـط مـا قبلهـا و مـا بعدهـا، و لكـن أبـداً لا يذكرونهـا، و يمحـى مـن عقولهـم مـا تعلمـوه فيهـا، و مـن قلوبهـم مـا تذوقـوه، و مـن أبصارهـم مـا شـاهدوه، و مـن أسـماعهم مـا سـمعوه، و مـن أوراقهـم و دفاترهـم مـا كتبـوه، و مـن خرائطهـم مـا رسـموه، و ينسـون مـا خـبروه فيهـا و مـا قـرؤه عنهـا، و يبقـى فقـط لأرواحهـم أشـواقاً إليهـا و إشراقـات منهـا، و لكنهـم يعجـزون غالبـاً عـن معرفـة أن هـذه الجنـة الواقعـة في باطـن غابـة الجبـل هـي منبـع الأشـواق و مصـدر الإشراقـات..).

تمت بحمد الله

رمضان ١٤٣٧هـ

يونيو ٢٠١٦ مـ

المدينة المنورة

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع